الجامعة الإسـلامية – غـزة
عمـادة الدراسـات العليـا
كليـــة الآداب
قـسم التـاريخ



الحركـة الصوفيـة في بـلاد الشـام خـلال الحـروب الصليبيـة

(٤٩٢-٦٩٠هـ) / (١٠٩٨-١٢٩١م)

إعـداد الطالـب

ريـاض صالـح علـي حشيـش

إشـراف

د. ريـاض مصطفى شـاهيـن

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ (بحث تكميلي) في قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة – فلسطين.

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



والذين جاهـدوا فينـا لنهدينهـم سبلنـا وإن الله لمع المحسنين



(سورة العنكبــوت: ٦٩)

الإهداء

- إلى روح والــــــدتي..
- إلى روح والــــــدي..
- إلى زوجتي الطيبة الكريمة أم صالح التي كان لها الفضل في تذليل الصعاب وتوفير أجواء الصبر والصمود والسكينة..
- إلى أبنائي الأعزاء: أسماء ووسام وفداء وصالح ومحمد وصهيب ومحمود الذين أضاءوا لنا بفضل الله سبحانه وتعالى درب الخير والسعادة..
- إلى إخواني وأخواتي الأعزاء أدامهم الله..
- إلى كل أصدقائي المحبين وعلى رأسهم الأخوة الأصدقاء/ جمال العقيلي وتيسير الجعبري وبهاء أبو العطا..
- إلى أرواح شهداء فلسطين الأبرار..
- إلى السجناء المجاهدين القابعين وراء القضبان..
- إلى أبناء هذا الشعب المسلم المعطاء..
- أهدي هذا الجهد المتواضع...



انطلاقاً من واجب الوفاء، ورد الجميل، فإنني أنتهز هذه الفرصة، لأتقدم بوافر الشكر والتقدير وعظيم الامتنان والعرفان لكل من ساهم معي في إخـــــراج هذه الدراسة إلى حيز الوجود، وأخص بالذكر مشرفي الفاضل الدكتور/ ريـاض مصطفى شاهـين، الذي شرفني بقبوله الإشراف على هذه الرسالة، وحباني بواسع علمه وخلاصة تجربته، ولم يبخل علي بوقته وجهده وتوجيهاته، وتزويدي بعشرات الكتب من مكتبته فجزاه الله خير الجزاء وجعل ذلك في ميزان حسناته.

وأتقدم بعظيم الشكر إلى أساتذتي في عمادة الدراسات العليا، قسم التاريخ.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذين أسامة الهباش وعمر دويك

الذين قاما بتدقيق الدراسة لغوياً.

كما وأثمن غالياً جهود كلاً من الدكتور: محمد الهندي، رئيس مركز فلسطين للدرسات والبحوث، وجهود الأخ: إياس أبو حجير الذي قام بترجمة ملخص الدراسة إلى اللغـة الإنجليزيـة. والأخ: ماهر صـافي الذي لم يتوانى لحظة في إحضار المصادر والمراجع الخاصة بهذه الدراسة من جمهورية مصر العربية، وكما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأسـتاذ/ أسـامة حمادة، العامل في مكتبة دار الأرقم، الذي تكرم بتنسيق هذه الرسالة وإخراجها على هذا الشكل الجميل.

وكل التحية والشكر والتقدير إلى العاملين في مكتباتنا الرائدة لما قدموه من مساعدة

وأخص بالذكر مكتبة الجامعة الإسلامية، ومكتبة جامعة الأقصى،

ومكتبة بلدية غزة ومكتبة المسجد العمري.

الباحـــث

ريــاض حشيــش

المحتويـــــات

فهـــــرس الملاحـــــــق

ملخص باللغة العربية

تناولت هذه الدراسة أوضاع الصوفية في بلاد الشام، خلال الصراع الصليبي الإسلامي، من سنة (٤٩١هـ - ٦٩٠هـ) / (١٠٩٨م - ١٢٩١م). وعلاقتهم بالحكام المسلمين، أمثال نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، الذين اهتموا بالحركة الصوفية، وساهموا في تطورها وازدهارها، من خلال تقربهم إليها وإلى سادتها وكبار شيوخها، بجعلهم ضمن حاشيتهم وجيوشهم، للتبرك بهم ومشاورتهم وإشراكهم في القرارات الهامة، كما تعرضت الدراسة للتفاعل الاجتماعي والثقافي للصوفية، حيث كان لهم دور فعال في إصلاح الفرد والمجتمع، من خلال قيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومساهمتهم في تخفيف حدة المعاناة التي حَلَّت بالمجتمع وأفراده، جرّاء الغزو الصليبي لبلاد الشام، ودورهم الفعال في إثراء ونهضة الحياة الأدبية الذي ظهر من خلال ما خلفه السادة الصوفية من كتب وبحوث نافعة، في مجال الأدب والنثر والشعر وعلم النفس لتخصصهم في الأمراض النفسية، ومعرفة عللها وطرق علاجها، كما ساهمت الصوفية، في نشر المذهب السني في بلاد الشام، وإحلاله محل المذهب الشيعي الذي خلفته الدولة الفاطمية.

كما بينت الدراسة، موقف الصوفية الحاسم من العدو الصليبي، الذي اجتاح بلاد الشام، مقترفاً أبشع المجازر ضد المسلمين، إذ قُتِلَ حوالي سبعون ألفا داخل الحرم القدسي – وفق إحدى الروايات - غالبيتهم من الصوفية المجاورين للمسجد الأقصى، والمعتكفين فيه من أجل العبادة، ونية الرباط في سبيل الله.

وكانت هذه الحادثة النكراء، سبباً في شحذ نفوس أتباع الصوفية، للثأر لشيوخهم وسادتهم، الذين قتلهم الصليبيون شرّ قتلة، ولعل هذا كان سبباً رئيساً في اشتراكهم في معظم المعارك العسكرية، التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين، وسبباً في قيام صلاح الدين، بعد معركة حطين، بإحضار الجنود والقادة الاسبتارية والداوية إلى خيمته، وأعطى كل صوفي جالساً في حضرته سيفاً لقطع رقبة صليبي، وكانت هذه الحادثة - علاوةً على الانتصار الإسلامي في معركة حطين الخالدة، - سبباً رئيساً في ازدهار التصوف في بيت المقدس خاصةً، وبلاد الشام بوجه عام.

وتطرقت الدراسة للأسباب الرئيسة، وراء عدم مشاركة الإمام الغزالي في قتال الصليبيين، وعدم احتواء كتاباته على أي فقرة تحث على قتالهم والتصدي لهم.

وقد اهتمت الدراسة بتوضيح الأسباب الرئيسة التي أدت إلى ازدهار التصوف في ذلك العصر، لدرجة أن أطلق عليه العصر الذهبي للصوفية، كما تعرضت بشكل واسع ومفصل للكوارث الطبيعية، التي حلّت بالمجتمع الشامي من زلازل وفيضانات وحرائق ومجاعات، والتي كانت من الأسباب الرئيسة في التجاء الناس إلى الله، وتوجههم إلى دور الصوفية، لعلهم يجدون فيها الأمن والأمان فضلاً عن الغذاء والكساء.

Research Abstract

This study has dealt with Sufism in Great Syrial Levant over the period of crusade-Islamic conflict (491-690 AM/1098-1291AD) as well as Sufism relationship with Muslim rulers, such as Nour El-Kin Zinki, Salahuddin and Dhaher Bebars, who all showed much interest in Sufism and contributed much for its development and prosperity. They sought to gain favour sufi leaders and sheikhs, and joined them into their suites and courts as well as armies for blessings and consultation on crucial decisions.

The study also deals with the social and cultural aspects of Sufism, for it had a crucial role in the reformation of both the individual and society through being committed to the Islamic duty of giving advice and prohibition of misdeeds. Sufism also contributed for the allebiation of suffering that befell upon the society as well as individuals as a result of the Crusade invasion of Great Syria/Levant. Sufi members had anti effective role in enriching and reviring the litrary life in Great Syria Which appeared in the works of sufi scholars in the form of great and useful books and researches in literature, poetry, prose, psychology, as they specialized in psychologyical diseases causes and ttreatment. Sufism also contributed for the spread of sunni doctrine all over Great Syria replaeing Shiism being propagated by the Fatimade stae.

Moreover, the study has highlighted the decisive position of Sufism on the crusades campaign who plagued the Levant with the worst massacres against the Moslems. The Crusades killed around seventy thousands Moslems inside the Al Aqsa Mosque in Jerusalem whom were mostly Sufis living next to the Mosque and holding regular prayers.

This terrible and ugly event was one major reason to charge up the followers of Sufism to avenge the death of their sheikhs and leaders whom were massacred by the crusades. Perhaps , this reason was also an incentive for Sufis participation in most of the battles that were fought between the Moslems and the Crusades. And that what made Saladin , at the end of the battle of Hitten, bring crusaders soldiers and espatarian leaders into his tent and give each Sufi a sword to cut the head of each crusader. This event , in addition to victory of Moslems against the crusaders at Hitten, was a major reason behind the flourishing of Sufi Movement in Palestine in particular and the Levant in general.

The Research has touched upon the main reasons why Al Ghazali did not join in fighting the crusaders and did not incite resisting and fighting in his writings.

The researcher discussed the major reason behind the outs pread of Sufism during that era to the extent that it was known as the Golden Era of Sufism. The study looks, in details into the natural disasters that struck the society in levant, such as earthquakes, floods, fires and hunger which had been major rales in making people find refuge in Allah and Sufi quarters where they find peace and scurity in addition to clothing and food."

المقدمـــة:

يمثل التصوف جزءاً كبيراً في حياة المسلمين وتاريخهم، فالــدارس للحــضارة الإســلامية والتاريخ الإسلامي يجد مساحة واسعة لهذا الجانب في حياة المــسلمين، علـــى اخــتلاف الأزمنـــة والأمكنة.

لهذا استأثر التصوف باهتمام الباحثين قديماً وحديثاً، وكثرت الأبحــاث والدراســات التـــي تناولته من وجهة نظر تاريخية ونقدية، وتباينت الآراء حول حقيقته وأثره، على الفــرد والجماعــة والمجتمع بوجه عام، وأيده بعض الباحثين، وعارضه البعض الآخر، متهمين التصوف بالسلبية التي تنال من عزيمة المسلمين، وتوهن طموحهم.

ومن هنا كانت دراسة التصوف من الموضوعات الشائكة المتــشعبة، إضــافة إلـــى تنـــوع مصادرها وكثرتها، وإلى ما تنطوي عليه من حساسية، جراء الخلط بين التصوف الأصــيل القــائم على الكتاب والسنة، والتصوف الدخيل المتأثر بالفلسفات اليونانية والفارسية والرهبنة المــسيحية، إلا أن عصر الحروب الصليبية شهد ازدهاراً ملحوظاً، وانتشاراً واسعاً للطرق الصوفية في بلاد الشام.

ولعل هذه المرحلة من تاريخ أمتنا الإسلامية تعتبر من أدق المراحل وأخطرها، حيث ذاقت فيها ويلات الحروب والهجمات الصليبية، وهي التي شهدت حركات الجهاد والمقاومة؛ لـــدفع هـــذه الأخطار، وظهر مجاهدون من مختلف الفئات من القمة إلى القاعدة، بدءاً من الملـــوك والـــسلاطين، وانتهاءً بالعامة من الناس.

وكثرت المؤلفات حول سير الحملات الصليبية وطبيعتها، مستعرضة الظـــروف الـــسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية التي عاشها المجتمع الإسلامي والصليبي في بلاد الشام.
ولاقت الأسرتان الزنكية والأيوبية حظهما من أقلام المؤرخين، في حين ضاعت جهود قوى أخـــرى أسهمت وتفاعلت مع أهداف المرحلة، والتي لم تمتد إليها الأقلام وأصبحت في طي النسيان.

مما دفع الباحث إلى استجلاء أخبار بعض هذه الفئات، فوقع اختياره على الحركة الــصوفية ومكانتها وأوضاعها أثناء الحكم الصليبي لبلاد الشام.

وأثناء الدراسة في مصادر هذه المرحلة وجد الباحث معلومات لا بأس بهـــا عـــن الحركـــة الصوفية، إلا أنها موزعة ومبعثرة، تحتاج لجمع وإعادة صياغة في قالب علمي يساهم فـــي رســـم تصور حيادي واضح يصل به إلى نتائج موضوعية، تكون أقرب مـــا يكـــون إلـــى الواقـــع عـــن الموضوع المطروح.

من أجل ذلك تتبع الباحث الروايات التاريخية المتعلقة بالموضوع مـــن مـــصادر الحـــروب الصليبية، وكتب التصوف، والتـــاريخ الإســـلامي، والجغرافيـــا، والحـــديث، والأدب، والأخـــلاق، والتراجم.

أهداف الدراسة:

تتمثل أهداف الدراسة فيما يأتي:

١) محاولتها الكشف عن جانب مهم من جوانب الحركة الفكرية، ومدى مساهمة الصوفية في النهضة الثقافية في عصر الحروب الصليبية.
٢) إعطاء صورة منصفة وموضوعية عن صوفية بلاد الشام، وموقفهم من الصراع الإسلامي الصليبي.
٣) قلة الدراسات التاريخية للفرق الصوفية في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، مما أدى إلى افتقار المكتبة العربية لمثل هذا الموضوع على الرغم من أهميته.
٤) التعرف على العوامل والأسباب التي أدت إلى انتشار وازدهار التصوف في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، التي أطلق عليها المؤرخون العصر الذهبي للتصوف.
٥) رغبة الباحث في معرفة موقف صوفية بلاد الشام من الاجتياح الصليبي لبلادهم.
٦) التعرف على الأثر الاجتماعي للصوفية،وعلاقتهم بالمجتمع الشامي وحكامهم.
٧) التعرف على موقف الإمام الغزالي من الاجتياح الصليبي لبلاد الشام.

مبررات اختيار الموضوع:

١) إن الحركة الصوفية برغم ازدهارها فترة الحروب الصليبية إلا أنها لم تلق عناية كبيرة من قبل الكتاب والباحثين، مع أن الحاجة ملحة لتفسيرها.
٢) يمثل البحث في هذا المجال موضوعاً جديداً يسهم في إثراء المكتبة العربية والقارئ العربي.
٣) يمثل التصوف جزءاً كبيراً في حياة المسلمين وتاريخهم، فالدارس للحضارة الإسلامية يجد مساحة واسعة لهذا الجانب في حياة المسلمين عامة، ومسلمي بلاد الشام خاصة.
٤) كان التصوف ولا يزال أسلوباً ومنهجاً يلتزم به الكثير من الناس، تَمَثَّل ذلك بالطرق الصوفية، وكثرة المنخرطين فيها، وتنوع خلفياتهم الاجتماعية والثقافية والمهنية والتعليمية.
٥) اختلاف وجهات النظر تجاه التصوف، حيث يراه كثير من الناس أنه يمثل الجانب الروحي عند المسلمين، والسبيل لتحقيق سعادتهم، ويراه آخرون أنه طريقاً للهرب من التكاليف الشرعية والواجبات الدينية والاجتماعية والسياسية.

صعوبات الدراسة:

وقد واجه الباحث أثناء إعداد هذه الدراسة بعض الصعوبات والمشاكل كان من أهمها:

١) عدم توفر المعلومات اللازمة بشكل مباشر من المصادر المختلفة، حيث تناثرت هذه المعلومات في ثنايا الكتب والمراجع؛ مما دفع الباحث إلى بذل الكثير من الجهد في تجميع هذه المعلومات.

٢) قلة عدد المصادر والمراجع الأجنبية ذات العلاقة بموضوع الدراسة في مكتبات الجامعات المحلية؛ مما جعل الباحث يرجع إلى بعضها من خلال المراجع المنشورة، وقد أشار الباحث إلى ذلك في التوثيق.

خطة الدراسة:

أما خطة الدراسة فقد اقتضى تقسيمها إلى مقدمة وأربعة فصول وقائمة بأهم المصادر والمراجع.

أما المقدمة، فقد تضمنت أهمية البحث، وسبب اختيار الباحث دراسته، وأعطت صورة عامة عن موضوع الدراسة، اشتمل الفصل الأول على التطور التاريخي للحركة الصوفية من القرن الثالث الهجري حتى بداية الغزو الصليبي، وتضمن المباحث الآتية:

المبحث الأول: التصوف لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: نشأة علم التصوف.

المبحث الثالث: تطور الحركة الصوفية.

وتحدث الباحث في الفصل الثاني، عن أوضاع الصوفية في بلاد الشام خلال الاحتلال الصليبي، حيث تعرض لأوضاع الصوفية بداية الغزو الصليبي، وموقفهم من هذا الغزو، وعلاقتهم بحكام البلاد الإسلامية في ذلك العصر.

أما الفصل الثالث فقد جاء بعنوان: أثر الحركة الصوفية في المجتمع الشامي خلال فترة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، حيث تعرض لدورهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ودورهم كذلك في تطور الحركة الثقافية.

أما الفصل الرابع فقد دار البحث فيه حول عوامل ازدهار الحركة الصوفية في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، أهمها العامل الديني، والعامل السياسي، والعامل الاجتماعي، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي والطبيعي، التي ساعدت على ازدهار الحركة الصوفية في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية.

كما تضمنت الدراسة أيضاً تحليلاً لأهم المصادر والمراجع وخاتمة وتوصيات، مضافاً إليها قائمة المصادر والمراجع والملاحق.

وفي الختام أقدم بين أيديكم ملخص جهدي، وما وفقني الله إليه وأعانني عليه، فإن كان صواباً فمن الله، وإن لم أبلغ المراد، فتلك صفة البشر؛ لأن الكمال لا يكون إلا لله وحده، وإني لأستحضر كلام العماد الأصفهاني، الذي قال فيه: "أنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من عظيم العبر، وهو دليل على إستيلاء النقص على البشر، سبحانه وتعالى رب العالمين.

الدراسات السابقـــة

لم يعثر الباحث على دراسات أكاديمية سابقة تتناول الحركة الصوفية في بلاد الـــشام فتـــرة الحروب الصليبية، إلا بحث صغير بعنوان: (الحركة الصوفية في بـــلاد الـــشام عـــصر الحـــروب الصليبية) للدكتور/ محمد مؤنس عوض ضمن كتاب: " دراسات في تاريخ العلاقات بـــين الـــشرق والغرب".[١] إلا أن هذا البحث لا يغطي فترة موضوع البحث؛ لتركيزه فقط على عوامـــل ازدهـــار التصوف في بلاد الشام، وأبرز الطرق الصوفية في ذلك العصر، مما أفاد الدراسة في هذا الجانب.

---

[1] عوض، محمد مؤنس، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب "العصور الوسطى"، (مـــصر، عـــين للدراســـات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٧١.

دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع

إن دراسة أوضاع الحركة الصوفية في بلاد الشام في مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي في الفترة الممتدة ما بين (٤٩٢هـ-٦٩٠هـ/١٠٩٨م-١٢٩١م)، تفرض على الباحث الرجوع إلى مصادر ومراجع متنوعة؛ لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع، الذي لم تتعرض إليه المصادر بشكل مباشر، ولم تتناوله من جميع جوانبه؛ لذلك تطلب البحث في هذا الموضوع الرجوع إلى أوفر عدد ممكن من المصادر والمراجع القيمة، التي لولاها لما خرجت هذه الدراسة بالصورة التي هي عليها الآن.

ومن هذه المصادر الهامة:

١) الكلاباذي، أبو بكر محمد ابن اسحاق البخاري (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م).
" التعرف لمذهب أهل التصوف"[١]

يعتبر هذا الكتاب من أقدم وأدق الكتب التي تناولت علم التصوف ومصطلحاته ورجاله، حيث وضعه الكلاباذي في أوائل القرن الرابع الهجري، وهو القرن الذي بلغ فيه التصوف ذروته وكماله العلمي، سواء من حيث المنهج، أو من حيث الرجال والأعلام، فجاء هذا الكتاب بصورة صادقة، تعكس ما وصل إليه القوم في طريقتهم.

كما اتبع المؤلف في كتابه أسلوباً بارعاً يتَّسِم بالسَّرد والعرض، ثم يبدي رأيه، وهو العالم العارف، واتبع منهجاً علمياً دقيقاً يحدثنا عنه قائلا: " فدعاني ذلك إلى أن رسمت في كتابي هذا وصف طريقتهم، وبيان نحلتهم، وسيرتهم من القول في التوحيد والصفات، وسائر ما يتصف به مما وقع فيه الشبه عند من لم يعرف مذاهبهم، ولم يخدم مشايخهم، وكشفت بلسان العالم ما أمكن كشفه"[٢].

ويعد هذا المصدر من المصادر الصوفية المهمة، وتأتي أهميته في أن مؤلفه دخل في القوم، وتعرف على أوضاعهم، وأحوالهم عن قرب.

وقد أفاد الباحث من هذا المصدر إفادة كبيرة وخاصة في تعريفات التصوف، حيث أورد في مصنفه تعريفات كثيرة وردت على ألسنه السادة الصوفية.

---

[1] الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق، أحمد شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٩٣م).

[2] الكلاباذي، التعرف، ص٧.

٢) أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي الصوفي (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) [1].

" قوت القلوب ". [2]

وهو أحد أقطاب القرن الرابع الهجري، تميز بغزارة العلم وكثرته، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً في العبادة، له مصنفات في التصوف أهمها "قوت القلوب".

ويعد هذا المصدر من المصادر الأساسية في كتب التصوف، وهو من أهم مصادر الصوفية الذي أجمع العلماء والمؤرخون على فضله عندما قالوا: " لم يصنف مثله في دقائق الطريقة، ولمؤلفه كلام في هذه العلوم لم يسبق إلى مثله ".[3]

والكتاب يحتوي على سبعة ق وأربعين فصلاً، بدأها المؤلف بذكر الآيات التي تتضمن المعاملات والأوراد والأذكار، وهدفه من ذلك إثبات شرعية التصوف، وموافقته للقرآن والسنة.

وقد أفاد الباحث من هذا المصدر في أكثر من موضع، وخاصة الفصل الثالث، حيث اقتطف منه جملاً وأقوالاً للمؤلف تدلل على دور الصوفية في الناحية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

٣) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، بن عبد الملك بن طلحة القشيري الشافعي زين الإسلام (ت ٤٦٥هـ/١٠٧٢م) [4].

" الرسالة القشيرية"[5]

يعد القشيري من السادة الصوفية، وهو مفسر وفقيه ومحدث ومتكلم وواعظ وأديب وناظم للشعر وفارس، حيث مارس الفروسية والعمل بالسلاح، حتى برع فيه، ثم تعلم الكتابة والعربية.

---

[1] انظر: البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، تاريخ بغداد، ١٥ مجلد، (بيروت، دار الفكر)، ج٣، ص٩-٨. ابن الأثير، محمد بن محمد، الكامل في التاريخ، ١١جزء، تحقيق، عبد الله القاضي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج٧، ص٤٨٦.

[2] أبو طالب، محمد بن علي بن عطية الحارثي، قوت القلوب، (القاهرة، مطبعة دار الأنوار المحمدية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

[3] حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٣ أجزاء، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ج٢، ص١٣٦١.

[4] انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ج٣، ص٢١٥. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، ١٧ جزء، تحقيق، محب الدين ابي سعيد العمروي، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج١٣، ص٥٦٤. كحالة، عمر رضى، معجم المؤلفين، ٤ أجزاء، اعتنى به وجمعه، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ج٢، ص٢١٢. العروسي، مصطفى بن محمد بن أحمد بن موسى، نتائج الأفكار القدسية، ٤ أجزاء، (مصر، دار السلام، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ج١، ص٣.

[5] القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، الرسالة القشيرية،(ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

"والرسالة القشيرية" من أهم المصادر التي أفادت الدراسة؛ لاشتمالها على العديد من تعريفات في التصوف، التي وردت على ألسنه السادة الصوفية، كما احتوت هذه الرسالة على العديد من تراجم القوم.

٤) الغزالي حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد الطوسي[١] (ت٥٠٥هـ/١١١١م)[٢]

"كتاب إحياء علوم الدين"[٣]

الإمام الغزالي جامع لأشتات العلوم، وهو حكيم، ومتكلم، وفقيه، وأصولي، وصوفي، مشارك في أنواع العلوم، لازم إمام الحرمين، جدَّ واجتهدَ حتى برع في المذهب الشافعي، وقرأ الفقه والمنطق والحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد عليهم، وإبطال دعاواهم، وصنف في كل علم من هذه العلوم كتباً، أحسن تأليفها وأجاد وضعها.

وبعد وفاة إمام الحرمين، خرج الغزالي إلى "العسكر" [٤] قاصداً وزير السلطان السلجوقي نظام الملك[٥]، وناظر الأئمة والعلماء في مجلسه، وظهر كلامه على الجميع، واعترفوا بفضله وتلقاه الوزير بالتعظيم، وولاه التدريس في مدرسته ببغداد، أقام على التدريس وتعليم العلم، وأصبحت تشد إليه الرحال، إلى أن زهدت نفسه عن الدنيا، وتوجه إلى الشام سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، وجاء إلى بيت المقدس، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في زاويته بالجامع الأموي، ولبس الثياب الخشنة، وقلل طعامه وشرابه، وأخذ في تصنيف موسوعته العلمية المسماة بـ"إحياء علوم الدين"، وهي من كتب الإسلام المعدودة، التي أثرت في حياة المسلمين وتفكيرهم، وظلت تسيطر على عقولهم ونفوسهم زمناً طويلاً، ولا يزال لكتاب الإحياء نفوذ في الأوساط الدينية ليس لغيره، ولم يزل العلماء وأهل النظر يثنون عليه، ويعترفون بمكانته وتأثيره.

---

[1] الطوسي، نسبة إلى طوس وهي مدينة بخراسان، تشتمل على بلدتين يقال لأحدهما الطابران وللأخرى نوقان، وبهما أكثر من ألف قرية، فتحت في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وبها قبر علي بن موسى الرضا، وقبر الخليفة هارون الرشيد، وقد خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقه ما لا يحصى، وحسبك بأبو حامد الغزالي، انظر: ياقوت، شهاب الدين بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ٨ أجزاء، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ج٦، ص٢٧٢.

[2] انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٤٦. ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص٢١٦. كحالة، معجم المؤلفين، ج٣، ص٦٧١.

[3] انظر: الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (بيروت دار المعرفة).

[4] عسكر، بناها الخليفة العباسي المعتصم في بغداد على نهر دجلة، لما ضاقت بغداد عن عساكره الذين كثروا حتى بلغ عدد مماليكه من الأتراك ٧٠ ألف فمدوا أيديهم إلى حرم الناس وسعوا بالفساد، وعندما اشتكت العامة للمعتصم عزم على بناء سامراء وجعل بها منطقة خاصة بالجيش سمَّاها عسكر، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٦، ص٣٢٨.

[5] هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، وزير الدولة السلجوقية، ولد بمدينة طوس، وأنشأ المدارس النظامية بالأمصار، ورغب في العلم، وقد وزر للسلطان ألب أرسلان وابنه ملك شاه السلجوقي قرابة ثلاثين سنة، توفى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: حاجي، كشف الظنون، ج١، ص٦٦٦. كحالة، معجم المؤلفين، ج١، ص٥٦٥.

قال الشيخ أبو محمد الكازروني[1] " لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء " [2] وقد ألف الغزالي هذه الموسوعة بعد أن أكرمه الله بالسعادة الروحية، بعد انضمامه إلى التصوف، ورأى وانكشف له حقيقة ما فيه أهل الدنيا من العكوف على الملذات، وعبادة الشهوات، والتكالب على الحياة، وحقيقة ما فيه أهل العلم ورجال الدين من طلب الجاه والرياسة، ونيل الحظوة عند أهل الحكم والسياسة، ورأى عموم الفساد وانتشاره بين الناس، وسكوت العلماء، فانبثق في نفسه داعية قوية لتأليف هذا الكتاب، وبين فيه لكل طبقة من طبقات الأمة ما هي فيه من أوهام وأحلام [3].

وقد أفاد الباحث من هذا المصدر بقدر وافر من المعلومات، شكلت مادة مهمة في معظم فصول الدراسة، وخاصة "الفصل الثالث"، الذي تعرض فيه الباحث لأثر الصوفية في المجتمع الشامي، ودورهم في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

٥) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م).

"ذيل تاريخ دمشق"[4]

نشأ ابن القلانسي في أسرة دمشقية عريقة، من قبيلة تميم العربية الأصيلة، امتازت بالثقافة الدينية والأدبية.

ولقد نال ابن القلانسي من العلم ما توافر لأبناء البيوتات العريقة من الدراسة، كالأدب والفقه وأصول الدين، فكان كاتباً وأديباً وشاعراً ومؤرخاً.

وكان من أعيان دمشق وأفاضلها المميزين، تولى الكتابة في ديوان الرسائل، حتى صار عميداً له، وتولى رئاسة ديوان دمشق مرتين[5].

"ذيل تاريخ دمشق" هو الكتاب الوحيد الذي ألفه ابن القلانسي، وعنوان الكتاب يدلنا أن المقصود منه أن يكون ذيلا على كتاب هلال الصابئ[6] في التاريخ الذي يقف فيه عند سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٥٦م.

---

[1] هو، محمد بن مسعود بن محمد، فقيه ومحدث، من أهم تصانيفه، مطالع الأنوار في شرق مشارق الأنوار، شفاء الصدور، جامع المناسك، توفى سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: حاجي، كشف الظنون، ج٢، ص٨٣١. كحالة، معجم المؤلفين، ج٣، ص٧١٥.

[2] العيدروسي، عبد القادر بن عبد الله، تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، (بيروت، دار المعرفة)، ص٥.

[3] انظر: الغزالي، الإحياء، ج١، ص٧.

[4] ابن القلانسي، حمزة بن أسد، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق، سهيل زكار (دمشق، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

[5] انظر: ياقوت، شهاب الدين، معجم الأدباء، ٢٠جزء، (بيروت، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ج١٠، ص٢٧٨.

[6] هو هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال أبو الحسين الكاتب والمؤرخ، له كتاب في التاريخ العام، كان صابئا فاسلم وسمع من العلماء في حال كفره لأنه كان يطلب الأدب، توفى سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: البغدادي، تاريخ، ج١٤، ص٧٦. عبد الله، يسرى، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص١٤٠.

تناول ابن القلانسي دراسة فترة زمنية تزيد على قرن من الزمان، وتنتهي بوفاته سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، ويعتبر تاريخ ابن القلانسي من أهم المصادر الأصلية، التي أفاد منها من جاء بعده من المؤرخين المسلمين، أمثال سبط ابن الجوزي، وابن الأثير، وأبي شامة، ويعد تاريخ دمشق من الكتب القيمة، التي تعالج فترة هامة في تاريخ المسلمين، وهي فترة الحروب الصليبية، وتعود أهميته كون مؤلفه معاصراً للأحداث وشاهد عيان عليها، فلا غنىً لأي باحث في تاريخ الحروب الصليبية عن كتاب ابن القلانسي، وقد أفادت الدراسة من هذا المصدر في جميع فصولها، وبشكل خاص في الفصل الرابع، وخاصة عند الحديث عن الأحداث الطبيعية، التي أصابت بلاد الشام خلال فترة الحروب، من زلازل وأوبئة ومجاعات، وهو يتكلم بأسلوب الإنسان المؤمن بقضاء الله وقدره، فعند حديثه عن زلزلة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، يقول: "وافت زلزلة عظيمة عند انبلاج الصباح فروعت وأزعجت، ثم سكنها من حركها بلطفه ورأفته بعباده"(١)، وينظم شعراً يبين فيه حالته الإيمانية وقت وقوع الزلازل فيقول:

روعتنا زلازل حادثات ... بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماه ... أهكلت أهلها بسوء القضاء
وبلاداً كثيرة وحصونا ... وثغوراً موثقات البناء
وإذا ما رنت عيون إليها ... أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضي من الله أمر ... سابق في عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن ... كان له فطنه وحسن ذكاء
وتراه مسبحاً باكي العين ... مروعاً من سخطه وبلاء
جلَّ ربي في ملكه وتعالى ... من مقال الجُهَّال السفهاء (٢).

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص٣٣٧.

(2) المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

٦) ابن **الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التميمي البغدادي الحنبلـــي، المعــروف بابن الجوزي، (ت ٥٩٧هــ/١٢٠٠م)** [١].

"المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"[٢]

يعد ابن الجوزي من أشهر علماء عصره في الفقه والحديث والتاريخ، فهو محدث وحـــافظ ومفسر وفقيه وواعظ وأديب ومؤرخ[٣]، وكان رأساً في التذكير، وبحراً في التفسير، وعلامـــة فـــي السير والتاريخ، صنف المصنفات الكثيرة[٤]، التي شملت الفقه والحديث والتاريخ، وكان من أشـــهر مؤلفاته كتاب " المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، الذي نهج فيه مـــنهج الطبـــري[٥] فـــي الكتابـــة التاريخية، حيث إن كتابه عبارة عن سجل لما جرى في كل سنة من الأحداث، وما حدث فيها مـــن وفيات الأكابر والأعيان، ومن الملاحظ في هذا الكتاب أنه أسهب فيه اسهاباً كبيـــراً فـــي ترجمـــة الأكابر من الفقهاء والمحدثين والصوفية [٦].

---

(1) للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، شمس الدين محمد، بن احمد بن عثمان، سير اعلام النبلاء، ١٩ جزء، تحقيق، محـــب الدين العمروي، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هــ/١٩٩٧م)، ج١٥، ص٤٨٣. ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبـــد الرحمن بن شهاب الدين، الذيل على طبقات الحنابلة، خرج أحاديثه، أسامة بن حسن، (بيروت، دار الكتب العلميـــة، ط١، ١٤١٧هــ/١٩٩٧م)، ج١، ص٣٦٣. البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظون، مجلدان، (بيوت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هــ/١٩٩٢م)، ج١، ص٥٢٠.

(2) ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ١٣ جزء، تحقيق، سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هــ/١٩٩٥م).

(3) انظر: أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، تراجم رجال القـــرننين الـــسادس والـــسابع، المعروف، "بالذيل على الروضـــتين"، علـــق عليـــه، إبـــراهيم شـــمس الـــدين، (بيـــروت، دار الكتـــب العلميـــة، ط١، ١٤٢٢هــ/٢٠٠٢م)، ص٣٣. كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١٠٠.

(4) الذهبي، سير أعلام، ج١٥، ص٤٨٤.

(5) هو، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، مفسر ومحدث ومؤرخ وفقيه، أصولي مجتهد، ولد سنة ٢٢٤هـــــ/٨٣٨م، طـــاف الأقاليم ثم أستوطن بغداد، من أهم تصانيفة، " جامع البيان في تفسير القـــرآن" "تـــاريخ الأمـــم والملـــوك"، تـــوفى ســـنة ٣١٠هــ/٩٢٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن النديم، أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب، الفهرست، تحقيق، يوسف علـــي طويل، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هــ/١٩٩٦م)، ص٣٨٥. الذهبي، ميزان الاعتدال في نقـــد الرجـــال، ٧ أجزاء، تحقيق، علي محمد معوض، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هــ/١٩٩٥م)، ج٦، ص٩٠. ابـــن حجـــر، لسان الميزان، ٧ أجزاء، تحقيق، عادل عبد الموجود، (بيروت، دار الكتـــب العلميـــة، ط١، ١٤١٦هـــــ/١٩٩٦م)، ج٥، ص١٠٨.

(6) انظر: ابن رجب، الذيل،ج٣، ص ٣٣٧. عبد الله، معجم المؤرخين، ص٦٦.

ولقد استفادت الدراسة من هذا المصدر في مواضع كثيرة، وخاصة في الفصل الرابع الـذي تعرض فيه الكاتب لذكر الصراعات بين المذاهب الفقهية، التي كانت منتشرة في بلاد الشام، حيث ضرب لنا مثلاً في الفتنة التي تعرض لها الشيخ ابن عقيل [١] شيخ الحنابلة، وثورة أتباع المذهب الحنبلي عليه؛ بسبب جلوسه مع علماء من غير مذهبة [٢].

٧) العماد الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني [٣] (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) "الفتح القسي في الفتح القدسي"[٤]

درس العماد الفقه الإسلامي وعلوم الحديث على أساتذة المدرسة النظامية ببغداد، وبرع في نظم الشعر، وصناعة الكتابة، ثم ذهب إلى دمشق، فدرَّس بالمدرسة النوريّة الدمشقية، فذاع صيته، ودخل في خدمة نور الدين، ثم ابنة الصالح، ولم يلبث أن دخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي، بإشارة من وزيره وكاتبه القاضي الفاضل، سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م، ولم ينقطع عن مصاحبة صلاح الدين، حتى إذا مات سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، اختلفت أحوال العماد، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف، وخص العماد الكاتب، صلاح الدين بكتابين من مجموع مؤلفاته التي يبلغ عددها أحد عشر كتاباً، وهي كتاب "البرق الشامي"، وكتاب "الفتح القسي"، الذي استهله بوصف الاستعدادات لمعركة حطين، وانتهى فيه إلى وفاة الناصر صلاح الدين وتقسيم دولته بين أبنائه.

ويمثل كتاب "الفتح القسى"، الأسلوب السائد وقتذاك في كتابة الرسائل، بما تضمنه من نماذج البيان والبلاغة من الوقائع والأحداث، وبما ضمنه من عبارات حافلة بالسجع في رواية الأحداث.[١]

---

(1) هو علي بن محمد المشهور بابن عقيل شيخ الحنابلة وصاحب التصانيف كان إماماً في كثير من العلوم توفي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١٦٢. ابن رجب، الذيل، ج١، ص١١٨. ابن حجر، لسان، ج٤، ص٢٨٣.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٤٧٠٠.

(3) هو العماد الكاتب الوزير العلامة محمد الأصفهاني، أتقن الفقه، والعربية، مارس الكتابة والترسل والنظم، وفاق الأقران، قدم دمشق بعد سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م، وخدم في ديوان الإنشاء فبهر الدولة ببديع نثره ونظمه، وترقى إلى أعلى المراتب، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء، تحقيق، محمد السعيد زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج٣، ص١٢٠. اليافعي، أبو محمد عبد الله بن الخطيب، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ٤ أجزاء، وضع حواشيه، خليل منصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج٣، ص٣٧٢. كحالة، معجم المؤلفين، ج٣، ص٥٨. عاصي، حسين، العماد الأصفهاني حياته وعصره، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص٥.

(4) الأصفهاني، العماد الكاتب محمد بن محمد، الفتح القسي في الفتح القدسي، علق عليه، إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

وتأتي أهمية هذا المصدر كون مؤلفه معاصراً وشاهد عيان لأحداث تلك الفترة، وكان ملازماً للسلطان الناصر صلاح الدين، وقد أفاد الباحث منه معلومات هامة في الفصل الثاني، وبخاصة فيما يخص علاقة صلاح الدين بالصوفية، حيث إنه كان يصطحبهم معه في كل معاركه التي على رأسها معركة حطين وفتح بيت المقدس، إذ أمر صلاح الدين قادة جنده بإحضار بعض الأسرى الحاقدين على الإسلام والمسلمين، والناكثين للعهود أمامه، وكلف جماعة من الصوفية بقطع رؤوسهم[٢].

٨) ابن الأثير عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٤م) [٣].

"الكامل في التاريخ"[٤]

برع ابن الأثير في علوم الأدب، وكان أبوه من وجهاء عصره، تولى وظائف مهمة للزنكيين، وحرص على رعاية أولاده وتنشئتهم تنشئة علمية.

عاش ابن الأثير في مدينة الموصل العراقية، في الفترة (٥٥٥هـ - ٦٣٠هـ/١١٦٠م -١٢٣٤م).

وكان حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم؛ ولذا كان أكثر ما أشتهر به دراسة التاريخ.

وقد ألف ابن الأثير العديد من الكتب التاريخية أهمها "الكامل في التاريخ"، وقد امتاز في كتابه بحسن الإطلاع والرؤية الدقيقة الفاحصة للأحداث التاريخية التي عاصرها.

ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية، التي تناولت الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة، وحتى أحداث ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، وهو مرتب على نظام الحوليات.

وكتاب الكامل يعد من أدق المصادر التاريخية عموماً؛ لاعتماده على المعاينة الشخصية، حيث اعتمد في كثير من الأخبار على مشاهدته الشخصية، بل إنه شارك في بعض أحداثها السياسية والعسكرية، فقد كان بالموصل حين حاصرها صلاح الدين ٥٨١هـ/١١٨٥م[٥]، بل شارك في بعض أحداث الحروب الصليبية كمجاهد مسلم في جند الموصل تحت راية صلاح الدين، وقد أفادت

---

[1] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء، تحقيق، محمد السعيد زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ج٣، ص١٢٠. عبد الله، معجم المؤرخين، ص١٣٠. المدني، رشاد عمر، الحياة العلمية في فلسطين في مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، (غـزة، الجامعة الإسلامية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٩.

[2] الأصفهاني، الفتح القسي، ص٦٢.

[3] انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٠٧. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٥٦.

[4] ابن الأثير، محمد بن محمد، الكامل في التاريخ، ١١ جزء، تحقيق، عبد الله القاضي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

[5] ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٣١.

الدراسة من هذا المصدر من خلال ما احتواه الجزءان التاسع والعاشر من معلومات، شاهدها ولاحظها وسجلهاعن الظواهر الاجتماعية والكوارث الطبيعية، يقول مثلاً عن حوادث سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م،" في هذه السنة من شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها، وأظلمت الأرض، حتى بقي الوقت كأنه ليل مظلم، وظهرت الكواكب، وكان ذلك صحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه، وكنت حينئذ صبياً بظاهر جزيرة ابن عمر[١]، مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب، فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً، وتمسكت به؛ فقوى قلبي، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لي: الآن ترى هذا جميعه أنصرف، فانصرف سريعاً [٢]،" وفي سنة ٦٠٤هـ/١٢١٥م، ليلة الأربعاء من رجب زلزلت الأرض وقت السحر، وكنت حينئذ بالموصل، ولم تكن بها شديدة، وجاءت الأخبار من كثير من البلاد، بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية "[٣].

أما الكتاب الثاني الذي ألفه ابن الأثير وسماه بـ"التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" بالموصل، فقد أفاد الباحث في دراسته وخاصة في الفصل الثاني، حيث تطرق فيه لأوضاع الصوفية في عهد نور الدين زنكي، ونوعية العلاقة بين نور الدين والصوفية، ويذكر ابن الأثير وقار نور الدين وهيبته في مجلسه، وأنه لم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس... "وكان مع هذه العظمة - إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي - يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلي جانبه، ويقبل عليه بحديثه، كأنه أقرب الناس إليه، وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا"[٤].

---

[1] جزيرة ابن عمر، بلدة تقع شمال الموصل في العراق، أرضها خصبة، كثيرة الخيرات، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٥٧.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج١٠،ص ٧٨.

[3] المصدر نفسه، ص٣٤٤.

[4] ابن الأثير، الباهر، ص١٧٢-١٧٣.

٩) ابن شداد: بهاء الدين أبــو المحاســن يوســف بــن رافــع بــن شــداد الفقيــه الــشافعي (ت،٦٣٢هــ/١٢٣٤م) [١]

"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"[٢]

هو الكتاب المعروف باسم " سيرة صلاح الدين".

ولد ابن شداد بالموصل، ونشأ في كنف أخواله بني شداد؛ لوفاة والده وهو صــغير، فنــسب إليهم، وفي الموصل حفظ القرآن صغيراً، ثم رحل إلى البصرة وغيرها، ودرس الحديث وشــروحه والتفسير والفقه والقرآن والآداب على شيوخ المدرسة النظامية.

وقد اشتهر ابن شداد برجاحة العقل، وسداد الحكم؛ مما حدا بأتابك الموصــل أن يعهــد إليــه بالسفارة في أمور سياسية بالغة الخطورة والأهمية، عندما وقع نزاع بينه وبين صلاح الدين.

وبذهاب ابن شداد إلى صلاح الدين للتفاوض والإصلاح، أتاحت له هــذه الــسفارة معرفــة صلاح الدين عن قرب، فدخل في خدمته سنة ٥٨٢هــ/١١٨٨م، ومن وقتئذ لم يفارق صلاح الــدين بعد ذلك ساعة من ليل أو نهار.

وعلى الرغم من مشاركة ابن شداد فيما وقع من أحداث، وملازمته الدائمة لــصلاح الــدين وأولاده، واتصاله بالعلماء والفقهاء، وقيامه بالسفارة بين الأمراء، وتوليه مناصب رئيسة في الدولة، إلا أنه لم يؤلف في التاريخ إلا كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، الذي يُعد ترجمة لحياة صلاح الدين، التزم فيها الأسلوب السهل، ولم يلجأ إلى التعقيد والاسترســال، مثلمــا فعــل العمــاد الأصفهاني، وهذا الكتاب لا يعد سيره كاملة لصلاح الدين، وإنما هي لقطات تحدث فيها عن صلاح الدين، الشاب والكهل والسلطان والفارس والمجاهد، ولم يتحدث عن صلاح الدين الطفل أو الفتــى، ولم يتطرق للحديث عن الأسرة، وظروف النشأة والبيئة كثيراً، ولقد أفاد هــذا المــصدر الدراســة، وخاصة في الفصل الثاني، الذي تحدث عن علاقة صلاح الدين بالصوفية، و إكرامه لهم[٣].

---

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٧، ص٨٤. ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ج٥، ص١٥٨.

(2) ابن شداد، بهاء الدين يوســف بــن رافــع، النــوادر الــسلطانية والمحاســن اليوســفية، (القــاهرة، دار المنــار، ط١، ١٤٢١هــ/٢٠٠٠م).

(3) الذهبي، العبر، ج٣، ص٢١٥. عبد الله، معجم المؤرخين، ص١٠٣. المدني، الحياة العلمية في فلسطين، ص٩.

١٠) أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشافعي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) عرف بأبي شامة، لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر[١].

"كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"[٢]

كان مولد أبي شامة في دمشق سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، ونشأ بها وتربى فيها، ولم يبرحها إلا للحج، وزيارة بيت المقدس، والاستماع إلى علماء مصر في القاهرة والإسكندرية ودمياط، وبعد أن فرغ من دراسته الدينية التي شملت القرآن والفقه والحديث واللغة العربية توجه إلى دراسة التاريخ.

عاش أبو شامة في الفترة التي تلت وفاة الناصر صلاح الدين والتي سادت فيها الاضطرابات والفتن التي كادت تقضي على وحدة العالم الإسلامي.

يشتمل كتاب الروضتين على ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين، تناول فيه المرحلة التي تستغرق حكم عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وتحدث فيه المؤلف عن وصف الأسلحة، والعدالة بين الناس، والمدارس، والخانقاهات، والزوايا.

صنفة على نظام الحوليات في الفترة الممتدة من سنة ٥٤٢هـ/٥٨٩م، أي مدة حكم نور الدين، ويعتبر الكتاب سجلاً حافلاً لتاريخ الدولتين من الجانب الحكومي حرباً وسياسة وإدارة فضلاً عن الجانب الشعبي الذي يتمثل في تأييد العلماء والسادة الصوفية ورجال الأدب والشعر. [٣]

ومما يزيد من أهميته اعتماد أبي شامه على مصادر عدة معاصرة للفترة الأيوبية أهمها "تاريخ دمشق" لابن عساكر، والفتح القسي في الفتح القدسي " للعماد الأصفهاني، كما حفظ فيه أبي شامة كثيرا من روايات "البرق الشامي" للعماد الأصفهاني، المفقود أغلب أجزائه، ورواية المؤرخ ابن أبي طيء، والكتب والمناشير، التي كان يصدرها القاضي الفاضل بتوقيع صلاح الدين، وكذلك "النوادر السلطانية" لابن شداد، ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية المهمة التي أفادت الباحث في دراسته وخاصة علاقة نور الدين بالصوفية وعلى رأسهم الشيخ الصوفي الكبير عمر

---

[1] انظر: اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٤.السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ أجزاء، تحقيق، محمود محمد الطناحي – عبد القادر الحلو، ج٨، ص١٦٥-١٦٧. ابن عماد، شذرات، ج٥، ص٣٨.

[2] أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٤ أجزاء، علق عليه: إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

[3] انظر: ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ١٤ جزء، (بيروت، دار الفكر)، ج١٣، ص٢٥٠. كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص٨٠. عبد الله، معجم المؤرخين، ص٢٣.

الملا [١]، الذي أسند إليه نور الدين بناء جامِعِه الكبير بالموصل [٢] كما ذكر أبو شامة أعمال نـــور الدين الخيرية وبنائه للربط والخانقاهات في جميع بلاد الشام وإيقافـــه الأوقـــاف الكثيـــرة عليهـــا، وتواضعه للصوفية وقيامه لأحدهم لحظة وقوع عينه عليه ويعتنقه ويجلسه معه على ســـجادته ممـــا أدى إلى حسد الأمراء والوزراء وأعيان الدولة لهم. [٣]

كما أفادت الدراسة من كتاب الروضتين في الفصل الرابع حيث أسهب أبو شامة فـــي ذكـــر العوامل الاجتماعية والطبيعية من زلازل ومجاعات وأمراض، وذكره لأعمال الخير التـــي كانـــت تقوم بها زوجات السلاطين والأمراء.

كما أفادت الدراسة من مصدر آخر لأبي شامة كتاب "الذيل على الروضتين الذي تحدث فيه عن الفترة من ٥٩٠هـــ حتى وفاته سنة ٦٦٥هـــ، وأكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الـــصوفية الذين عاشوا في بلاد الشام خلال الاحتلال الصليبي لها.

١١) ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله (ت ٦٩٧هـــ/١٢٩٨م). " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"[٤]

ولد ابن واصل بحماه سنة ٦٠٤هـــ/١٢٠٨م، وتلقى فيها علومه الأولى وكان أول مـــدرس فيها حيث برع في علوم كثيرة، مثل علم المنطق والهندسة، وأصول الدين، والفقه الإسلامي، وعلـــم الهيئة والتاريخ.

رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والقاهرة وبغداد ومكة والمدينة وأقام فـــي مصر مدة طويلة، وكلفه السلطان الظاهر بيبرس المملوكي بالسفارة على صقلية، فمكث بها زمناً غير قصير، ومن نتائج هذه السفارة العلمية تأليفه لكتاب "الموجز في المنطق".

---

(1) هو الشيخ عمر بن محمد ابن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، يعرف بعمر الملا، له كتاب، "وسيلة المتعبدين فـــي سيرة سيد المرسلين"، كان السلطان نور الدين يثق به ثقة كبيرة، وسُمِّيَ الملا لأنه كان يملا تنانير الآجر ويأخـــذ الأجـــرة فيتقوت بها، وكان لا يملك سوى قميصة وعمامته التي على رأسه، ولا يملك شيء من الدنيا، وكان عالماً بفنون العلـــوم، وكان جميع الملوك والعلماء يزورونه ويتبركون به، توفى سنة ٥٧٠هـــ/١١٧٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن قاضـــي شهبه، بدر الدين، الكواكب الدرية في السيرة النورية، - تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي- تحقيـــق، محمـــود زايد، (بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٣٩١هـــ/١٩٧١م)، ص٢٦.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٠٥.

(3) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٦.

(4) ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥ أجزاء، تحقيق، جمال الدين الشيال، (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٣٧٢هـــ/١٩٥٣م).

ولما عاد ابن واصل إلى مصر عُيِّنَ قَاضِياً للقضاة، والذي يزيد من أهمية هـذا المـصدر معاصرة ابن واصل للحملات الصليبية وسقوط الدولة الأيوبية[١].

واعتمد ابن واصل على من سبقه من المؤرخين المعاصرين فنقـل العديـد مـن روايـات القاضي الفاضل، وابن شداد وابن الأثير.

ولقد استفاد الباحث من هذا المصدر إفادة كبيرة وخاصة في علاقة نور الـدين بالـصوفية وتقربه إليهم، فقد أورد ابن واصل في هذا المصدر عدة حوادث تدلل على محبة نور الدين للصوفية أهمها استعانة نور الدين بالصوفية لاستنهاض همم الناس واستثارتهم ضد الحكام المتخاذلين[٢].

١٢) المقريزي، تقي الدين أحمـد بـن علـي بـن عبـد القـادر بـن محمـد بـن إبـراهيم (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م).

"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"[٣]

"اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" [٤]

"السلوك لمعرفة دول الملوك"[٥]

ولد سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م بالقاهرة، وهو بعلبكي الأصل، مصري المولد والنـشأة، عـرف باسم المقريزي نسبة إلى حارة المقارزة في مدينة بعلبك عكف على دراسة القرآن وعلـوم الـدين والتاريخ وغيرهما.

التحق المقريزي بالخدمة الحكومية، فعين كاتباً بديوان الإنشاء بالقلعة ثم قاضياً، ثـم إمامـاً ومدرساً للحديث، تولى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري، ثم انتقل سـنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م ناظراً للأوقاف والمارستان ومدرساً بدمشق، إلا إنه ترك دمشق وأعمالها بعد إقامة بهـا اسـتمرت

---

(1) انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، مقدمة المحقق، ص ٤. عبد الله، معجم المؤرخين، ص١٨٥.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١،ص١٤٤.

(3) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـزءان، (القـاهرة، مكتبـة الثقافـة الدينيـة، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا، جزءان، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

(5) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨ أجزاء، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٨هـ/١٧٩٧م).

عشر سنوات فعاد إلى القاهرة ليعكف على الدراسة والاشتغال بالعلم ومات فيها سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م. [1]

يعد المقريزي مثالاً طيباً للمصنفين في العصور الوسطى حيث كان واسع القراءة والمعرفة والإطلاع، كثير الدأب والمثابرة فألمَّ بالخطط والتاريخ والترجمة والسكة والأوزان والمقاييس والمعادن والطب والموسيقى والحشرات، فضلاً عن علم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث ولكن جُلَّ اهتمامه كان موجهاً نحو التاريخ، لأنه كان محباً له معنياً بتحقيقه، فجمع منه الشيء الكثير وصنف فيه كتباً، وكان لكثرة ولعه به يحفظ الكثير منه[2] يقول ابن تغري بردي[3] وهو أحد تلاميذ المقريزي النجباء "كان إماماً متقناً، كتب الكثير بخطه، وانتقى أشياء وحصل الفوائد، واشتهر ذكره في حياته وبعد موته في التاريخ وغيره، حتى صار يضرب به المثل، وكانت له محاسن شتى ومحاضرة جيدة، إلى الغاية لاسيما في ذكر السلف من العلماء والملوك وغير ذلك[4]، وللمقريزي الكثير من المؤلفات تجاوزت المأتي مجلد. [5]

إلا أن الدراسة أفادت من ثلاثة كتب منها:

١) "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا"، حيث تناول فيه المقريزي بالشرح والتفصيل تاريخ الدولة الفاطمية في بلاد الشام وصراعها مع السلاجقة، وأثر ذلك على بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي.

---

[1] انظر: ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧ أجزاء، تحقيق، محمد أمين، (مصر، الهيئة العامة للكتاب، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ج١، ص٤١٧. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، ضبطه وصححه: عبد اللطيف عبد الرحمن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج٢، ص٢٠. الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، جزءان، وضع حواشيه: خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٨٩٨م)، ج١، ص٥٦. عاصي، حسين، المقريزي مؤرخ الدولة الإسلامية في مصر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٥.

[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢٢. عبد الله، معجم المؤرخين، ص١٧١.

[3] هو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأمير الكبير سيف الدين تغري بردي الحنفي الإمام العلامة، كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق، ومن أمراء جيشه، من أشهر مؤرخي المماليك، من اهم مؤلفاته، النجوم الزاهرة، وكتاب المنهل الصافي، توفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٩. ابن العماد، شذرات، ج٧، ص٣١٧. كحالة، معجم المؤلفين. شمس الدين، محمد حسين، ابن تغري بردي مؤرخ مصر في العصر المملوكي، (بيروت، دار الكتل العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/١٩٩٢م)، ص٢٥.

[4] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص٤١٧.

[5] السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢١.

٢) "السلوك لمعرفة دول الملوك" وهو تاريخ لدولة بني أيوب والمماليك، افتتحه المقريزي بمقدمة طويلة في ذكر العصور السابقة، حتى زوال الدولة الفاطمية وتأسيس الدولة الأيوبية الذي استهله بشرح أصل صلاح الدين ومولده وقدومه إلى مصر.

إلا أنه بدأ يكتب على نظام الحوليات من سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م حيث يورد أحداث كل سنة مرتبة ترتيباً تاريخياً تقريباً ثم يختمها بالوفيات، ولقد أفاد هذا الكتاب الدراسة في ترجمة الكثير من الشخصيات المعاصرة.

٣) إلا أن أهم مصدر أفاد الدراسة كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار".

وهو من أهم الكتب التي عنيت بالخطط حتى عرف بهذه التسمية، تناول فيه المؤلف المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة وصفاً دقيقاً، وقد أفاد الباحث في دراسته خاصة المرتبطة بجزئية الزوايا والربط والخوانق، حيث أورد لها تعريفات مفصلة وواضحة[1] كما ذكر علاقة صلاح الدين ورعايته للصوفية وتعيين شيخ لهم، وتسهيل تنقلاتهم وتحديد طعاماً لهم في كل يوم من اللحم والخبز. [٢]

١٣) النعيمي، محي الدين أبو المفاخر عبد القادر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن نعيم، (ت٩٢٧هـ/١٤٩١م).

"الدارس في تاريخ المدارس"[٣]

اشتهر النعيمي بالتاريخ والحديث والتصوف، وألف كتباً كثيرة أهمها: كتاب "الدارس في تاريخ المدارس"، و"كتاب تذكرة الأخوان في حوادث الزمان"، و"تراجم القضاة السابقين بدمشق" وغيرها.

يعتبر كتاب "الدارس في تاريخ المدارس" من أهم كتب تاريخ دمشق بعد تاريخ ابن عساكر، سواء عن علمائها ورجالاتها، أو مشايخها الصوفية، وأماكنها الأثرية والعلمية، وتاريخها السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

ولقد جمع النعيمي في كتابه هذا، تاريخ دور القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمدارس، والتكايا، والزوايا، والجوامع المعروفة في دمشق حتى القرن العاشر للهجرة، وذكر فيه تراجم أصحابها وسير من درس فيها.

---

(1) انظر: عن ذلك بالتفصيل، الفصل الأول من الدراسة.

(2) انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤١٥.

(3) النعيمي، عبد القادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، جزءان، أعد فهارسه، إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

من مميزات هذا الكتاب ومحاسنه أنه جمع الأخبار الموزعة في كتب التاريخ والمـؤرخين كابن الأثير وأبي شامة، وابن خلكان، وابن شداد، والذهبي، وابن كثير وابن قاضي شهبة.(١)

١٤) العليمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العمري مجير الدين الحنبلـي المقدسـي (ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م). (٢)

"الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" (٣)

مؤرخ، درس بالقاهرة وتوفى بالقدس، يقال له العمري، نسبة إلى عمر بن الخطـاب، ولـد العليمي بالقدس سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٦م، ونشأ في بيت عرف عنه حب العلم والعلماء فقد كان أبـوه أحد العلماء الأفذاذ في زمنه، حافظاً للقرآن الكريم، تدرج في تحصيل العلم وارتحل في سبيله إلـى الشام ومصر وبيت المقدس، فأخذ الفقه الحنبلي عن علمائه والحديث عن أئمته، وتمكن مـن علـوم اللغة مما أهله ليكون فقيهاً ومحدثاً وخطيباً وقاضياً للقضاه الحنابلة(٤)، تولى قـضاء الرملـة سـنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م ثم توسع عمله وأصبح قاضياً في القدس والخليل والرملة ونابلس، واسـتمر فـي القضاء إلى عهد الدولة العثمانية.

والعليمي مؤلف وكاتب، ومن أهم مؤلفاته، "المنهج الأحمد في تراجم الإمام أحمد" "إتحـاف الزائر وأطواف المقيم والمسافر"، "فتح الرحمن في تفسير القرآن"، "والأنس الجليل بتـاريخ القـدس والخليل" وهو من أهم المصادر التي أفادت منها الدراسة حيث انفرد بذكر تصدي الإمـام الغزالـي حينما كان في بيت المقدس ضد فتوى قاضيها التي أتاحت للوالي أن يأخذ أقطاع آل تميم الداري(٥). كما أفادت الدراسة في تراجم الكثير من السادة الصوفية، حيث تعرض للأماكن المقدسة من مساجد وزوايا وخانقاهات مع ذكر مشايخها.

(1) انظر: ابن الغزي، محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ٣ مجلدات، تحقيق، جبرائيل سليمان جبـور، (بيروت، دار الفكر، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م)، ج١، ص٢٥٠. ابن العماد، شذرات، ج٨، ١٥٣. مطيع، الجامع الأموي بدمشق، ص٩٠.

(2) انظر: حاجي، كشف الظنون، ج١، ص١٧٧. البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٥٤٤. سركيس، يوسف إليـان، معجـم المطبوعات العربية والمعربة، جزءان، (بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية)، ج١، ص٣٥٨.

(3) العليمي، عبد الرحمن بن محمد، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، تحقيق، عدنان أبو تبانة، (الأردن، مكتبـة دنديس، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٢. كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١١٢.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٤٥.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد أفاد الباحث في دراسته من مصادر أخرى أهمها:

١- الطوسي، أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (ت٣٧٨هـ/٩٨٨م)

كتاب " اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي".[١]

٢- ابن العديم، كمال الدين بن القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م).

"بغية الطلب في تاريخ حلب".[٢]

"زبدة الحلب في تاريخ حلب".[٣]

٣- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

"نهاية الأرب في فنون الأدب".[٤]

ثانياً كتب التراجم والطبقات:

اعتمدت الدراسة على عدد من كتب التراجم والطبقات كان أهمها كتاب ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)

"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان".[٥]

ولد ابن خلكان في أربيل سنة ٦٠٨هـ/١٢٣٨م. وعين في وظيفة نائب قاضي القضاة وهو لم يبلغ بعد التاسعة والعشرين من العمر، ثم عين قاضياً للقضاة في دمشق عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، كان ابن خلكان إماماً ذكياً وبارعاً، وإخبارياً عالماً بالشعر والتاريخ وأيام الناس. [٦]

بدأ ابن خلكان في تأليف كتاب "وفيات الأعيان" بالقاهرة عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وكان عمره آنذاك ٤٦ عاماً، ويعد كتاب "وفيات الأعيان" من أهم المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي، وتكمن أهميته في كون مصنفه اعتمد على مصادر عديدة منها "تاريخ دمشق" لابن عساكر، والنوادر

---

[1] الطوسي، عبد الله بن علي السراج، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ضبطه، كامل مصطفى الهنداوي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

[2] ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، ١٢ جزء، تحقيق، سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

[3] ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق، خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

[4] النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٨ جزء، (مصر، وزارة الثقافة).

[5] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)

[6] انظر: أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي الأيوبي، المختصر في تاريخ البشر، علق عليه، محمود ديوب، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م). المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٥٠. الذهبي، سير أعلام، ج١٧، ص٢٨١.الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، ٢٨ جزء، تحقيق، أحمد الأرناؤوط، (بيروت، دار إحياء التراث، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج٧، ص٢١٠.

السلطانية" لابن شداد وغيرها وقد ترجم فيه للعديد من المشايخ والسادة الصوفية الذين عاصروا الحروب الصليبية في بلاد الشام. [1]

ولقد أفاد هذا الكتاب الدراسة في جميع الفصول التي ورد فيها ذكر السادة الصوفية.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز بن عبد الله التركماني الأصل ثم الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

"سير أعلام النبلاء"[2]

"العبر في خبر من غبر"[3]

ولد الذهبي سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م بدمشق وبرع في علوم الحديث والقرآن والتاريخ، صنف مصنفات عدة بلغت حوالي مائة مصنف وفي عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م كف بصره فانقطع عن التأليف، وأكب على التدريس بمدارس دمشق حتى وفاته. [4]

وقد ترجم الذهبي في هذين المصدرين "سير أعلام النبلاء"، "والعبر في خبر من غبر" لجميع طبقات الشعب من خلفاء وشعراء ومفسرين وأدباء ونحاه وصوفية ومسلمين وغير مسلمين، ويقدم ترجمه وافية للمترجم له، وهو جامع لصنوف العبر والمواعظ، ومن خصائص هذه المصادر إنها احتضنت سبعة قرون ونيفاً، من تاريخ رجال الإسلام، وذلك منذ فجر الدعوة الإسلامية وحتى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. [5]

ومن كتب التراجم الأخرى التي أفادت الدراسة:

كتاب "الأنساب" للسمعاني (ت،٥٦٢هـ/١١٦٦م). [6] "الوافي بالوفيات"[7] لابن أيبك الصفدي (ت،٧٦٤هـ/١٣٦٢م) "مرآة الجنان"[8]، لليافعي (ت،٧٦٨هـ/١٣٦٦م) "طبقات الشافعية

---

(1) انظر: ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٣٧١. عبد الله، معجم المؤرخين، ص٧٧. المدني، الحياة العلمية في فلسطين، ص١٣.

(2) سبق تعريفه.

(3) سبق تعريفه.

(4) انظر: الذهبي، سير أعلام، مقدمة المحقق، ج١، ص١٣-١٥. ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، تحقيق، عبد الوارث محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج٣، ص٢٠٤. ابن العماد، شذرات، ج٦، ص١٠٣.

(5) الذهبي، سير أعلام، مقدمة المحقق، ج١، ص١٣-١٤.

(6) السمعاني، عبد الكريم بن محمد، الأنساب، ٦ مجلدات، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

(7) سبق تعريفه.

(8) سبق تعريفه.

الكبـــرى"[١] لتـــاج الـــدين الـــسبكي (ت،٧٧١هــــ/١٣٦٩) "طبقـــات الـــشافعية" للأســـنوي[٢] (ت،٧٧٢هــ/١٣٧٠م) "طبقات الحنابلة"[٣] لابن رجـــب (ت٧٩٥هــــ/١٣٩٢م). "كتـــاب النجـــوم الزاهرة"[٤] "وكتاب المنهل الصافي"[٥] لابن تغري بردي "٨٤٧هــ/١٤٤٣م) "الدرر الكامنة"[٦] لابن حجر العسقلاني (ت،٨٥٢هــ/١٤٤٨م). "الطبقات الكبرى" للشعراني[٧] (ت،٩٧٣هــ/١٥٦٥م).

أما كتب الجغرافيا والرحلات التي أفادت الدراسة:

قدمت كتب الجغرافيا معلومات قيمة عن الكثير من المدن والقـــرى الـــوارد ذكرهـــا فـــي الدراسة، كما حددت هذه المعلومات المواقع الجغرافية وكذلك المدن والقرى.

أما كتب الرحلات، فقد كان لأصحابها دور كبير في جمع المعلومات المتنوعة مـــن خـــلال مشاهدتهم وتجاربهم وعلاقاتهم العامة والخاصة مع الناس، وخاصة علاقتهم مع طبقة الصوفية حيث كان معظم هؤلاء يأوي إلى عمائر الصوفية من أجل الراحة والعبادة والتزود بالطعام وقـــد أفـــادت الدراسة من هذه المعلومات في مواضع مختلفة.

أما كتب الجغرافيا التي أفاد الباحث منها في دراسته:

١ - ابن منقذ، مؤيد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني (ت٥٨٤هــ/١١٨٨م).[٨]

"كتاب الاعتبار"[٩]

ولد ابن منقذ في قلعة شيزر سنة ٤٨٨هــ/١٠٩٥م وهو ينتمي إلى أسرة عربية أصيلة من بني منقذ من كنانة أقامت لها إمارة صغيرة شمال الشام حول حصن شيزر غرب حماة على نهر العاصي.

---

[1] سبق تعريفه.

[2] الأسنوي، عبد الرحيم، طبقات الـــشافعية، جـــزءان، تحقيـــق، كمـــال الحـــوت، (بيـــروت، دار الكتـــب العلميـــة، ط١، ١٤٠٧هــ/١٩٨٧م).

[3] سبق تعريفه.

[4] ابن تغري بردي، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، تحقيق، محمد حسين شمس الـــدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هــ/١٩٩٢م).

[5] سبق تعريفه.

[6] سبق تعريفه.

[7] الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد ، الطبقات الكبرى، المسمى، "بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار"، ضبطه وصححه: خليل منصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هــ/١٩٩٧م).

[8] الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣١.

[9] ابن منقذ، أسامة بن مرشد، كتاب الاعتبار، حرره: فيليب حتى، (بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢١هــ/٢٠٠١م).

وابن منقذ أحد الأبطال المشهورين، والشعراء المبرزين، وله عـدة تـصانيف فـي الأدب والأخبار والنظم والنثر.

عاصر الحملات الصليبية على بلاد الشام إذ بلغ من العمـر ٩٦ سـنة وتـرك مذكراتـه المعروفة بكتاب "الاعتبار" التي تمثل فيه سيداً من سادات العرب، والكتاب يتضمن خلاصة تجـارب أسامة، وكل ما صادفه في حياته من أحداث دون أن يلتزم قاعدة نصية في الأسـلوب أو الترتيـب، وبرغم أنه قد ألفه في شيخوخته فإنه ينبض بروح الفتوة والشباب منذ أن خرج مـن شـيزر بعـد الاضطرابات التي وقعت بين أفراد أسرته أخذ يطوف في البلدان، فلم تقتصر مشاهدته للقتـال فـي شيزر وحماة بل مارسه في فلسطين ومصر والشام والجزيرة واتصل بأمراء وملوك هـذه الجهـات أمثال عماد الدين زنكي، ونور الدين وصلاح الدين، والخلفاء الفاطميين. [١]

ويمكن القول أن كتاب ابن منقذ هو عبارة عن مذكرات تصور الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشها المؤلف زمن الحروب الصليبية، ولقد أفاد كتاب الاعتبار الدراسـة فـي عـدة فصول وخاصة الفصل الثاني والثالث وتسجيله لقتال الشيخ الصوفي عبـد الـرحمن الحلحـولي[٢] ودفاعه عن دمشق ضد الصليبيين. [٣]

٢ - ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الجنسية الحموي المولد، البغـدادي، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م). [٤]

"معجم البلدان"

ولد في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ببلاد الروم، أسر من بلاده صغيراً، وابتاعه ببغـداد رجـل تاجر يعرف بعسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، وجعله في الكُتَّاب لينتفع به في ضبط تجارتـه، وواجه ياقوت صعوبات كثيرة في حياته، لكن هذه الصعوبات لم تحل بينه وبين أن يصبح من كبـار المؤرخين الأعلام. [٥]

---

[1] انظر: ابن منقذ، المنازل والديار، تحقيق، مـصطفى حجـازي، (القـاهرة، وزارة الأوقـاف، لجنـة إحيـاء التـراث، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، مقدمة المحقق، ص٣١-٥٤. ابن خلكان، وفيات، ج١، ص١٩٥. الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٧. عبد الله، معجم المؤرخين، ص٣٨.

[2] هو عبد الرحمن الحلحولي بن عبد الله ، الحلحولي نسبة إلى قرية في الخليل اسمها حلحول، وهو محدث زاهد، ولد بحلب، انقطع في آخر أمره في مسجد دمشق، حتى قتل شهيداً أثناء محاولة الـصليبيين الاسـتيلاء علـى مدينـة دمـشق سـنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٧٢.

[3] ابن منقذ، الاعتبار، ص١٢٧.

[4] الذهبي، العبر، ج٣، ص١٩٨.

[5] انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٦، ص١٢٢. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص١٢١.

ويعد كتاب "معجم البلدان" موسوعة جغرافية نظراً لوفرة المادة التي أوردها وتحـدث فيهـا عن البلدان والأقاليم والمدن والجبال والأنهار وغير ذلك، وهو مرتب حسب الحروف الأبجدية، ولا غنى عنه للباحث في التاريخ والجغرافيا والأدب، عند تحقيق أسماء البلدان والمعالم الجغرافية، وقـد أفاد الدراسة في تحقيق وتعريف أسماء المدن والأماكن التي وردت فيها.

ومن كتب الجغرافيا التي أفادت الدراسة:

"المسالك والممالك" للإصطخري[١] (ت،٣٥٠هـ/٩٦١م)

"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي المعروف بالبشاري[٢] (ت،٣٨٠هـ/٩٩٠م).

"آثار البلاد وأخبار العباد " للقزويني[٣] (ت،٦٨٢هـ/١٢٨٣م).

رابعاً: المصادر المترجمة:

أفادت الدراسة من المعلومات التي أوردها بعض المـؤرخين والرحالـة الأوربيـين فـي مصنفاتهم التي صنفوها حول الحروب الصليبية وأوضاع الفرق الصوفية في بـلاد الـشام وتكمـن أهمية هذه المصادر كون بعض أصحابها كانوا شهود عيان على أحداث تلك الحروب ومن أهم هذه المصادر:

"**كتاب فوشيه الشارتري**".[٤] Fulcher of charters

"**تاريخ الحملة إلى القدس**" [٥]

وضع فوشيه الشارتري Fulcher of charters كتابه المسمى بتاريخ الحملة إلـى القـدس أثناء مرافقته للحملة الصليبية الأولى التي غادرت فرنسا إلى بلاد الشام ".

"Gesta Francorum Iherusalem perefrinanium"

---

(1) الاصطخري، إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر عبد العال، (مـصر، وزارة الثقافـة والإرشـاد، ١٣٨١هـ/١٩٦١م).

(2) المقدسي، محمد بن أحمد، المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، محمد مخـزوم، (بيـروت، دار إحياء التراث، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

(3) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت، دار صادر).

(4) هو الشارتري، ولد بمدينة شارتر بفرنسا ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م كان ممن حضروا مؤتمر كيلر مونت الكنسي الذي عقد في سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م بفرنسا، والذي حضره حوالي ثلثمائة من رجال الدين، ثم رافق الحملة الصليبية الأولى التـي غـادرت مدينة شارتر الفرنسية، إلى أن انضم إلى بلدوين الأول الذي اصطحبه إلى الرها وأقام معه نحو سنتين، وعنـدما تـولى بلدوين عرش القدس بعد وفاة أخيه جودفري انتقل الشارتري معه وبقي ملازماً له حتى وفاته سنة ٥١٢هـ/١١١٨م أمـا الشارتري فقد مكث في بيت المقدس حتى وفاته سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، انظر: الشارتري، تاريخ الحملة، مقدمة المتـرجم، ص٧-١١. المدني، الحياة العلمية في فلسطين، ص١٩، هامش"٣".

(5) الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة، زياد العسلي، (بيروت، دار الشروق، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

وقد اعتمدت الدراسة على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها زياد العسلي.

وتكمن أهمية هذا المصدر في أن مؤلفه كان معاصراً لأحداث الحملة الصليبية الأولى، كما أنه شاهد عيان لمعظم الأحداث التي دونها، ولذلك يعد كتابه من المصادر المهمة لدراسة الحروب الصليبية، وقد أفاد هذا المصدر الدراسة خاصةً في الفصل الرابع حيث زودت الباحث بمعلومات دقيقة عن الزلازل التي حدثت في بلاد الشام أثناء وجود فوشيه ضمن أفراد الحملة الصليبية الأولى.

وليم الصوري[١] William of Tyre

"تاريخ الحروب الصليبية" [٢]

صنف وليم الصوري كتابه "تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" المسمى بتاريخ الحروب الصليبية.

ولقد اعتمدت الدراسة على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها سهيل زكار وهي بعنوان "تاريخ الحروب الصليبية" ويعد هذا المصدر موسوعة في تاريخ الحروب الصليبية، وتكمن أهميته في أنه يتناول فترة طويلة من تاريخ الصليبيين امتدت حتى سنى ٥٨٠هـ/١١٨٤م، وقد اعتمد وليم الصوري في تدوين كتابه على مؤلفات بعض المؤرخين الصليبيين الذين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى من أمثال فوشيه الشارتري، وريموندداجيل وغيرهما، وتأتي أهميته أيضاً كون مؤلفه معاصراً لأحداث الحروب الصليبية و شاهد عيان عليها ولا غنى لأي باحث تاريخي عن معلومات هذا المصدر.

وكما يقف ابن القلانسي على رأس المؤرخين الذي أرخوا لدمشق يقف وليم الصوري على رأس المؤرخين الصليبيين الذين أرخوا لمملكة بيت المقدس الصليبية، ولقد أفاد هذا المصدر الدراسة بالكثير من المعلومات وخاصة السياسية منها المتعلقة بالخلافات بين أبناء السلطان السلجوقي ملكشاة، وفي حديثه عن بطرس الناسك وعلاقة الصليبيين بالباطنية الحشاشين[٣]، كما زود هذا المصدر الباحث بمعلومات هامة حول الاضطهاد الصليبي للمسلمين وقد تجلت مظاهر هذا الاضطهاد في إصدار الصليبيين قراراً بتحريم دخول المسلمين لمدينة القدس أو الإقامة فيها، لكونهم غير جديرين بالاحترام.

---

[1] وليم الصوري، ولد قبيل سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م في بيت المقدس، وقد أمضى فترة صباه فيها، سافر إلى أوروبا متنقلاً بين فرنسا وإيطاليا طالباً للعلم، فدرس الفلسفة والرياضيات والقانون وعلم اللاهوت، وفي سنة ٥٦١خـ/١١٦٥م عاد إلى الشرق حيث أصبح رئيس ديوان الرسائل في مملكة بيت المقدس، ثم تقلد عدة مناصب دينية كان آخرها رئيساً لأساقفة صور من سنة ٥٧١هـ-٥٨٠هـ/١١٧٥م-١١٨٤، كما عمل وليم الصوري مستشاراً للملكة الصليبية من سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م وحتى وفاته ٥٨٢هـ/١١٨٦م، انظر: وليم، تاريخ الحروب، مقدمة المترجم، ص٧٠-٧٧. المدني، الحياة العلمية في فلسطين، ص٢٠، حاشية٣.

[2] الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، جزءان، ترجمة: سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

[3] انظر: وليم، تاريخ الحروب، ج٢، ص٩٦٧-٩٦٨. قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية- الأيدلوجية- الدوافع - النتائج، (مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص١٢٣.

بالإضافة إلى ما سبق اطلع الباحث على بعض الكتب المترجمة واستفاد منهـا فـي هـذه الدراسة، حيث أوجدت لديه فكرة عامة عن نظرة الرجال المسيحيين إلى الحروب الـصليبية بوجـه عام، وإلى مسلمي بلاد الشام بوجه خاص.

ومن أهم هذه المصادر:

(١) سايلوف Sawulf وصف رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأراضـي المقدسـة سـنة ١١٠٢-١١٠٣م. [١]

(٢) الحاج الروسي دانيال[٢] الراهب في الأراضي المقدسـة (١١٠٦-١١٠٧) ترجمهـا إلـى العربية/ سعيد البيشاوي، داوود إسماعيل أبو هدبة

(٣) ثيودريش Theodrich"[٣] وصف الأماكن المقدسة فـي فلـسطين فـي القـرن الـسادس الهجري-الثاني عشر الميلادي" ترجمها إلى العربية، سعيد البيشاوي - رياض شاهين.

(٤) كلود كاهن[٤]، "الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية"، ترجمه إلى العربية، أحمد الـشيخ ويحتوي كتاب كاهن على مقدمة وسبعة عشر فصلاً، وإحدى وعشرين وثيقة تاريخية، ومن خلالها يؤرخ كاهن لأوضاع الشرق والغرب عشية الحروب الصليبية، ويخص فصلاً كاملاً يتحدث فيه عن شخصية صلاح الدين الأيوبي والعلاقة بين الصليبيين والـسكان المحليـين خلال الفترة الأيوبية.

(٥) جوناثان ريلي سميث[٥]، "الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية"، ترجمـه إلـى العربية، محمد فتحي الشاعر.

يتطرق هذا الكتاب إلى جذور الحروب الصليبية وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافيـة والسياسية.

---

(1) سايلوف، وصف رحلة الحاج، سايلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة، سنة ١١٠٢-١١٠٣م، ج١، دار الشروق، (عمان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

(2) دانيال الراهب، الحاج الروسي، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين ١١٠٦-١١٠٧م، ترجمة، سعيد البيشاوي – داود أبو هدبة، (عمان، دار الشروق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

(3) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين في القرن السادس الهجري الثامن عشر الميلادي، ترجمة وتحقيق، سـعيد البيشاوي – رياض شاهين، ط١، (عمـان، دار الشروق، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

(4) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة، أحمد الـشيخ، (القـاهرة، سـينا للنـشر والتوزيـع، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

(5) سميث، جوناثان ريلي، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمـة، محمد فتحي الشاعر، (مصر، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

الفصل الأول

التطور التاريخي للحركة الصوفية في القرن الثالث الهجري حتى بداية الغزو الصليبي

- تعريف التصوف لغة واصطلاحاً.
- نشأة علم التصوف.
- تطور الحركة الصوفية.

التصوفُ لغــةً:

بالبحث عن كلمة صوفية، لاحظ الباحث اختلاف أهل اللغة في أصــلها، أهــي جامــدة أم مشتقة؟ فهناك رأيان:

الرأي الأول: أنها جامدة، وقال به:

١- القشيري[١] حيث قال: "هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجلٌ صــوفي، وللجماعــة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف، وللجماعة متصوفة، ولا يشهد لهذا الاسم مــن حيث العربية قياس أو اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب"[٢]

٢- العروسي[٣] الذي قال: "هو اسم جامد وقع على كل من اجتمع قلبه وقت ذكره"[٤] يقــصد بــذلك ذكر الله.

٣- المقرئ[٥] الذي قال: "تصوف الرجل وهو صوفي، من قوم صوفية، وهي كلمة مولدة [٦]"[٧] وصوفي جمعها صوفية، وهي كلمة جامدة، لا يشهد لها قياس أو اشتقاق في اللغة العربية.

---

(1) هو عبد الكريم النيسابوري، الصوفي الزاهد، شيخ خراسان وأستاذ الجماعة الصوفية، ومصنف كتاب "الرسالة القــشيرية"، توفي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السمعاني، الأنــساب، ج٤، ص٤٨٢. الــسبكي، طبقــات، ج٥، ص١٥٣.المناوي، زين الدين محمد بن عبد الرؤوف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ٥ أجـــزاء، تحقيــق، محمد أديب الجور، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج٢، ص١٨٦. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٣١٨. ألفا، رونيئيلي، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، جزءان، راجعه، جورج نحل، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج٢، ص ٢١٥.

(2) القشيري، الرسالة، ص١٥١-١٥٢.

(3) هو مصطفى بن محمد بن أحمد بن موسى العروسي، فقيه شافعي مصري، تولى مشيخة الأزهر، حارب البدع وعلى رأسها عادة التسول، من أهم كتبه "نتائج الافكار القدسية"، توفى سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، للمزيد عن ترجمته، انظــر: البابــاني، إسماعيل باشا بن محمد أمين، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلدان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ج٢، ص٦٢٠. سركيس، معجم المطبوعات، ج٢، ص١٣٢١. كحالــة، معجــم المؤلفين، ج١٢، ص٢٧٤.

(4) العروسي، نتائج الأفكار القدسية، ج٤، ص٣.

(5) هو أحمد بن محمد الفيومي ثم الحموي، كان عالماً فاضلاً، عارفاً باللغة والفقه، له كتاب المصباح المنيــر، تــوفى ســنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨ م، انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٣١٤.

(6) مولدة، أي ليست كلمة عربية محضة، والمولد من كلام العرب إذا استحدث ولم يكن من كلامهم فيما مضى، انظر: ابــن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ١٥ جزء، (بيروت، دار صادر، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج٣، ص٤٦٩.

(7) المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير – معجــم عربــي عربــي- (القــاهرة، دار الحــديث، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص٢١١.

الرأي الثاني: أنها مشتقة:-

وذكر أصحاب هذا الرأي كلمات، رأوا أنها مشتقة منها، وهي:

١- (صوفانة): وهي بقلة زغباء قصيرة، تنبت في الصحراء، كان الصوفية يقتاتون عليها [١]، ونسبوا إليها لاكتفائهم بنبات الصحراء[٢] ويبرر أصحاب هذا الرأي وجهة نظرهم بأن الصوفية يكتفون بالقليل من متاع الدنيا [٣]، لكن آخرون يرون أن نسبتهم لها خطأ، لأنهم لو نُسبوا إليها لقيل للواحد منهم صُوفاني.[٤]

٢- إنها مشتقة من (صوفة): وهي لقبٌ لرجلٍ جاهلي يسمى الغوث بن مرّ، نذرته أمه للكعبة لأنه لا يعيش لها ولد، وقيل أن أمه شاهدته في يوم شديد الحر منهكاً مسترخياً فقالت: ما صار ابني إلا صوفة، وقد استمر بنو صوفة في القيام ببعض مناسك الطواف حول البيت في الجاهلية فترة من الزمان، فصار من تشبه بصوفة، وبنيه صوفياً[٥].

إن كان هذا الكلام موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف، لأن بني صوفة غير معروفين ولا مشهورين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك والعباد والزهاد إلى بني صوفة، لكان هذا النسب في زمن الصحابة وتابعيهم أولى، ولأن أغلب من تكلم باسم الصوفية لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلةٍ في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام. [٦]

---

(1) الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ١٢جزء، تحقيق، أحمد عبد العليم البردوني، (مصر، الدار المصرية للتأليف)، ج١٢، ص٢٤٧. ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٢٠٠.

(2) انظر: ابن تيمية، تقي الدين أحمد، مجموعة الفتاوي، ٣٧ جزء، اعتنى بها، عامر الجزار، (الرياض، دار الوفاء، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج١، ص٧. الزبيدي، محب الدين أبي فيض محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٠ جزء، تحقيق، علي شيري، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ج١٢، ص٣٣٢. فروخ، عمر، التصوف في الإسلام، (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٢٢.

(3) انظر: السهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، (بيروت، دار المعرفة)، ص٦٤. حلمي، أحمد كمال الدين، الحياة الروحية في الإسلام، (القاهرة، مكتبة دار المعرفة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص١٠. المهدلي، محمد عقيل بن علي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، (القاهرة، دار الحديث، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٨م)، ص٥٤.

(4) انظر: ابن تيمية، التصوف والصوفية، تحقيق، محمد طاهر الزين، (مصر، مكتبة السندس، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م). ص٩. فروخ، التصوف في الإسلام، ص٢٢. أحمد، عزمي طه السيد، التصوف الإسلامي حقيقته وتاريخه ودوره الحضاري، (عمان، المؤسسة العربية الدولية للنشر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص٢٥.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، ج١٢، ص٢٤٧. الجوهري، أبي منصور إسماعيل بن عماد، الصحاح، جزءان، تحقيق، شهاب الدين أبو عمرو، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج٤، ص١٣٨٨. ابن فارس، أبو الحسن، أحمد، معجم مقاييس اللغة، ٧ أجزاء، تحقيق، عبد السلام هارون، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ج٣، ص٣٢٢. مبارك، زكي، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، جزءان، (مصر، مطبعة الرسالة، ط١، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، ج١، ص٤١.

(6) ابن تيمية، مجموعة الفتاوي، ج١١، ص٧.

٣- وقيل إنها من(الصفاء): وذلك "لصفاء أسرار الصوفية ونقاء آثارها "[١] لأن تصفية النفس من مستلزمات التصوف، إلا أن اشتقاق التصوف من الصفاء، بعيد بحسب مقتضى اللغة.

ومن القائلين بهذا الرأي بشر بن الحارث[٢] الذي قال: " الصوفي من صفا قلبه لله "[٣] وفي ذلك يقول الشاعر أبو الفتح البستي[٤]

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... وظنه البعض مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى ... صفا فصوفي حتى سمي الصوفي [٥]

٤- إنه منسوب إلى (أهل الصُّفة)، وهم جماعة من فقراء المهاجرين كانوا يبيتون في مسجد رسول الله ﷺ، مداومين على العبادة، فسُميَّ الصوفية بهذا الاسم لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفة[٦]، ونسبة الصوفية إلى الصفة خطأ من ناحية اللغة، لأنها لو كانت كذلك لقيل صُفِّي[٧].

٥- إنه مشتق من (الصف الأول) في الصلاة، أو لأنهم في الصف الأول بين يدي الله، ولكن النسبة إلى الصف صفِّي وليس صوفي[٨].

٦- قيل إنه من (الصوفة)، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة التي لا تدبير لها[٩].

---

[1] الكلاباذي، التعرف، ص٩.

[2] هو، بشر بن حارث الحافي، يكنى أبو نصر، رحل إلى مكة والكوفة والبصرة لطلب العلم، كان في الفقه على مذهب الثوري، توفي سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، ٨ أجزاء، أعد فهارسها، رياض عبد الهادي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ج٧، ص١٦٦. ابن النديم، الفهرست، ص٣٢٠. ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج، صفة الصفوة، ٤ أجزاء، اعتنى به، أيمن صالح شعبان، (مصر، المكتبة التوفيقية)، ج٢، ص٦١٢. المناوي، الكواكب الدرية، ج١، ص٥٥٧. عويضة، كامل محمد محمد، الحارث بن أسد المحاسبي العالم الزاهد الفقيه، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص٧.

[3] الكلاباذي، التعرف، ص١٠.

[4] هو أبو الفتح علي بن محمد، كاتب و شاعر، وهو أديب زمانه، توفي سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الثعالبي، أبي منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٥أجزاء، تحقيق، مفيد محمد قميحة، (بيروت، دار الكتل العلمية، ط٢، ١٤٥٣هـ/١٩٨٣م)، ج٤، ص٣٤٥. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٤. السبكي، طبقات، ج٥، ص٢٩٣. ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٢٩.

[5] السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، معيد النعم ومبيد النقم، (بيروت، دار الحداثة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م)، ص١٢٠. زروق، أحمد بن أحمد بن عيسى، قواعد التصوف، تحقيق، عبد المجيد خيالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٢٤. الكستراني، التصوف، ص٢٤. عبد القادر، حقائق عن التصوف، ص١٦.

[6] الكلاباذي، التعرف، ص١٠.السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٥. زروق، قواعد التصوف، ص٢٤.

[7] ابن تيمية، مجموعة الفتاوي، ج١١، ص٧. التصوف والصوفية، ص٩.

[8] السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٥. فروخ، التصوف في الإسلام، ص٢٢. أحمد، التصوف الإسلامي، ص٢٤.

[9] زروق، قواعد التصوف، ص٢٤. ابن عجيبة، أحمد بن محمد، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، (بيروت، دار الفكر)، ص٦.

٧- وقيل إنها من (الصوف) وهو الرأي الذي يميل إليه الباحث، لأن الصوف لباس الزهاد والعباد في المجتمع الإسلامي، يؤكد هذا الحسن البصري[١] في قوله: "لقد أدركت سبعين بدرياً، كان لباسهم الصوف" [٢] وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يُقال تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص[٣]، وهذا الرأي يميل إليه معظم الباحثين في هذا العلم[٤].

التصوف اصطلاحاً:

لاصطلاح التصوف تعريفات عدة، تجاوزت الألف يؤكد ذلك الشيخ السهروردي[٥] في قوله: "وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على الألف قول"[٦]

ويعاضده قول الشيخ زروق[٧]: "حُدَّ التصوف وفُسِرَ بوجوه تبلغ الألفين"[٨]

ولعل السبب في كثرة تعريفات التصوف يعود إلى أنه تجربة وجدانية تختلف باختلاف الأشخاص، لأنهم أرباب أذواق، كل منهم عرَّفه تبعاً لما غلب عليه من الأحوال والمقامات. [٩]

---

(1) هو أبو الحسن البصري، يكنى أبي سعيد، مولى الأنصار، ولد في عهد عمر فحنكه، عمر بيده، كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ﷺ، توفي سنة ١١٠هـ /٧٢٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خياط، أبي عمرو خليفة، كتاب الطبقات، تحقيق، أكرم ضياء العمري، (بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ص٢١٠. الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ أجزاء، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ج٢، ص١٣١. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٣، ص١٦٢.المناوي، الكواكب الدرية، ج١، ص٢٥٤.

(2) السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٤.

(3) المصدر نفسه، ص٦٤.

(4) أمثال، الطوسي، اللمع، ص٢٣-٢٤. الكلاباذي، التعرف، ص١٠. السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٤. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (بيروت، دار القلم، ط٥، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص٤٦٧.

(5) هو عمر بن محمد بن شهاب الدين، قدوة العارفين، تفقه في الدين، وصنف التصانيف، توفي سنة ٦٣٢هـ /١٢٣٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٤٤٦. الذهبي، العبر، ج٣، ص٢١٣. ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرازق بن أحمد، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق، مهدي النجم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٧٢. المناوي، الكواكب الدرية، ج٢، ص٤٩٢. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص١٥٣.

(6) انظر: السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٤. الكردي، محمد أمين، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، علق عليه، محمد رياض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص٤٣٨-٤٣٩.

(7) هو أحمد بن محمد بن عيسى، لُقب بزروق، لأن جده كان أزرق العينين، اشتغل بالتصوف والتوحيد، توفي سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص١٨٤.المناوي، الكواكب الدرية، ج٣، ص١٦٦. ابن العماد، شذرات، ج٧، ص٣٦٣. مخلوف، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، جزءان، علق عليه، عبد المجيد خيالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج١، ص٣٨٦. الكوهن، الفاسي، الحسن بن محمد بن القاسم، طبقات الشاذلية الكبرى، وضع حواشيه، مرسي محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢، ٢٠٠١م)، ص١١٧.

(8) زروق، قواعد التصوف، ص٢١.

(9) Chittich, of New york Presslp, p17, Schimel, Dimensionsaf Islam, p.7.

وفي ذلك يقول القشيري: "فكل عبر بما وقع له."[١]

وفيما يلي نماذج مختارة جرت على ألسنة الصوفية في معاني التصوف.

قال معروف الكرخي[٢]: "التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق"[٣].

وقال ذو النون المصري[٤]: "أهل التصوف هم قوم آثروا الله على كل شيء فـآثرهم الله علـى كـل شيء"[٥]

وقال التستري[٦]: "الصـوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله مـن البـشر، واستوى عنده الذهب والمدر[٧]" [٨]

وقال سمنون[٩]: "التصوف أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء" [١٠]

وقال أبو الحسين النوري[١١]: "التصوف ترك كل حظ للنفس"[١]

---

(1) القشيري، الرسالة، ص١٥٢.

(2) هو معروف الاصطخري، أحد مشاهير علم التصوف، كان إخوانه وأصحابه ومريديه يتبركون بلقائه ودعائه، توفي سـنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبي نعيم، الحلية، ج٨، ص٣٦٠. ابن أبي يعلى، أبي الحسين محمد بن محمد بن الحسين، طبقات الحنابلة، جزءان، وضـع حواشـيه، أسـامة بـن حـسن، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج١، ص٣٤٠. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٦٠٨. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٣١.

(3) القشيري، الرسالة، ص١٥٢. السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢.

(4) هو أبو الفيض، ذو النون بن إبراهيم المصري، أسند أحاديث كثيرة عن مالك والليث بن سعد، توفي سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبي نعيم، الحلية، ج٩، ص٣٣١. القشيري، الرسالة، ص١١.

(5) القشيري، الرسالة، ص١٥٣.

(6)هو أبو محمد سهل بن عبد الله، أحد أئمة القوم وعلمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص،توفي سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م، للمزيـد عن ترجمته، انظر: أبي نعيم، الحلية، ج١٠، ص١٨٩.القشيري، الرسـالة، ص١٨.المنـاوي، الكواكـب الدريـة، ج١، ص٦٣٣. ألفا، أعلام الفلسفة، ج١، ص٣٢٣.

(7) المدر، قطع الطين اليابس، وقيل الطين الذي لاوحل له. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص١٦٢.

(8) الكلاباذي، التعرف، ص١٩.

(9) هو، سمنون بن حمزة الصوفي،يكنى أبا القاسم صحب السري السقطي، تكلم فـي المحبـة بأحـسن الكلام،تـوفي سـنة ٢٩٠هـ/٩٢٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر:أبي نعيم، الحلية، ج١٠،ص٣٠٩. البغـدادي، تـاريخ، ج٩، ص٢٣٤. ابـن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٦٧٤.المناوي، الكواكب الدرية، ج١، ص٦٣٠.

(10) انظر: الطوسي، اللمع، ص٢٦. القشيري، الرسالة، ص١٥٢. الرازي، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبـد القـادر الشافعي، حدائق الحقائق، تحقيق، إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص١٠١.

(11) هو أحمد بن محمد النوري، كان كبير الشأن، حسن المعاملة واللسان، توفي سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م، للمزيد عـن ترجمتـه، انظر: البغدادي، تاريخ ج٥، ص١٣. القشيري، الرسالة، ص٢٥. السمعاني، الأنساب، ج٥، ص٤٣٤. ابن ظفر، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الصقلي، أنباء نجباء الأبناء، تحقيق، إبراهيم مؤنس، (القـاهرة، دار الـصحوة للنـشر)، ص٢٠٦. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٦٨١.

وسئل الجنيد [٢] عن التصوف فقال: "تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة "[٣]

وقال أيضاً: "التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة "[4]

وقال أيضاً: "التصوف، أن يميتك الحق عنك، ويحييك به "[5]

وقال أيضاً: "التصوف ذكرٌ مع اجتماع، ووجدٌ مع استماع، وعملٌ مع إتباع "[6]

قال أيضاً: "الصوفي كالأرض،يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح"[7]

وقال رويم[٨]: "التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد"[٩]

وقال أيضاً: "التصوف مبني على ثلاث خصال، التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار "[١٠]

وقال الجريري[١١]: "التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب "[١٢]

---

[1] الكلاباذي، التعرف، ص١٩. القشيري، الرسالة، ص٢٥.

[2] هو أبو القاسم، محمد بن الجنيد أبو القاسم الخزاز، كان أول أمره يتفقه على علم الحديث مثل المذهب الثوري، احكم الأصول، توفي سنة ٢٩٧هـ /٩٠٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السلمي، أبي عبد الرحمن، طبقات الصوفية، تحقيق، نور الدين شرتيبة، (القاهرة مكتبة الخابنجي، ط٣، ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، ص١٥٥. ابن ابي يعلى، طبقات الحنابلة، ج١، ص١٢٠. السبكي، طبقات، ج٢، ص٢٦٠.المناوي، الكواكب الدرية، ج١، ص٥٧.

[3] الكلاباذي، التعرف، ص١٩.

[4] الطوسي، اللمع، ص٢٦. الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠١.

[5] القشيري، الرسالة، ص١٥٢. الرازي، حدائق الحقائق، ص ١٠١.

[6] الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠١.

[7] القشيري، الرسالة، ص١٥٢. الرازي، حدائق الحقائق، ص ١٠٢.

[8] هو رويم بن أحمد، كان فقيهاً على مذهب داوود الأصفهاني، توفي سنة ٣٠٣هـ /٩١٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٤٥٤. صفة الصفوة، ج٢، ص٦٨٣.المناوي، الكواكب الدرية، ج٢٢، ص٩٥. الشعراني، الطبقات الكبرى، ص١٢٧.

[9] الطوسي، اللمع، ص٢٦. القشيري، الرسالة، ص١٥٢. السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٣.

[10] السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢.

[11] هو احمد بن محمد بن الحسين أبو محمد الجريري، من كبار مشايخ الصوفية، أوصى الجنيد له بولاية التصوف، توفي سنة ٣١١هـ /٩٢٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السلمي، طبقات الصوفية، ص٢٥٩. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٦٨٧. المناوي، الكواكب الدرية، ج٢، ص٢٣.

[12] القشيري، الرسالة، ص١٥٣. الرازي، حدائق الحقائق، ص ١٠١.

وقال الروذبارى[1]: "الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأطعم الهوى ذوق الجفــاء، وكانــت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى"[٢]

وقال أبو بكر الشبلي[٣]: "التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك "[٤]

وقال أيضاً: "التصوف، الجلوس مع الله بلا هم "[٥]

وقال أيضاً: "ألا يستغني بشيء دون الحق" [٦]

هذه تعريفات عدة للتصوف لاحظ الباحث خلالها أنها ركزت على معاني وأهملت أخــرى، فمنها ما تناول مفهوم التصوف بمعنى الزهد، وآخر بمعنى الأخلاق، وثالث بمعنى الصفاء، والرابع بمعنى التزام الشريعة، وخامس بمعنى العبودية التامة والتسليم الكامل لله، وسيصنف الباحــث هــذه التعريفات حسب ما احتوت عليه من معانٍ ومفاهيم.

أما التعريفات التي ركزت على جانب الزهد فكثيرة أهمها: -

قول الكرخي: "أن التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق "[٧]

وقول ذو النون المصري: "الصوفي من لا يتعبه طلب،ولا يزعجه سلب"[٨]

وقول سمنون: "التصوف أن لا تملك شيئاً، ولا يملكك شيء"[١]

---

[1] هو أحمد بن محمد بن مقسم، صحب الجنيد والنوري وأسند الحديث،كان من أبناء الرؤساء والوزراء، توفي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبو نعيم، الحلية، ج١٠. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص١٤٩. الذهبي، العبر، ج٢، ص١٧. الأسنوي، طبقات الشافعية، ج١، ص٢٨٣. المناوي، الكواكب الدرية، ج٢، ص١٨.

[2] الكلاباذي، التعرف، ص١٨. السبكي، معيد النعم، ص١٢٠. السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكــر، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، صححه وعلق عليه، عبد الله الغماري الحسني، (القاهرة، دار الفــتح، ط٣، ١٤١٥هت/١٩٩٤م)، ص١٥.

[3] هو أبو بكر الزاهد، صاحب التصوف، برع في مذهب مالك، توفي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، للمزيد عــن ترجمتــه، انظــر: السلمي، طبقات الصوفية، ص٣٣٧. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٦٩٣. المنتظم، ج٨، ص٢٣٨. ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق، أحمد راتــب حمــوش وآخــرين، (دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج٢٨، ص١٦٧. ابن فرحون، إبراهيم بن نور الــدين المــالكي، الــديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق، مأمون الجنان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص١٨٧.

[4] السلمي، طبقات الصوفية، ص٣٤. السيوطي، تأييد الحقيقة، ص١٥.

[5] الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠١.

[6] السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢.

[7] القشيري، الرسالة، ص١٥٢. السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢.

[8] السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٣.

وقول النوري: "التصوف، من لا يتعلق بشيء، ولا يتعلق به شيء"[٢]
وقول رويم: "التصوف مبني على ثلاث خصال، التمسك بالفقر والافتقار إلى الله تعالى، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار"[٣]

من التعريفات التي ركزت على الجانب الأخلاقي:

تعريف أبو محمد الجريري الذي قال: "التصوف الدخول في كل خُلقٍ سني، والخروج من كلِ ُخلقٍ دني"[٤]

وقول أبو حفص[٥]: " التصوف حسن أدب الظاهر، عنوان حسن أدب الباطن"[٦]
وقوله أيضاً: "التصوف كله آداب لكل وقت أدب، ولكل حالة أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات، بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن به القرب، ومردود من حيث يرجو القبول "[7] .

وقال الكتاني: "التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في التصوف "[٨]
وقال أبو الحسين النوري: "ليس التصوف علماً ولا رسماً، ولكنه خلق، لأنه لو كان رسماً، لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم ولا برسم"[1]

---

(1) الطوسي، اللمع، ص٢٦. القشيري، الرسالة، ص١٥٢.

(2) الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠١. المهدلي، مدخل إلى التصوف، ص٦٧.

(3) القشيري، الرسالة، ص١٥٢. السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢.

(4) الطوسي، اللمع، ص٢٦. القشيري، الرسالة، ص١٥٢. السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢. ابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج، تلبيس إبليس، (القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص١٥٩. الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠١.

(5) هو عمرو بن سلمة النيسابوري، كان أحد الأئمة والسادة، شيخ خراسان الزاهد، كان يعمل حداداً، وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، توفي سنة ٢٦٤هـ /٨٧٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السلمي، طبقات الصوفية، ص١١٥. الذهبي، سير أعلام، ج١٠، ص٣٤٧. اليافعي، مرآة الجنان، ج٢، ص١٣٢-١٣٣. المناوي، الكواكب الدرية، ج١، ص٦٨٥.

(6) القشيري، الرسالة، ص١٥٣. الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠١.

(7) السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢.

(8) الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠١. ابن الجوزية، ابن قيم أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ٣ أجزاء، (القاهرة، دار الحديث)، ج٢، ص٣٠٢.

وقال ابن قيم الجوزية [٢]: "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: "أن التصوف هو الخلق "[3]

التصوف بمعنى الصفاء: -

قال بشر بن الحارث[٤]: "الصوفي من صفا لله قلبه"[٥]

وقال أبو الحسين النوري: "الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية، وآفات النفوس، وتحرروا من شهواتهم، حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق، فلما تركوا ما سوى الحق صاروا لا مالكين ولا مملوكين"[6]

وقال السهرودي[٧]: "الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، ولا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر"[8].

التصوف بمعنى الالتزام بالشريعة: -

قال الجنيد "التصوف بيت والشريعة بابه" [9]

وقال الطوسي: [١٠] "الصوفية هم العالمون بالله، وبأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل، الواجدون بما تحققوا، الفانون بما وجدوا، لأن كل واجد قد فني بما وجد"[1]

---

[1] انظر: الأموي، عماد الدين ، حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب، (القاهرة، مطبعة الأنوار المحمدية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٢٦٦. المهدلي، مدخل إلى التصوف، ص١٦٩.

[2] هو الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب، الشهير بابن قيم الجوزية، يعد من العلماء المشهورين بالتقوى والورع والذكاء الحاد، والعزم في الرد على الملحدين، وأصحاب البدع والضلالات، توفي سنة ٧٥١هـ /١٣٨٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر:ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٤٣.

[3] ابن الجوزية، مدارج السالكين، ج٢، ص٣٢٩.

[4] سبق ترجمته.

[5] الكلاباذي، التعرف، ص١٠.

[6] القشيري، الرسالة، ص١٥٢.

[7] هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبدالله التميمي البكري، شهاب الدين، صنف كتاب عوارف المعارف الذي شرح فيه أحوال الصوفية، توفي ٦٦٢هـ /١٢٦٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص٢١٣. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص١٥٣. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٧٢. الأسنوي، طبقات الشافعية، ج١، ص٣٤٢.

[8] السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٤.

[9] انظر: السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢. الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠٢.

[10] هو أبو نصر عبد الله بن على السراج الملقب بطاووس الفقراء صاحب كتاب اللمع، توفى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الطوسي، اللمع، ص٢٨. الذهبي، العبر، ج٢، ص١٥١. اليافعي مرآة الجنان، ج٢، ص٣٠٦. ابن

التصوف بمعنى العبودية التامة والتسليم الكامل لله تعالى: -

قال أبو الحسين النوري: "التصوف ترك نصيب النفس جملة، ليكون الحق نصيبها"[٢]
وقال الجنيد: "التصوف هو أن تكون مع الله بلا علاقة "[٣]
وقال رويم: "التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده"[٤].
بالنظر إلى التعريفات السابقة يرى الباحث أن مجملها يدور حول التحلي بالأخلاق الحميدة، والبُعد عن الصفات الذميمة، والزهد والتنزه عن عبادة المال، والاستغناء بالله عمن سواه، والالتزام بشريعة الإسلام.

إلا أن الباحث من خلال تلك التعريفات الكثيرة، التي تجاوزت الألفين وقع اختياره على نماذج لمصطلح التصوف تشتمل على معظم هذه المعاني:

التعريف الأول:

للإمام الغزالي [٥] الذي يُعرف التصوف بقوله: "هو علم طريق الآخرة، وعلم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة أو المذمومة، وما هو مرضي عند الله وما هو مكروه"[٦].

التعريف الثاني:

لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري[٧] الذي يقول: "التصوف هو علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية"[١]

العماد، شذرات، ج٣، ص٩١. الطوسي، اللمع، ص٢٨. الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية، (القاهرة، دار الرشاد، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص١٩٩.

(1) الطوسي، اللمع، ص٢٨.

(2) انظر: السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢. Jackson and athers, the Hundred letters, p.89 .

(3) السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢. الرازي، حدائق الحقائق، ص١٠٠.

(4) الطوسي، اللمع، ص٢٦. القشيري، الرسالة، ص١٥٢. السهروردي، عوارف المعارف،ص٦٣.

(5) هو محمد بن أحمد الطوسي، حجة الإسلام، جامع أشتات العلوم، أخمد نيران البدع، جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء إلى مصابيح السماء، توفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٨٧. ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، تاريخ ابن الوردي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ج٢، ص٢٠. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص١٣٦. السبكي، طبقات، ج٦، ص١٩٠. زكار، سهيل – سبانوا، أحمد غسان، مائة أوائل، (دمشق، دار الملاح للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٢٣٤.

(6) الغزالي، الإحياء، ج١، ص٣٦.

(7) هو زكريا بن محمد درس في الأزهر، على المذهب الشافعي، وهو عالم مشارك في الفقه والفرائض والتفسير والقراءات والتجويد والحديث والتصوف، توفي سنة ٩٢٦هـ /١٥١٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق، فيليب حتى، (تونس، دار المعارف، ط١،

التعريف الثالث:

للشيخ عماد الدين الأموي[2] حيث قال عن التصوف: "هو علم يعرف منه أحوال النفس في الخير والشر،وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها، وتطهيرها من الصفات المذمومة، والرذائل والنجاسات المعنوية، التي أمر الشرع باجتنابها، والاتصاف بالصفات المحمودة، التي طلب الشرع تحصيلها وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه"[3].

ويميل الباحث إلى تعريف الغزالي الذي يقول: " التصوف هو علم طريق الآخرة، وعلم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة أو المذمومة، وما هو مرضي عند الله وما هو مكروه"، والسبب في ذلك أنه تعريف شامل لكافة معاني التصوف، ولأنه يعبر تعبيراً صادقاً عن صوفية عصر الحروب الصليبية، حيث إن الغزالي، من صوفية ذلك العصر، فيكون تعريفه أفضل تعريف لأنه يعكس الصورة الحقيقية عن صوفية ذلك العصر، ولأنه تعريف مختصر ويُحبذ في التعاريف الاختصار.

١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص١١٣. الشعراني، الطبقات الصغرى، ص٣٢. الشوكاني، البدر الطالع،ج١، ص١٧٥. كحالة، معجم المؤلفين، ج١، ص٧٣٣.

(1) العروسي، نتائج الأفكار القدسية، ج١، ص١٠٤. الكسنزاني، الأنوار الرحمانية في الطريقة القادرية الكسنزانية، (مصر، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١١/١٩٩٠)، ص١٩.

(2) هو عماد الدين محمد بن الحسن بن علي القرشي الأموي الأشعري، شيخ من شيوخ الصوفية، ومؤلف كتاب حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب، توفى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، للمزيد عن ترجمته، انظر: النبهاني، يوسف بن إسماعيل، جامع كرامات الأولياء، جزءان، ضبطه وصححه، عبد الوارث محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧/١٩٩٦م)، ج١، ص٧٨.

(3) الأموي، حياة القلوب، ص٣٦٠.

نشـــأة علـــم التصـــوف

عند دراسة التصوف الإسلامي، ينبغي النظر إلى الظروفِ السياسية والاجتماعية والدينيـــة، التي أنتجت هذا اللون من الفكر الإسلامي، الذي أصبح أمراً حتميـــاً؛ يـــصور لنـــا شـــهاب الـــدين السهروردي، حياة المجتمع الإسلامي بعد الرسول ﷺ، وانقضاء جل صحابته الكرام، قـــائلاً: "لمـــا تقادم زمان الرسالة، وبعد عهد النبوة، وانقطع الوحي الـــسماوي، وتـــوارى النـــور المـــصطفوي، واختلفت الآراء، وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكـــدَّر[١] شُـــرب العلـــوم شُـــوب[٢] الأهوية[٣]، وتزعزت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات، وكثف ســـحابها، وكثرت العادات وتملكت أربابها، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها" [٤].

أصبحت الحاجة ماسة إلى سلوك يحقق التوازن، ويُعيد الناس في عمومهم إلى تدقيق النظر في حياة الرفاهية، وهذا ما أكده ابن خلدون في قوله: "فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثـــاني الهجري وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الـــصوفية" [٥] فالتصوف الإسلامي نشأ لحاجة خلقية، حيث فساد العصر وانحراف الناس عن الجادة.

و يصور لنا ابو الحسن الندوي[٦] الانهيار الخلقي في تلك الفترة، فيقول: "وضـــعفت صـــلة القلوب بالله، والحياة بالروح، والمجتمع بالأخلاق، وفُقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمـــراض الباطنية، واعتلت القلوب والنفوس، وفقد الطبيب وتكالب الناس على حطام الدنيا".[٧]

كما كان لاتساع الدولة الإسلامية، ودخول الكثير من العادات والتقاليد الغريبة عن الاسلام، وتخلي المسلمين تدريجيا عن كثير من أمور الدين، أضف إلى ذلك أنه مـــن الأســـباب فـــي نـــشأة التصوف، كما شاع بين الناس التكاسل عن أداء الفرائض والعبادات، مع الإقبـــال علـــى الملـــذات، والترف والنعيم، وشيوع مجالس الخمر والغناء، وكثرة أماكن اللهو، مما أدى إلى وجود تفاوت بـــين

---

(1) الكدر، نقيض الصفاء، ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ١٣٤.

(2) شوب، الشوب بمعنى الخلط ،المصدر نفسه، ج١، ص٥١٠.

(3) الأهوية، الهوء، يقال: إنه لذو هوء، اذا كان صائب الرأى، المصدر نفسه ج١، ص١٨٧.

(4) السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٦. Danner, The Book of Wisdom, p.14

(5) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة ص467. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) ، ج١، ص514.

(6) هو علي بن عبد الحي الحسني، من اسرة ذات أصل عربي تعيش في الهند منذ قرون، ذو علم وثقافة واسعة، عاصر سقوط الخلافة العثمانية، ولد سنه 1332هـ/1913 م وتوفى سنة 1402 هـ / 1981م، انظر: المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، ٣ أجزاء، (المدينة المنورة، دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م)، ج١، ص١٣٥.

(7) انظر: القشيري، الرسالة، ص٤. الندوي، أبو الحسن على الحسيني، ربانية لا رهبانية، (بيروت، مؤسسة الرســـالة، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص١٤. Sells, Farly Islamic mysticism, p.147 .

طبقات الأمة، بين الغني والفقير، والحاكم والرعية"[١] وتحقق ما كان يحذر ويخوف منه رسـول الله ﷺ " فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها، وتلهكم كما ألهتهم" [٢]

وجاءت نشأة التصوف لحاجة علمية حيث قدّم منهجاً يستكمل به مقومات الفقه، واستكمالا لجوانب غابت عن الفقهاء الذين اكتفوا بظاهر العلم والعمل بالجوارح دون أن يتغلغلوا إلى الباطن حيث بواعث الأعمال، وخطرات القلوب، الأمر الذي جعل الصوفية يفهمون العبادات وأحكامها فهما يثري الحياة الروحية للفرد المسلم وهم يُريدون من وراء ذلك أن يتعانق الظاهر والباطن في الفقه الإسلامي.[٣]

وهذا ماعناه ابن مُنبه[٤] حين كتب إلى مكحول بن عبد الله الشامي[٥] قائلاً: "وأنك قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام عند الناس محبةً وشرفاً، فاطلب بما بطن من علم الإسلام عند الله تعالى محبةً وزُلْفَى، واعلم أن إحدى المحبتين سوف تمنعك من الأخرى"[٦].

كما كان للظروف السياسية دورٌ كبير في نشأة التصوف، فالفتن الداخلية التي بدأت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وحدوث الفتنة بين فئتين من المسلمين من أنصار علي ومعاوية، كل ذلك أدى إلى اضطراب الأحوال السياسية في ذلك العصر، والذي كان من شأنه إيثار بعض المسلمين لحياة العزلة والعبادة؛ تورعاً وابتعاداً عن الانغماس في الفتنة السياسية [٧].

---

[1] الأصفهاني، أبو فرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد، الأغاني، ٢٧ جزء، شرحه وكتب هوامشه، عبد مهنا، سمير جابر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج١، ص٢٩٣. جاد الله، منال عبد المنعم. التصوف في مصر والمغرب، (الإسكندرية، منشأه المعارف للنشر)، ص١٢٢. سعد، فهمي عبد الرازق، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)، ص٢٦٩.

[2] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري، ضبط النص، محمود محمد حسن نصار، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص١١٧٤.

[3] انظر: الجيلاني، عبد القادر بن موسى بن عبد الله ، الغنية لطالبي طريق الحق، أعد فهارسها، رياض عبد الهادي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١)، مقدمة المحقق، ص٧. العجمي، أبو اليزيد أبو زيد، نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي، (مجلة الدراسات الإسلامية، باكستان، مجمع البحوث الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية، العدد الأول، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م)، ص١٥. Wheeler, Teaching Islam, p.11

[4] هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كناز اليماني الصنعاني، توفي سنة١١٠هـ /٧٢٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السمعاني، الأنساب، ج٦، ص٢٨٠. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ١٠ أجزاء، ضبطه وراجعه، صدقي العطار، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ج٩، ص١٨٣. ياقوت معجم الأدباء، ج١٩، ص٢٥٩. ابن خلكان، وفيات، ج٦، ص٣٥.

[5] هو مكحول الشامي، من فقهاء الشام، توفي سنة ١١٢هـ، ٧٣٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السمعاني، الأنساب، ج٣، ص٤١٠. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٨٠. المناوي، الكواكب الدرية،ج١، ص٤٧٧.

[6] أبو نعيم، الحلية، ج٤، ص٥٤.

[7] انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج٣، ص٣٠٧-٣٠٨. جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، ص١٢٣.

كما كان للظروف الاقتصادية آثار على نشأة التصوف، ولا سيَّما عندما يرى المعدم المـال والنعمة في يد غيره، يشعر بالحرمان، ومن ثَمَّ يلجأ إلى التصوف، مواساةً لنفسه أن كان قـد حُـرِمَ من نعيم الدنيا، فلعله يظفر بنعيم الآخرة.[١]

هكذا نرى أن نشأةِ التصوف كانت نتيجةً لمجموعةٍ من العوامل، تفاعلـت وتكاملـت حتـى أثمرت هذا العلم، وليس من الطبيعي أن ينشأ هذا العلم دفعةً واحدةً، ولا أن تتكامل مسائله وقـضاياه ومناهجه في مدة قصيرة أو محددة، "بل شأنه شأن أي ظاهرة تنشأ وتنمو ولا يكاد يحس بهـا أحـد إلى أن تستوي على سوقها، فيلتفت إليها الناس محاولين رصد منابعها وبداياتها، وكل هذه محاولات تعتمد على الحدس والاجتهاد التقريبي أكثر من اعتمادها على الواقع العملي" [٢]

وإذا كان الزهد[٣] لبس ثوب الصوف، فهو إذاً يمثل البيئة الطبيعية التي نشأ فيها التصوف، يقول ابن الجوزي "الصوفية من جُملة الزُهاد، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحـوال وتوسمُوا بسمات .... والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي"[٤]

لذلك ينبغي عند دراسة نشأة التصوف الإلمام بالمرحلة السابقة عليه بصفتها تمهيداً ومقدمـة كان لها أثرٌ واضح في وجودِ التصوف.

وإذا كان الزهد بمثابة الأبُّ الشرعي للتصوف، فينبغي من معرفة العوامل والأسباب التـي أدت إلى وجوده في البيئة الإسلامية، والتي أهمها العامل الديني "ويقصد به ما كان للقرآن والـسنة النبوية من أثر في توجه المسلمين إلى الزهد في الدنيا والعزوف عن ملذاتها وعدم الاستغراق فـي متعها وشهواتها، والنظر إلى متاعها على أنه زائل وقليل "[٥] ولا شكّ أن القرآن ملئ بالآيات التـي تتحدث عن ذلك، وتلفت النظر إلى ضرورة الاهتمام بأمر الآخرة، منها قوله تعـالى: { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

---

[1] انظر: السبكي، معيد النعم، ص١١٩. مدكور، عبد الحليم عبد المنعم، لمحة عن التصوف عند المسلمين (نِشأته ومصادره وموقف المسلمين منه)، (مجلة المسلم المعاصر، تصدر عن مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد العالمي للفكـر الإسـلامي، العدد ٦٠، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ص١١٩-١٢٠.

[1] انظر: ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق، محمد الحافظ، (دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـــ،١٩٩٦م)، ص٤٢. الشرقاوي، محمد عبد الله، الصوفية والعقل، دراسة تحليلية مقارنة للغزالي، وابن رشد، وابن عربي، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص١٨.

[3] الزهد والزهاد في الدنيا، ولا يقال الزهد إلا في الدين خاصة، والزهد، ضد الدعة والحرص على الدنيا. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص١٩٦.

[4] ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٥٧.

[5] انظر: الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٢١٦. مدكور، لمحة عن التصوف، ص١١٥.

يَتَفَكَّرُونَ } (١) وقوله تعالى: { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ } (٢) وقوله تعالى: { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا } (٣)

وقوله تعالى: { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } (٤)

وجاءت السنة النبوية مليئةً بأقوالِ الرسول ﷺ التي يحُث فيها على الزهد والتقشف في الدنيا حيث يقول: "والذي نفسي بيده لو كانت الدُنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها قطـرةً أبدا"(٥)

وقال أيضا: "موضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولغُدوة في سبيل الله أو روحة خيرٌ من الدنيا وما فيها "(٦)

وسار جمهور الصحابة على هدى القرآن والسنة، فآثروا الزهد وارتضوا حياة التقشف والتواضع فهذا عثمان بن عفان على الرغم من غناه، إلا أن أمواله مبذولةً في الخير وتجهيز الجنود، ومعاونة الفقراء والمحتاجين، أما حياته الشخصية والأُسرية فلم يكن فيها سرف ولا تبذير، فقد وُصِفَ عثمان أنه "كان يُطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت"(٧) وهذا أبو الدرداء يُوصي زوجه قائلاً: "لا تسألي الناس شيئاً، قالت فان احتجت، قال: فإن احتجت فتتبعي الحصادين فانظري ما سقط منهم فاخبطيهِ ثمَ اطحنيه، ثم كُليه ولا تسألي الناس شيئاً"(٨)

وهكذا كان الزهد هو طابع الصحابة " قال بعض الصحابة لصدر التابعين "أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرا منكم، قيل ولم ذلك؟ قال: لأنهم كانوا أزهد في الدنيا"(٩)

---

(1) يونس، آية ٢٤.

(2) هود، آية ١٥-١٦.

(3) الإسراء، آية ١٨-١٩.

(4) الحديد، آية ٢٠.

(5) ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، جزءان، علق عليه، محمد عبد الباقي، (مطبعة دار إحياء الكتب العربية)، ج٢، ص١٣٧٧.

(6) البخاري، صحيح، ص١١٧٢.

(7) ابن حنبل، أحمد بن محمد، كتاب الزهد، راجعه، محمد بن عبد الحليم، (المغرب، مكتبة السلام الحديدية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص١٧١.

(8) المصدر نفسه، ص١٨٥.

(9) أبو طالب، قوت القلوب، ج١، ص٢٤٣.

وفي ضوء هذا يقول جولد تسيهر: "كان الإسلام في أول أمره تسوده فكرة اطـراح العـالم والزهد فيه... كما بعث في نفوس أولئك الذين اتبعوه، ميولاً واستعداداً للزهد والتقشف، فأصبح مـن شعار المسلمين ازدراء حُطام الدنيا، والتهوين من شأنها" [١]

وهناك عامل اخر يتمثل بالأوضاع السياسية، ويُقصد بها ما ترتب على الحرب التـي دارت بين المسلمين حول منصب الخلافة أو حول مسألة الإمامة، وهي حروب بدأت بالفتنة فـي أواخـر عهد عثمان وانتهت بمقتله[٢] ثم اشتد لهيبها في عهد علي وانقسم المسلمون إزاءها إلى فرق متناحرة بعضها مع علي وبعضها مع معاوية، وبعضها مع طلحة والزبير[٣]، وقد انقسم جيش علي بعد وقعة التحكيم، وظهر الخوارج[٤]، ورأى فريق من كبار الصحابة[٥] أن يعتزل هذه الطوائـف المتحاربـة فراراً من الفتنة وإيثاراً للسلامة، وطلباً للسكينة وخوفاً من التورط في قتل المسلمين، ولـزم هـؤلاء منازلهم ومساجدهم منعكفين على الذكر والعبادة، ولعلَّ هؤلاء مَثَّلوا اللبنةَ الأولـى للزهـادِ الـذينَ اعتزلوا الناس وضجيج الحياة وصخبها، وخلدوا إلى نوعٍ من العزلـةِ تورعـاً وهربـاً مـن ظلـمِ المسلمين، أو سفكِ دمائهم، وهم الذين أُطلقَ عليهم فيما بعدْ الصوفية، وَهكذا كانَ الزهـدُ ردَ فعـلٍ للانحرافِ عنْ حياةِ الصدرِ الأول، ومحاولةَ للتشبه بالسابقين.

يقول ابن خلدون[٦]: "وأصل - طريقة التصوف - العكوفَ على العبادةِ والانقطاعِ إلـى اللهِ تعالى، والإعراضِ عنْ زُخرفِ الدُنيا وزينَتُهَا، والزهدِ فيما يَقبل عليه الجمهور من لذةٍ ومالٍ وجـاهٍ،

---

(1) تسيهر، أجناس جولد، العقيدة والشريعة في الإسلام"، تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية، ترجمة، محمد يوسف موسى وآخرون، (بيروت، دار الرائد العربي، ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م)، ص١١٩.

(2) انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق، سهيل زكار - رياض زركلي، (بيروت، دار الفكر)، ج٦، ص٢٤٧٧-٢٤٩٧.

(3) ابن أعثم، أحمد بن أعثم الكوفي، الفتوح، ٣ أجزاء، تحقيق، سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٢/١٩٩١م)، ج٢، ص٨٩٣.

(4) الطبري، أبي جعفر محمد بـن جريـر، تـاريخ الأمـم والملـوك، ٦ أجـزاء، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ، ج٣، ص١٠٩.

(5) أمثال، أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وحسان بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، وآخرين، انظر: ابن أعثم، الفتوح، ج١، ص٨٨٣.

(6) هو عبد الرحمن الحضرمي، حفظ القرآن صغيراً، كان واسع الثقافة في الأدب والنحو والشعر، كما يعد العالم الأول في علم الاجتماع، توفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلدون، العبر، ج٧، ص٤١٥، حيث عرف ابـن خلدون بنفسه تعريفاً وافياً. السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص١٢٩. المقري التلمساني، الشيخ أحمد بن محمد، نفح الطيب من غض الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب"، ١٠ أجزاء، شرحه وضبطه، مريم قاسم الطويل، يوسف علي طويل، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ج٣، ص٢٦٧. مرغوليوث، دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة، حسين نصار، (القاهرة، دار الثقافة، ١٣٤٨/١٩٢٩م)، ص١٧٠. عنان، محمد عبدالله، ابن خلدون حياتـه وتراثه الفكري، (القاهرة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص١٥-٤٠. زكّار، مائة أوائل، ص١٨٧. عاصي، حسين، ابن خلدون، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص٧.

والانفرادُ عن الخلق في الخلوةِ للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابةِ والسلفِ، فلما فشا الإقبالُ على الدنيا في القرنِ الثاني وما بعده، وجنحَ الناسُ إلى مخالطةِ الدنيا اختصَ المقبلون على العبادةِ باسمِ الصوفية والمتصوفة[1].

لقد حرص الصوفيون بدقةٍ متناهيةٍ على العملِ بالقرآنِ والسنةِ وما كان عليه السلفُ الصالحُ.

قال أبو حامد الغزالي عنهم: "إن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم"، مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ". [٢]

وقال الجنيد: "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القران ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به".[٣]

وإذا كان التصوف يعود بأصوله الى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تذم الدنيا وتمتدح التائبين العابدين، فما بال المستشرقين أمثال ادم ميتز[٤] وجولد تسيهر وغيرهم، ذهبوا إلى أن الحياة الروحية في مختلف أقاليم الإسلام، قد اتصلت بعنصر خارجي[٥] "كأن الإسلام لم يأت أبدا، وكأن أبناءه لم يقوموا بدور ما على مسرح الروح، كأنَّ كل ما يتوقون إليه أن يتلمسوا المصدر الخارجي فيتلقفوه ويعيشوا في أضوائه، سواء كانت هذه الأضواء واضحة أو باهتة، زاهية أو معتمة، كأن لم يكن لهم قرآن يقرؤنه ويتعمقونه، وأحاديث في أعماق الزهد، ومناداة الروح، ومناجاة الإله يلجئون إليها، وكأن لم يكن بين صحابة نبيهم من ضربوا أعظم المثل في الزهد وكراهية الدنيا" [٦]، هذا القول يمثل أقوى رد على المستشرقين، أو على كل من يتأثر بأقوالهم وكتاباتهم.

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص٤٦٧، العبر، ج١، ص٥١٤.

[2] الغزالي، المنقذ، ص٥٠. العيدروس، تعريف الأحياء، ص١٢

[3] البغدادي، تاريخ، ج٧، ص٢٤٣. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٦٣. السبكي، معيد النعم، ص١٢١

[4] هو آدم ميتز، اهتم بالأدب العربي في القرن الرابع الهجري وما تلاه، له كتاب بعنوان "نهضة الإسلام" الذي ترجم إلى عدة لغات منها العربية بعنوان "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"، توفى سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، انظر: حمدان، عبد الحميد صالح طبقات المستشرقين، (مصر، مكتبة مدبولي)، ص١٩٨. العقيقي، نجيب، المستشرقون، موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم منذ ألف عام وحتى اليوم، ٣ أجزاء، (القاهرة، دار المعارف)، ج٣، ص١٤٤.

[5] يقصد بالعنصر الخارجي الفلسفة اليونانية، الديانة المسيحية، والعقيدة البوذية، حجتهم في ذلك أن بلاد الشام كانت تموج بالجنسية اليونانية، وأصحاب الديانة المسيحية، والهنود قبل الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وعنهم نقل المسلمون حضارتهم وحياتهم الروحية، انظر: قاسم، عبد الحكيم عبد المنعم، المذاهب الصوفية ومدارسها، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص١٥٩.

[6] النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ٣ أجزاء، (مصر، دار المعارف، ط٤، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ج٣، ص١٥٧.

تطور الحركة الصوفية

على الرغم أنه من الصعوبة بمكان تحديد فواصل زمنية، بين حركتي الزهد والتصوف في الإسلام - لأن التطورات الفكرية لا تخضع بطبيعتها للتحديد الزمني الصارم - إلا أن القرن الثالث الهجري شهد تحولاً واضحاً، ولم يعد الزُهاد فيه يسمون بهذا الاسم، وإنما عرفوا بالصوفية"[١]، لكونه مثَّل البنية الحقيقية لعلمِ التصوف بمعناه الدقيق، حيث بلغ فيه التصوف مرحلة النضوج ومقاربة الكمال، فهو بحق قرن التدوين لأشهر وأهم المدونات الصوفية، التي بين أيدينا اليوم، وليس بمستغرب أن يذهب الباحث إبراهيم بسيوني في كتابه "نشأة التصوف الإسلامي" إلى القول: "بأن الصوفية في هذا القرن قد خلَّفوا تراثاً كاملاً للتصوف في جانبه النظري والعملي، بحيث لم يتركوا للأجيال القادمة إلا الشروح والتأويلات"[٢] وفي هذا يقول ابن خلدون: "فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله، والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من هذه الطريقة في طريقتهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الإقتداء في الأخذ والترك.... وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً"[٣]

ولقد تميز تصوف هذا القرن بملامح أهمها:

أُعطى التفكر والتدبر وإمعان النظر أهميةً كبيرة أكثر من القيام بالرياضيات الشاقة، الخشنة، التي كان يعُدها صوفية القرن الثاني طريقاً للنجاة، مثل إبراهيم بن أدهم[٤]، ورابعة العدوية[٥] وأمثالهما، وأصبح الزهد وترك الدنيا وسيلة لا غاية، ومقدمة لبلوغ غرض أسمى وأعلى، فالناحية النظرية للتصوف صارت أكثر أهمية من الناحية العملية في هذا العصر."[٦]

---

[1] انظر: الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٢٢٨. التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، (القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م)، ص٩٥. Chittick, Centurysufi Texts, p.166.

[2] المحاسبي، أبو عبد الملك الحارث بن أسد المحاسبي البصري، رسالة المسترشدين، تحقيق، عبد الفتاح أبو غدة، (القاهرة، مطبعة دار السلام، ط٤، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، مقدمة المحقق، ص١٤. الشرقاوي، الصوفية والعقل، ص٢٩.

[3] ابن خلدون، المقدمة، ص٤٦٩.

[4] هو ابراهيم بن ادهم، يكنى ابو اسحاق، قيل أنه من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم، توفى سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج٣، ص٣٨٢.ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٣١. عويضة، كامل محمد محمد، إبراهيم بن أدهم الأمير الزاهد، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص٧. الحفني، الموسوعة الصوفية، ص١٦. الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية، (القاهرة، دار الرشاد، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص١٦.

[5] هي رابعة العدوية، ام الخير، ابنة اسماعيل البصرية، الصالحة المشهورة، توفيت، سنه ١٣٥هـ/٧٥٢م، انظر، ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص٢٥٨. ابن العماد، شذرات، ج١، ص١٩٠. عبد الرازق، سعاد علي، رابعة العدوية بين الغناء والبكاء، (مصر، مكتبة الانجلو المصرية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م)، ص٢١٨.

[6] انظر: أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص١٥. غني، تاريخ التصوف، ص٨١.

اعتنى صوفية القرن الثالث بالكلام في دقائق أحوال النفس والسلوك، وغلب عليهم الطـابع الأخلاقي في علمهم وعملهم(١) واهتموا اهتمامًا كبيراً بمحاسبة النفس، يُلاحظ ذلك في أقوال الحارث بن أسد المحاسبي(٢) الذي يقول: "حاسب نفسك في كل خطوة، وراقب الله في كل نفس، وخـف الله في دينك، وأرجه في جميع أمورك، واصبر على ما أصابك، واعلم أن الصبر من الإيمـان بمنزلـة الرأس من الجسد، وإذا سمعت كلمة تغضبك في عرضك فاعف واصـفح، وراع همـك، واشـتغل بإصلاح نفسك عن عيب غيرك، واستعمل لله عقلك بترك التدبير، واسـتعن بـالله علـى صـرف المقادير.... واعلم أنك لن تجد طعم الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، وكن بالحق عاملاً يزدك الله نوراً وبصيرة" (٣)

كما عرف صوفية القرن الثالث الهجري نظام الحلقات والاجتماعات، التـي كانـت تعقد لإعطاء الدروس في المساجد(٤)،ثم أخذوا ينتظمون في طوائف وطرق، لكل طريقـة نظامهـا الخاص الذي يلتزم به أفرادها، وكان قوام هذه الطرق جماعة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يوجههم ويبصرهم على الوجه الذي يحقق لهم كمال العلم والعمل(٥)، ومـن أوائـل هـذه الطـرق: السقطية.... نسبة إلى السرى السقطي(٦) والجنيدية(٧) نسبة إلى الجنيد والنورية(٨) نـسبة إلـى أبـي الحسين النوري.

من البديهي أنه كان لهذه الطرق دور فعال في نشر الفكر الصوفي بـين أتبـاعهم وأفـراد المجتمع من حولهم. حيث أصبحوا طبقة اجتماعية لها طقوس وأنظمة ومهام سياسـية واجتماعيـة وعلمية لها الحكم بين الأفراد والجماعات التي تعيش بينهم.(٩)

كما تميزت صوفية القرن الثالث الهجري بتمسكها بالقرآن والـسنة، فالجنيـد وهـو سـيد الطائفة، ومن أئمة هذا القرن يحث على البدء بتعلم القرآن والسنة قبل الخوض في التصوف حيـث يقول: "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفـظ الكتـاب ويكتـب الحـديث ولـم يتفقـه لا يقتدى به."(١٠) .

---

(1) انظر: المحاسبي، رسالة المسترشدين، ص٤٦. التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص١٧.

(2) سبق ترجمته.

(3) المحاسبي، رسالة المسترشدين، ص٤٦-٦٢.

(4) دائرة المعارف الاسلامية، ١٥ جزء، صدرت بالألمانية والإنجليزية والفرنسية، ترجمة، إبراهيم الشناوي، إبراهيم خورشيد، ج٥، ص٢٦٨.

(5) انظر: زروق، قواعد التصوف، ص٥٥. التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص١٨. جاد الله، التصوف في مصر والمغرب ص١٢٥. Jackson and others, The Hundred letters, P. 37

(6) هو المغلس بن سري السقطي، خال الجنيد وأستاذه، وهو الزاهد العابد العارف بالله، توفي سنة ٢٥٣ هـ/٨٦٧م، للمزيـد عن ترجمته، انظر: أبو نعيم، الحلية، ج١٠، ص١١٦. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٦٤٠. الذهبي، العبـر،ج١، ص٣٦٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص٤.

(7) سبق تعريفه.

(8) سبق تعريفه.

(9) Berkey, The Fromation of Islam, p.245.

(10) انظر: البغدادي، تاريخ، ج٧، ص٢٤٣. السبكي معيد النعم، ص١٢١.

وكان يقول "علمنا هذا - يعني التصوف - مشبك بحديث رسول الله ﷺ"[١].

وسُئل الجنيد عن التصوف فقال "تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعة، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، وإتباع الرسول ﷺ في الشريعة" [٢] هذه الصفات التي ذكرها الجنيد هي من صميم الدين، وفي حدود القرآن والسنه وإذا التزم هذا الفريق بالكتاب والسنة وعمل بها، فهناك فريق آخر من صوفية القرن الثالث الهجري، قد شطحوا [٣] بأقوالهم وأفعالهم وخرجوا عن ظاهر الشرع، أمثال أبي يزيد البسطامى [٤] الذي شاع في كلام الناس قوله: "رفعني ربي مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحاديتك حتى اذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا." [٥]

ومن الصوفية الذين كانت لهم شطحات في آرائهم الحلاج [٦]، القائل بنظرية الحلول. يقول الشيبي: "وقد صار الحلاج علماً على وحدة الشهود[٧]، وإن كان المصنفون نسبوه إلى الحلول

---

[1] البغدادي، تاريخ، ج٧، ص٢٤٣.

[2] الكلاباذي، التعرف، ص٢٠.

[3] الشطح، عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة، ودعوى تصدر من أهل المعرفة، باضطرار واضطراب، الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، ص١٤٠.

[4] هو طيفور بن عيسى بن سروشان، وكان جده سروشان مجوسياً فأسلم، يقول عنه اليافعي: الشيخ الكبير الولي الشهير العارف بالله صاحب المقام العالي توفى سنة٢٦١هـ/٨٧٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٣، ص٣٥٥. الذهبي، سير أعلام، ج١٠، ص٤٨٣. الذهبي، ميزان، ج٣، ص٤٧٤. اليافعي، مرآة الجنان، ج٢، ص١٢٨. ابن حجر، لسان، ج٣، ص٢٥٥. هنري، تاريخ الفلسفة، ص٢٨٨

[5] الطوسي، اللمع، ص٣٢٦.

[6] هو الحسين بن منصور الحلاج، يكنى أبي مغيث، كان جده مجوسيا، تلقى تعليمه وهو صغير على يد الشيخ الصوفي الشهير سهل التستري، كما تعرف الحلاج على الجنيد وأخذ عنه بعض التعاليم الصوفية وألبسه الجنيد الخرقة بيده، إلا أن الحلاج عاد فقطع علاقته مع الجنيد وغالبية أساتذة الصوفية بعد عودته من الحج، أهم ما تميز به في هذه الفترة إختلافه المتزايد مع الفقهاء وأهل السنة ت٣٠٩هـ- ٩٢٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: البغدادي، تاريخ، ج٨، ص١١٢. السلمي، طبقات الصوفية، ص٣٠٧. ألفا، أعلام الفلسفة، ج١، ص٤٠٤.

[7] وحدة الشهود، أن يوحد بين الناس جميعاً، ووحدة الشهود تعتبر قالباً لفكرة التوحيد عند الحلاج، انظر: زيادة، الموسوعة الفلسفية، ج٢، ص١٥١٥. زيادة، معين، الموسوعة الفلسفية، جزءان، (معهد الإنماء العربي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ج٢، ص١٥١٧. ستيس، ولتر، التصوف والفلسفة، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص٢٥٨. الشيبي، كامل مصطفى صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، (بيروت، دار المناهل، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص١٤٦.

وقد كانت هذه الفكرة أبرز ما قدمه التصوف في القرن الثالث الهجري حتى أن أبا بكر الشبلي وقد كان صديقاً للحلاج وزميلاً له قال: "كنت أنا والحلاج شيئاً واحداً إلا أنه أباح وكتمت."[١]

يقول ابن تيمية[٢] عن الصوفية أمثال الحلاج: "وقد انتسبت إليهم طوائف من أهل البدع[٣] والزندقة[٤]، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلا، فإن أكثر مشايخ الطرق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره"[٥]

هكذا كان صوفية القرن الثالث الهجري أحدهما سني يتقيد بالكتاب والسنة، والآخر شبه فلسفي ينزع أصحابه إلى الشطحات وينطق بالاتحاد والحلول.

أما صوفية القرن الرابع الهجري، فقد انقسموا أيضاً إلى قسمين، الأول سني متمسك بالقرآن والسنة، مقتدٍ بالرسول ﷺ وصحابته الكرام، على رأسه أئمة في التصوف، أمثال، أبو نصر الطوسي، وأبو القاسم القشيري"، وأبو طالب المكي وآخرون، مع مساندة أهل السنة والجماعة لهم. أما الثاني فهو شبه فلسفي، وجد له أنصار من أتباع الحلاج والشبلي وآخرين، مع مساندة أتباع المذهب الشيعي لهم، وبينما سلم التصوف الأول من التأثيرات غير الإسلامية، نجد التصوف الثاني قد خضع لتأثيرات أجنبية.[٦]

ونتج عن هذا الانقسام حملة تأليف واسعة لكلا الطرفين، كُلٌ يُدافع عن وجهة نَظِره، وفي هذا يقول شاخت[٧]: "وشهد القرن الرابع ازدهار المؤلفات الإسلامية في التصوف، مثل مؤلفات

---

[1] انظر: ستيس، التصوف والفلسفة، ص٢٥٨. الشيبي، صفحات مكثفة، ص١٤٠-١٤١.

[2] هو أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ثم الحنبلي، برع في التفسير والحديث والاختلاف، وكان يتوقد ذكاءً، بلغت مصنفاته أكثر من مائتي مجلد، توفى سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٤، ص٨٤. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٨٨. حسين، احمد، المائة الاعظم في تاريخ الإسلام، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ، ص٢٢١. عويضة، تقي الدين أحمد بن تيمية، شيخ الإسلام، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٥.

[3] أصل البدع، هم من أحدثوا في الدين بعد الإكمال، ابن منظور، لسان لعرب، ج٨، ص٦.

[4] الزنادقة: هم القائلين ببقاء الدهر، وهم لا يؤمنون بالآخرة ووحدانية الخالق، وكان يتهم بالزندقة كل من ينقد وحدانية الله أو ينقد النبوة أو من يترك فراض الشريعة الأساسية كالصلاة والصوم والحج، أو يقف موقف عصيان لما هو مألوف، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٤٧. الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون ج، ٣ ص١١٧. الموسوعة الفلسفية، ج١، ص٤٦٨-٤٦٩.

[5] ابن تيمية، مجموعة الفتاوي، ج١١، ص١٤. التصوف والصوفية ص٢١.

[6] انظر: زروق، قواعد التصوف، ص٣٧. ألفا، أعلام الفلسفة، ج١، ص٤٠٤. ريان، محمد علي، الحركة الصوفية في الإسلام، (الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص٦٤.

[7] هو شاخت، ألماني الجنسية، متخصص في الفقه الإسلامي، درس اللاهوت واللغات الشرعية، حصل على الدكتوراه سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م، توفى سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، انظر: حمدان، طبقات المستشرقين، ص١٥١. العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٤٦٩.

السراج الطوسي ت،٣٧٨هـ/٩٨٨م، والكلاباذي ت،٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، وأبو طالب المكي ت،٣٨٦هـ/٩٩٦م"[١] وغيرهم.

كان ثمرة هذه المؤلفات، ونشاط أئمة التصوف السني وتحمسهم في نشر فكرتهم، أن أقبل الناس من مختلف طبقات الأمة الإسلامية على التصوف، يستوي في ذلك الطبقات الشعبية، وشيوخ العلم، ورجال الحكم[٢] فبنيت الزوايا، والربط والخانقاهات الخاصة بالصوفية، ولأهمية هذه البيوت في حياة الصوفية وأثرها البارز في المجتمع الشامي، كان لا بد من معرفتها، والتعريف بها ومعرفة أصلها اللغوي والاصطلاحي.

الزاوية لغــةً:

الزاوية، واحدة الزوايا، وزوى الشيء، جمعه وقبضه، وزاوية البيت، اسم فاعل من ذلك، لأنها جمعت شطراً منه[٣]، وانزوى القوم بعضهم إلي بعض، اذا تدانوا، وتضاموا[٤]

أما اصطلاحــاً:

فهى عبارة عن مسجد صغير، وتطلق أيضاً على المصلى، وقيل هي عبارة عن غرفة للصلاة بها محراب وضريح لأحد الأولياء، تعلوه قبة، وهى من منشآت الصوفية، يعتزل فيها الشيخ، ويعيش وسط تلاميذه ومريديه[٥].

والرباط لغةً: من ربط الشيء يربطه ربطاً، والجمع ربط[٦].

واصطلاحاً:

هو الدار التي يسكنها أهل طريق الله [الصوفية] و هو زاوية إسلامية محصنة، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو[٧] وأصل الرباط، ما تربط الخيول به، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن

---

[1] شاخت وبوزورت، تراث الإسلام، جزءان، ترجمة، حسين مؤنس وآخرين، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج٢، ص٢٣٩.

[2] مصطفى، شاكر، آل قدامة والصالحية، مجلة الحضارة الإسلامية، حوليات كلية الآداب، الكويت، كلية الآداب جامعة (الكويت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)، ص ٧٢. Berkey, The Formation of Islamm, p. 245.

[3] انظر: الرازى مختار الصحاح، ص ١٦٠. المقرئ، المصباح المنير ص ١٨٥. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين، جزءان، (دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩)، ج ١، ص ٣٣١. غالب، موسوعة العمارة الاسلامية، ص ٢١١.

[4] ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٣٦٤.

[5] النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج ١، ص ١٩٥.كرد على، خطط الشام، ج ٦، ص ١٣٦. دائرة المعارف الاسلامية، ج ١٠، ص ٢٣١-٢٣٢.

[6] الرازى مختار الصحاح، ص ١٣٥. المقرئ، المصباح المنير، ص١٣٢. ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص٣٠٢.

[7] المقريزى، الخطط، ج ٢، ص ٤٢٧. دائرة المعارف الاسلامية، ج ١٠، ص ١٩.

وراءهم رباط؟ فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه والمقيم فى الرباط على طاعـــة الله، يـــدفع بـــه وبدعائه البلاء عن البلاد والعباد.[١]

الخانقاهات، [الخوانك]:

أما تعريف الخوانك لغة: فهي كلمة فارسية معناها بيت، و قيل أصلها خونقاة، أى الموضـــع الذى يأكل فيه الملك، والخانقة تأنيث الخانق، والخانق، هو الشعب الضيق، وأهـــل الـــيمن يـــسمون الزقاق خانق[٢].

اصطلاحا: مكان يشبه المسجد يختلي فيه الصوفية للعبادة، وقد حدثت في الإسلام في حدود القـــرن الرابع الهجري، وخصصت للصوفية يتعبدون فيها.[٣]

وهذه المباني والعمائر أصبحت أماكن لاجتماع الصوفية بعد أن كانت اجتماعاتهم وجلساتهم تُعقد في دور المشايخ والمساجد[٤] وفي ذلك يقول أحد الكتاب[٥] "ما إن دخل القرن الرابع الهجـــري حتى باتت لهم مبانٍ خاصة يقطنها أفراد الجماعة الصوفية، ويحل بها الغربـــاء، وعـــابرو الـــسبيل فيجدون فيها الإيواء والطعام، وعرفت هذه الدور بالتكايا أو الزاويا أو الربط، أو الخانقاهات، وهـــي في العادة، عبارة عن أرض، وضِياع ملحقة بدور الصوفية، أوقفها حاكم، أو ثري وينفق من ريعهـــا على المتصوفة."[٦]

إلا أن هذا الإقبال الشديد على التصوف، فتح باباً واسعاً لدخول البـــدع والخرافـــات إليـــه وتميزت كل جماعة بخصائص معينة.

فذكر الطُوسي فرقاً كثيرة منها "ما تعلقت بالتقشف والتقلل، واعتادوا الـــدون مـــن اللبـــاس، والقليل من القوت، وظنُوا أن كل من رفق بنفسه أو تناول شيئاً من المباحات، أو أكـــل شـــيئا مـــن الطيبات، كان ذلك عِلَّة وسُقوط من المنزلة"[٧] ويقول عن أخرى: "ثم إن طبقة من الصوفية غلطـــت في العبادات والمجاهدات ورياضات النفس ..... فلما طالت المدة ولم يصلوا إلى مـــرادهم كـــسلوا،

---

[1] السهروردى، عوارف المعارف، ص ٨١.

[2] الجوهري، الصحاح، ج٢، ص١١٢١. الزبيدي، تاج العروس، ج١٣، ص١٣٠. المقريزى، الخطط، ج ٢، ص ٤١٤.كرد على، خطط الشام ج ٦، ص ١٣٠. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٢٦٠.

[3] المقريزى، الخطط، ج ٢، ص ٤١٤.

[4] Berkey, The Formation of Islam, p.245. السبكي، معيد النعم، ص١٢٥.الزبيدي، تاج العروس، ج١٣، ص١٣٠

[5] عمار علي حسن، صاحب كتاب الصوفية والسياسة.

[6] انظر: السبكي، معيد النعم، ص١٢٧. حسن، الصوفية والسياسة، ص٦٥.

[7] الطوسي، اللمع، ص ٣٦٦. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٦٩-١٧١. الحفني، الموسوعة الصوفية، ص٨.

فإذا دعاهم داعي العلم إلى المجاهدة والعبادة، ورياضة النفس، فلا يقام لذلك عندهم وزن" [1] أي لا يهتموا بالعبادات وترويض النفس على تحمل المشاق.

وفرقة تعتقد بالإباحة، "وإن الأشياء في الأصل مباحة"[2] متأولين قول الله عزوجل: "فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهةً وأباً، متاعاً لكم ولأنعامكم"[3]

ولقد عدد الطوسي فرقا كثيرة كلها وقعت في المحظور الشرعي أو جانبت الشرع كليةً كالقائلين بالغناء والحلول والاتحاد.

كما كان من أهم مميزات صوفية القرن الرابع الهجري شيوع الكسل بين أتباعهم متأولين لمعنى التوكل معاني كلها فاسدة، تفضي إلى الكسل وعدم العمل.

ولقد امتلأت مصنفات هذا القرن بالحث على فضيلة التوكل، فمثلاً الشيخ الصوفي أبو طالب المكي، قد جعل التوكل من أعلى مقامات اليقين، ومن أقواله في ذلك: "من كان الله تعالى كافيه، فهو شافيه ومعافيه، ولايسأل عما هو فيه"[4] وقال أيضاً: "لو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لأدركه"[5]

وكان وهيب بن ورد المكي[6] يقول: "لو كانت السماء نحاساً، والأرض رصاصاً ثم أوليت رزقي اهتماماً لظننت أني مشرك"[7]

وكذلك القشيري حشد في كتابه المسمى بالرسالة القشيرية الكثير من الأقوال التي تحث على التوكل منها: "التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، ولايكون له حركة ولاتدبير".

وقيل: "التوكل هو الاعتصام بالله تعالى"، وقيل: "هو الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد"[8]

وهذه الآثار كان من شأنها إشاعة الكسل وإهمال العمل ومن ثم أدت إلى تدهور التصوف، يؤكد ذلك قول أبي محمد سهل التستري ت٣٧٣هـ/٩٨٣م: "بعد سنة ثلاثمائة، لايُحلُّ [لأحد] أن يتكلم بعلمنا هذا، لأنه - أي الصوفي الحق - يتحدث لقوم يتصنعون للخلق ويتزينون بالكلام،

---

(1) الطوسي، اللمع، ص٣٦٧.

(2) الطوسي، اللمع، ص٣٧٦. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص٢٥٥.

(3) عبس، الآيات ٢٧-٣٢.

(4) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص ٢.

(5) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص٧. الغزالي، الإحياء، ج٤، ٢٦٧.

(6) هو وهيب بن ورد العابد، صاحب المواعظ والرقائق، توفي سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج٧، ص١٥٢، والعبر،ج١، ص٢٠٤.

(7) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص٩.

(8) القشيري، الرسالة، ص٩٢. الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٢٦١.

ومعبودهم بطونهم "[١] وقال أبو سعيد الأعرابي: "آخر من تكلم في هذا العلم، صاحبنا جنيد القواريري، وكانت له بصيرة فيه وحقيقة وحسن عبارة، وما بقى بعده إلا من مجالسته غيظ "[٢].

تدل هذه الأقوال على انحدار التصوف في القرن الرابع الهجري، وهذا ما دفع أبو القاسم القشيري إلى تأليف كتابه المشهور بالرسالة القشيرية حيث يقول فيه: "اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحي غير نسائها.

حصلت الفترة[٣] في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة ومضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقلَّ الذين كان لهم بسيرهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة". [٤]

وهذا كان من شأنه أن يُثير الخلاف بين الفقهاء والصوفية، وتجلَّى ذلك بكل وضوح بعد مقتل الحلاج سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م مما أتاح الفرصة لأعداء الصوفية من فقهاء وغيرهم "الإساءة للحركة الصوفية وتقبيح وجهها في العالم الإسلامي[٥]، فنهض عدد من معتنقي التصوف لتحسين صورة مذهبهم مظهرين تمسكهم بالشريعة ومستهجنين أغلاط المخطئين من المتصوفة وكتبوا في ذلك، فظهر كتاب "اللمع" للطوسي توفى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٩م، والتعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي[٦]، ٣٨٠هـ/٩٩٠م، وتطورت جهودهم إلى محاولات للتوفيق بين أهل الفقه والتصوف يقول الطوسي في ذلك: "إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع بين معنيين الرواية والدراية، فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرد القول في العلم، أنه ظاهر أو باطن، لأن العلم متي كان في القلب فهو باطن فيه، إلى أن يجري

---

(1) أبو طالب، قوت القلوب، ج ا، ص١٦٢.

(2) المصدر نفسه، ص١٦٢.

(3) فتر عن العمل فتوراً من باب قعد، أي انكسر حدته، ولان بعد شدته، انظر: المقرئ، المصباح المنير، ص٢٧٤.

(4) القشيري، الرسالة، ص٣-٤.

(5) Berkey, The Formation of Islam, p.245.

(6) الكلاباذي، هو العلامة تاج الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق، الحفني البخاري، أطلق عليه تاج الإسلام لعلمه وفضله، كان من علماء الصوفية، له كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، جمع فيه مذهبهم وأحوالهم وعرف طريقتهم واسمهم ومعتقداتهم، لم يكتب عن التصوف إلا من بعد أن عاشر القوم واستمع إلى علمائهم وسادتهم وقيل عن كتابه، لولا التعرف لما عرف التصوف، توفى سنة٣٨٠هـ/٩٩٠م، انظر: ترجمته في مقدمة كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٣. الحفني، الموسوعة الصوفية، ص٣٣٨.

ويظهر على اللسان، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر"[١] والشريعة تشمل علم العقائد، وعلم الفقه، وعلم التصوف، إلا أنها انفصلت عن بعضها البعض منذ القرن الثالث للهجرة، نتيجة التخصص العلمي الدقيق، فسار كل علم في مساره الخاص، على قواعد ومناهج خاصة، وتميز عن غيره بموضوعه ومنهجه، وغايته، أما قبل ذلك فكان اسم الفقه يطلق على الاعتقادات والأخلاق.[٢]

ومن هنا ندخل إلى القرن الخامس، الذي عايش أبرز وأنجح محاولة للتوفيق التي كانت على يد الإمام الغزالي، الذي اسس قواعد التصوف السني، الذي يعني بالجانب الخلقي التربوي، ورفض أنواع التصوف الأخرى، كتصوف الحلاج والبسطامي، وحدد قواعد التصوف في دقة منهجية، ووضع آدابه العملية في صورة مفصلة، ولا نجد لهذا كله مثيلاً عند من تقدمه حيث جعله علماً بمعنى الكلمة[٣] وكانت المساهمة الأساسية التي قدمها الغزالي أنه نجح في أن يجعل التصوف جزءاً من الدين ومقبولاً لدى العلماء بالإضافة إلى كل العناصر العاطفية التي أمدت التصوف بالحياة. [٤]

فلم يقبل من التصوف إلا ما كان متمشياً مع الكتاب والسنة، ورامياً إلى الزهد والتقشف، وتهذيب النفس، وإصلاح أخلاقها..... وحمل على مذاهب الفلاسفة والمعتزلة والباطنية وازداد نفوذ التصوف السني في العالم الإسلامي بفضل عظم شخصية الغزالي. [٥]، واختفى الاتجاه الفلسفي بسبب نشاط أئمة التصوف العظام الذين تكاثفت جهودهم مع الإمام الغزالي، أمثال الشيخ أبو القاسم القشيري، ت٤٦٥-١٠٧٢ الذي يقول عنه صاحب دمية القصر: "أنه جامع لأنواع المحاسن، لو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب، ولو ارتبط إبليس في مجلس تذكيره لتاب."[٦]
وبهؤلاء الأئمة العلماء، تم إرجاع التصوف إلى حظيرة الكتاب والسنة، وأصبح مُكملاً للشريعة وليس معارضاً لها، "ورضي كثير من الفقهاء عن التصوف وكثير من المتصوفة عن الفقهاء."[٧]

وإذا كانت مجهودات الإمام الغزالي دحضت وفندت وكشفت معايب الفلسفة والتشيع وادت إلى تعانق الفقه والتصوف كان حرّى بنا دراسة هذه الشخصية العظيمة.

---

(1) الطوسي، اللمع، ص٢٥.

(2) زروق، قواعد التصوف، ص٣٣. التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص١٦.

(3) الغزالي الإحياء، ج١، ص٧١. التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص١٦.

(4) قنواتي، تراث الإسلام، ج٢، ص٧٣. Berkey, The Formation of Islam, p.245

(5) الغزالي، المنقذ، ص٢٥. التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص١٨.

(6) الباخرزي، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب، دمية القصر وعُصرة أهل القصر، ٣ أجزاء، تحقيق، محمد التونجي، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م). ج٢، ص٩٩٣.

(7) انظر: زروق، قواعد التصوف، ص٣٥. أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ٤ أجزاء، (مصر، مكتبة النهضة المصرية، ط٥، ١٤٠٣/١٩٨٢م)، ج٤، ص١٦٧.

الغـــزالي[١] ودوره في تطور الحركة الصوفية

أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، لقبه حجة الإسلام زين الدين الطوسي[٢] الفقيــه الشافعي، لم يكن في الطائفة الشافعية في آخر عصره مثله[٣] جامع لأشتات العلوم، والمبــرز فــي المنقول منها والمفهوم[٤]، ولد سنة ٤٥٠ هــ /١٠٥٨ م وتفقه على أبي المعالي الجويني[٥]، وصنف الكتب، أتى مجلس وزير الدولة السلجوقية نظام الملك[٦] ٤٧٨ هــ/ ١٠٨٥ م ووقع له القبول عنــد الوزير، فعينه مدرساً في نظامية بغداد، وحضر دروسه الأئمة الكبار، ونقلوا كلامه في مــصنفاتهم، إلا أنه ترك التدريس والرياسة ولبس الصوف، وحجَّ ثم رحل إلى الشام وأقام ببيت المقدس ودمشق، وأخذ في تصنيف كتاب الإحياء في القدس ثم أتمه بدمشق[٧] وتناول فيه شتى العلوم، فهو بلا ريــب أحد أعلام الفكر الإسلامي والإنساني بوجه عام.

تعددت جوانب معرفته، فشملت علوم عصره من فقه وأصول ومنطق، وفلسفة، وعلم كلام، وتصوف وأخلاق، وصنف في كل منها تصانيف تشهد له بالعمق والأصالة وطول الباع.[٨]

---

(1) الغزالي، بفتح العين المعجمة، وتشديد الزاي، نسبة إلى الغزَّال، على عادة أهل خوارزم وجرجان، فــإنهم ينــسبون إلــى القصار القصاري، والى العطار العطاري، وقيل أن حرف الزاي مخففة نسبة إلى غزاله وهي قرية من قرى طوس. انظر: السمعاني، الأنساب، ج٤، ص٢٥٩. ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٩٨. كوب، عبد الحسين رزين، الفرار من المدرســة- دراسة في حياة وفكر أبو حامد الغزالي- (بيروت، دار الروضة، ط١، ١٤١٢م/١٩٩٢م). شمس الدين، أحمد، الغزالــي، حياته، آثاره، فلسفته، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هــ/١٩٩٠م)، ص١٣. حسين ، المائة الأعظم، ص١٧٣. زكَّار، مائة أوائل، ص٢٣٤.ألفا، أعلام الفلسفة، ج١، ص٩٣.

(2) طوس، مدينة بخرسان، فتحت أيام عثمان بن عفان. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٢٧٢.

(3) ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص٢١٦. الصفدي، الوافي، ج١، ص٢١١.

(4) السبكي، طبقات، ج٦، ص١٩١.

(5) هو عبد الملك بن أبي محمد، المشهور بإمام الحرمين، وهو أحد الأئمــة الأعــلام مــن أذكيــاء العــالم، تــوفى ســنة ٤٧٨هــ/١٠٨٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السمعاني، الأنساب، ج٢، ص١٦١. الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٣٩. السبكي، طبقات، ج٥، ص١٦٥. ألفا، أعلام الفلسفة، ج١، ص٣٩٠.

(6) هو أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي، وزير الدولة السلجوقية، كان مجلسه دائماً عامراً بالفقهاء والصوفية، توفى ســنة ٤٨٥هــ/١٠٩٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: السمعاني، الأنساب، ج٣، ص٣٧٣.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١١٤. الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٨٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٧٤. ابــن الغزي، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن، ديوان الإسلام، ٤ أجزاء، تحقيق، سيد كــسروي، (بيــروت، دار الكتب العلمية، "١، ١٤١١هــ/١٩٩٠م)ج٣، ص٣٧٦.

(8) انظر: الذهبي، سير أعلام، ج٤، ص٢٢٢. القرضاوي، يوسف، الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، (القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٥هــ/٢٠٠٤م)، ص١٧. كوثراني، وجيه، الفقيه والسلطان، (بيروت، دار الراشد، ط١، ١٤١٠هــ/ ١٩٨٩م)، ص٣١.

ويذكر لنا الغزالي احاطته بعلوم عصره قائلاً: "وانحصرت أصناف العلوم عندي في أربع فرق: وهي: -

١– **المتكلمون**: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

٢– **الباطنيـــة**: وهم يدعون أنهم أصحاب التعليم ومخصوصون في الاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ - **الفلاسفـــة**: وهم يزعُمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤– **الصوفيـــة**: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة. [١]

ولقد درس الغزالي أفكار وتعاليم ومبادئ هذه الطرق باستقصاء قائلاً: "ابتدأت بعلم الكـــلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعليمات الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية"[٢]
والدارس لعصر الغزالي يُلاحظ تعدد الفرق والنحل والمدارس العقلية والاتجاهات الفكرية والدينيـــة داخل الساحة الإسلامية، ويتبين له الدور الفعَّال والخدمة المميزة التي قدمها للفكر الإسلامي حيـــث كانت الأمة الإسلامية مصابة بما يُشبه الهزيمة العقلية والنفسية أمام النحل المنشقة، والفرق الهدامة، والفلسفات الوافدة، وكان الميدان بحاجة إلى فارس مدرب يعرف كيف يقاتل في حلبة الفكر، اعترف بذلك القدماء والمعاصرون[٣]

من القدماء يقول السبكي[4]: "جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيف، حتى أصبح الـــدين وثيق العرا، وانكشفت غياهب الشبهات" [٥].

ومن المعاصرين أبو الحسن الندوي الذي يقول: "كان العالم الإسلامي في القـــرن الخـــامس الهجري - وقد تكاثفت على إضعافه الفلاسفة والباطنية، وأحدثتا تفكيراً يجره إلى الإلحاد في العقيدة والتدهور في الأخلاق، والاضطراب في السياسة، - في حاجة ملحة إلى شخصية قوية تـــرد إليـــه الإيمان بالعقيدة، والاعتماد على مصادر الدين الأصلية، والاستقامة في الأخـــلاق، وينـــتج الإنتـــاج الجديد الذي تكسد معه سوق الباطنية والفلاسفة [٦]ثم يعقب قائلاً: "ولقد رزق العالم الإسلامي هـــذه الشخصية الفذة في منتصف القرن الخامس الهجري، هي شخصية الإمام الغزالي."[٧]

---

[1] الغزالي، المنقذ، ص٢٥.

[2] المصدر نفسه، ص٢٥.

[١] السبكي، طبقات، ج٦، ص١٩٢. القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص٢٨.

[4] هو محمد بن محمد بن عبد اللطيف، ولد في القاهرة، مهر في عدة فنون، وكانت له همة عالية مع الذكاء والفهم، كان حسن الخطابة، ذهب إلى القدس، فمات فيها سنة ٧٧١ هـــ /١٣٦٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص١١٧. ابن العماد، شذرات، ج٦، ص٢٢٢.

[5] السبكي، طبقات، ج٦، ص١٩٣.

[6]الندوي، ابو الحسن على الحسيني، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، جزءان، (دمشق، دار ابن كثير للنشر)، ج١، ص٢٢٠.

[7] المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٠.

ويعزو الإمام الغزالي فساد عصره إلى فساد الملوك والعلماء والأمراء حيث يقول: "فساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر."[١]

ولقد أفرد الإمام الغزالي باباً كاملاً في كتابه الإحياء بعنوان، "أمر الأمراء بالمعروف ونهيهم عن المنكر"[٢]، كما ألف كتاباً مُستقلاً يحتوي على العديد من النصائح والإرشادات للملوك والأمراء[٣] أسماه "التبر المسبوك في نصائح الملوك".

وكان للإمام الغزالي الفضل في التوفيق بين الفقه والتصوف، حيث نجح إلى حد بعيد أن يفقه التصوف، ويصوف الفقه – إن صحَّ التعبير – وإن كانت كفة التصوف قد رجحت عنده على بقية العلوم حيث يقول: "إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلون بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء وجه النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به[٤] ".

---

(1) الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣٥٧.

(2) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤٣—٣٥٦.

(3) الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، راجعه، سامي خضر، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٩. حاجي، كشف الظنون، ج١، ص٣٢٣.

(4) الغزالي، المنقذ، ص٥٠. العيدروس، تعريف الأحياء، ص١٢.

الفصل الثاني

أوضـــاع الصوفيـــة في بـــلاد الشـــام
خلال الاحتلال الصليبي

- أوضاع صوفية بلاد الشام في بداية الغزو الصليبي.
- علاقة صوفية بلاد الشام بالحكام المسلمين فترة الحروب الصليبية.
- موقف صوفية بلاد الشام من الغزو الصليبي.
- موقف الإمام الغزالي من الغزو الصليبي لبلاد الشام.

أوضاع الصوفية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي[١]

كانت بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي تعجُّ بالخلافاتِ المذهبية، وقد تناول الإمام الغزالي هذه الظاهرة بالدراسة والتمحيص[٢]، حيث يقول: "... وأتفحص عن عقيدة[٣] كـل فرقـة، وأستكـشف أسرار مذهب كل طائفة؛ لأميز بين مُحق ومُبطل، ومُتسنن[٤] ومُبتـدع[٥]، لا أغـادر باطنيـاً[٦] إلا

(1) الغزو الصليبي، هو ما يسمى بالحروب الصليبية، وهي حركة كبيرة نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي فـي العـصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين، وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها، للمزيد، انظر: الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٣. بالار، ميشيل، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة، بشير السباعي، (مصر، عين للدراسـات والبحـوث، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص١٠. الساريسي، عمر عبد الرحمن، نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، دراسة وتحليل، (جدّة، دار المنـارة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٣. حبشي، حسن، الحروب الصليبية الأولى، (مصر، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص٧. حمزة، عبد اللطيف، أدب الحروب الصليبية، (القاهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص٩. الحميدة، سالم محمد، الحروب الصليبية عهد الانقسامات الداخلية، جزءان، (بغداد، دار الشؤون الثقافيـة العامـة، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ص٢٢. شوفاني، إلياس، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتـى سـنة ١٩٤٩، (بيـروت، مؤسـسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص١٨٨.

(2) التمحيص، بمعنى الاختبار، محص الشيء، خلصه، ومحصت الذهب بالنار، إذا خلصته مما يشوبه، انظر: ابن منظـور، لسان العرب، ج٧، ص٩. الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، القاموس المحـيط، ٤ أجـزاء، دار الكتـاب العربي، ج٢، ص٣١٧.

(3) العقيدة، هي الحكم الذي لا يقبل الشك لدى معتقده، أبو حبيب، سعدي، القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً، (دمشق، دار الفجر، ط٢، ١٤٠٨/١٩٨٨م)، ص٢٥٦.

(4) متسنن، من السنة، وهي بمعنى السيرة، سواء كانت حسنة أو قبيحة، ويقصد بهم أهل السنة والجماعة، وهم أصحاب الدين القويم والطريق المستقيم، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ، ونهى عنه قولاً وفعلاً، انظـر: ابـن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٢٥. البنعلي، أحمد بن حجر آل بوطامي، تحذير المسلمين عن الابتداع والبـدع فـي الدين، المنصورة، دار القدس الشريف للطباعة والنشر، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص٩.

(5) مبتدع، من البدعة، وهي الحدث في الدين بعد الإكمال، أو ما استحدث بعد النبي ﷺ من الأهواء والأعمال، والبدعة، طريقة في الدين مخترعة، انظر: الشاطبي، الاعتصام، ج١، ص٣٧. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج٣، ص٤.

(6) باطنياً، يعنى بها فرقة الباطنية، وهي فرقة خارجة عن فرق الأهواء، وداخلة في فرق الكفر، لأنها لا تتمسك بـشيء مـن أحكام الإسلام لا في أصوله ولا في فروعه، وهي نشأت لمحاولة هدم الإسلام من الداخل، وذلك عن طريق تأويل الشريعة على نحو يقضي إلى نسخها، والاستعاضة عنها بخليط يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود، ولقبـوا باطنية لدعواهم أن لظاهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظاهر مجرى اللب في القشر، انظر: البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، أصول الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٣٢٩. الغـزالي، فـضائح الباطنية، اعتنى به وراجعه، محمد علي القطب، (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص٢١. الديلمي، محمد بن الحسين (من أعيان القرن الثامن)، بيان مذهب الباطنية وبطلانه، عني بتصحيحه، شر وطمـان، (إسـتانبول، مطبعـة الدولة، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، ص٢. الشاطبي، الاعتصام، ج١، ص٢٥٢. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه ورتبه، الشيخ عبد القادر بدران، (بيروت، دار إحياء التراث العربـي، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج٤، ص٢٩٥. كلوس، معجم العالم، ص١٢٣.

وأحب أن أطّلع علي بطانته، ولا ظاهرياً[١] إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.... ولا فلسفياً[٢] إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً[٣] إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته[٤]، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبداً[٥] إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً[٦] معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسبابِ جرأته وزندقته".[٧]

عدد لنا الغزالي في النص السابق المذاهب المنتشرة في عصره، والتي تمثلت في: الباطنية والظاهرية والشيعة والفلاسفة، والمتكلمين والمتصوفة والمتعبدة والزنادقة، وهذه الفرق انتشرت وتفاعلت في بلاد الشام، بعد عام ٣٥٩هـ/٩٧٠م، وهي السنة التي أرسل فيها جوهر[٨] أحد قادته، وهو جعفرُ بن الفلاح[٩] على رأسِ جيشٍ للسيطرةِ على بلادِ الشامِ، حيثُ تَمكن من فتحِ الرملة[١٠]

---

[1] فرقة الظاهرية، هي التي تأخذ بظاهر النص بدون تأويل، انظر: عويس، عبد الحليم، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، (القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص٣١٩.

[2] الفلسفة، بمعنى الحكمة، وهي العلم بالأشياء وعللها على حقيقتها، بقدر طاقة الإنسان، انظر: الكندي، الرسائل الفلسفية، ص٤٣. روزنتال، الموسوعة الفلسفية، ص٣٣٦.

[3] يقصد بهم أهل الكلام، وهم فئة مستقلة تستعمل العقل لفهم النص والدفاع عن العقيدة، انظر: الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص٩-١٠.

[4] المجادلة، من الجدل، شخص مجادل أي مخاصم، انظر: المقرئ، المصباح المنير، ص٦.

[5] المتعبد، بمعنى المتنسك، تعبد الرجل أي تنسك، انظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص٣١٢.

[6] سبق تعريفه.

[7] الغزالي، المنقذ، ص١٨.

[8] هو جوهر بن عبد الرحمن القائد أبو الحسن الصقلي الكاتب، مولى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أبي تميم، جهزه المعز إلى ديار مصر في الجيوش سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨ م فاستولى على مصر وبنى القاهرة، توفي سنة ٣٨١هـ /٩٩١م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٣٧٥. الذهبي، العبر، ج٢، ص١٥٨. الصفدي، الوافي، ج١١، ص١٧٢.

[9] هو ابن الفلاح جعفر، والي دمشق من قبل المعز صاحب مصر، وهو أول أمير تولاها لبني عبيد، توفي سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٣٦١. الصفدي، الوافي، ج١١، ص٩٥. المقريزي، المقفى الكبير، تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية، تحقيق، محمد اليعلاوي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٢٢٠. سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر "تفسير جديد"، (القاهرة، الدار المصرية النسائية للنشر، ط٢، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص١٤١.

[10] هي من أهم المدن الفلسطينية، تقع وسط فلسطين، وكانت رباطاً للمسلمين أيام الحروب الصليبية، وسميت الرملة لما غلب عليها الرمل، انظر: الاصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر عبد العال الجيني، (مصر، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص٤٣. الحميري، محمد بن عبد المنعم (٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق، إحسان عباس، (لبنان، مكتبة لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص٢٣٧. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٢١.

ودمشق[١]، وإقامةِ الدَّعوة فيها للخليفة الفاطمي المعز[٢].

ومع انتهاءِ سنة ٣٦٠ هـ/٩٧١م واعتراف حكام حلب[٣] الحمدانيون[٤] بالخلافةِ الفاطمية[٥]، كان آذان حيّ على خير العمل[٦] ينطلق من مُعظمِ مآذن الشام[٧]، حيثُ نشطَ الفاطميون

---

[1] هي عاصمة الشام، ودار الملك أيام بني أمية، وهي تقع في الجزء الجنوبي الغربي من سوريا القديمة، انظر: الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ج١، ص٣٦٦. الحميري، الروض المعطار، ص٢٣٧.

[2] هو أبو تميم معد، الخليفة الفاطمي الرابع، الملقب المعز لدين الله بن منصور، اسماعيل بن القائم بن المهدي، بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور إسماعيل ثم جددت له البيعة بعد وفاته، جهز جوهر الصقلي لفتح ما استعصى عليه من بلاد المغرب فسار إلى فاس ثم توجه إلى البحر المحيط وصاد من سمكه، ثم توجه إلى مصر ففتحها توفي سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥م ،للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٤١٢٠. الذهبي، العبر، ج٢، ص١٢٢. اليافعي، مرآة الجنان، ج٢، ص٢٨٨. شاه، ابن وصيف، جواهر البحور ووقائع الأمور، تحقيق، محمود زينهم، (القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص٧٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٠٨. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٧٤. البغدادي، هدية العارفين، ج٢، ص٤٦٥.

[3] حلب، هي إحدى المدن السورية، تقع في الجزء الشمالي الغربي من سوريا، وهي تعد ثاني أهم مدن سوريا بعد دمشق العاصمة، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٣٦. الحميري، الروض المعطار، ص١٩٦. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٦٦.

[4] الحمدانيون، ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية، وكان لحمدان ٥ أبناء برزوا في عهد الخليفة العباسي المكتفي، وتقلدوا أرفع المناصب، حيث تولى حمدان ولاية الموصل، وتوارث أبناؤه الحكم من بعده، حتى سنة ٣٨١هـ/٩٩١م، حتى زالت الدولة الحمدانية من حلب، وحل بعدهم السلاجقة سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٦م، انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ص٦٢. البعلبكي، منير، موسوعة المورد العربية " جزءان، دائرة معارف ميسرة مقتبسة عن موسوعة المورد، (بيروت، دار العلم للملايين، ط٦، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ج١، ص٤٤٧. دائرة المعارف الإسلامية، ج٨، ص٧٧. سيسالم، عصام - العاوور، صلاح، محاضرات في تاريخ الدويلات الإسلامية، غزة، مكتبة المنارة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٢٥٣.

[5] الخلافة الفاطمية، هي التي كانت بدايتها في المغرب وانتقلت إلى مصر، ويدعي الفاطميون أنهم من نسل الإمام علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء، ويعتبرون أنفسهم أحق بالخلافة من بني أمية ومن بني العباس، ويرجعون في نسبهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، انظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" جزءان، تحقيق، محمد عبد القادر أحمد عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ج١، ص١٤١. كلوس، معجم العالم، ص٤٧٤. سيسالم، تاريخ الدويلات، ص٢٧١. سيد، الدولة الفاطمية، ص١٢١.

[6] حي على خير العمل، كانت الشيعة تضيف هذه العبارة بعد قول المؤذن حي على الفلاح، انظر: العاملي، محمد بن جمال الدين مكي، الروضة البهية في شرح اللمعة الحنبلية، ١٠ أجزاء، (بيروت، دار إحياء التراث، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج١، ص٢٤٠.

[7] للمزيد عن فتح الفاطميين للشام، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣١٠-٣١١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٢٦. المقريزي، المقفى، ص٢٢١-٢٢٥. سيد، الدولة الفاطمية، ص١٤٩ -١٥٠.

في نشرِ مذهبهم الشيعي بشتى الوسائل[١]، التي من ضمنها التصوف، حيث نجحَ الشيعة في إدخـــالِ عقائدهم لبعض فرق الصوفية.

يقول ابن خلدون في ذلك: "إنّ هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشفِ[٢] وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك، فذهبَ الكثيرُ منهم إلـــى الحلـــول[٣] والوحـــدة[٤]... وكـــانَ سَـــلفهم مخالطيـــن للإسماعيلية[٥] المتأخـــرين مـــن الرافـــضـــة[٦]، الدائنيـــــن أيـــضاً بـــالحلول وإلهيـــة الأئمـــــة[٧]" [٨] وبـــسيطـــرةِ الـــسلاجقـــة[٩] علـــى ديـــارِ بكـــــر وحـــلـــــــب سنـــــــــة

---

(1) انظر: حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٣ أجزاء، (القاهرة، مكتبـــة النهـــضة المصرية، ط٧، ١٣٨٤هـــ/١٩٦٤م)، ج٣، ص١٥١-١٥٢. سيد، الدولة الفاطمية، ص١٤١.

(2) الكشف، معناه، الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية، انظر: الحفني، معجـــم مـــصطلحات الصوفية، ص٢٢٥.

(3) الحلول، الحلولية، هي فرقة من الصوفيةس المبطلة، زعموا أن الحق اصطفى أجساماً حل فيها معاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية والأجسام التي اصطفاها الله تعالى هي أجسام أولياؤه وأصفياؤه، الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص٨٢.

(4) الوحدة، هي وحدة الشيء وقائمة بذاته، ووحدة الوجود والحلولية، ترى أن الله يحل في كل شيء، وكل شيء يتحد بـــالله، الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص١٥١٨.

(5) الإسماعيلية، هي فرقة فلسفية باطنية، سميت بهذا الاسم نسبة لاسماعيل بن جعفر الصادق. ونشأت الإســـماعيلية كحركـــة اجتماعية فلسفية في منتصف القرن الثاني الهجري، وهم يقولون بإمامة إسماعيل حيث إنه الابن الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر. انظر: النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى، "فرق الشيعة"، تعليق، السيد محمد صادق، بحر العلوم، (العراق، المطبعة الحيدرية، ط٤، ١٣٨٨هــ/١٩٦٩م)، ص٦٧. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكـــر، الملـــل والنحل، جزءان، تحقيق، محمد سيد كيلاني، (بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٠هــ/١٩٨٠م)، ج١، ص١٩١. كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٢٥٤. غالب، مصطفى، الحركات الباطنية في الإسلام، (بيروت، دار الأندلس، ط٢، ١٤٠٢هــ/١٩٨٢م)، ص٦٨. بدوي، عبد الرحمن، "مذاهب الإسلاميين، المعتزلة والأشاعرة والإسماعيلية والقرامطة والنصيرية"، (بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٤١٧هــ/١٩٩٦م)، ص٣١. كوربان، هنري، تاريخ الفلسفة الإســـلامية، ترجمـــة، نـــصير مـــروة وآخرون، (بيروت، عويدات للنشر والطباعة، ط٢، ١٤١٩هــ/١٩٩٨م)، ص١٣٢.

(6) الرافضة، سموا بهذا الاسم، لأنهم رفضوا إمامة أبو بكر وعمر، وهم مجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الإقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ وأن الإمامة لا تكـــون إلا بـــنص، انظـــر: الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، عني بتصحيحه هلموت ريتـــر (ألمانيـــا، فرانز شتايز، للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٠هــ/١٩٨٠م)، ج١، ص١٦. النوبختي، فرق الشيعة، ص٦٣. بدران، تهـــذيب مختصر ابن عساكر، ج٦، ص٢١. الصلابي، علي محمد محمد، الدولة العبيدية في ليبيـــا، (الأردن، دار البيـــارق، ط١، ١٤١٨هــ/١٩٩٨م)، ص١٤.

(7) ألوهية الأئمة، هناك فرق من غلاة الشيعة، قالوا بألوهية الأئمة، وأباحوا محرمات الـــشريعة، كالبيانيـــة، والمنـــصورية، والحلولية، انظر: البغدادي، الإسفراييني، صدر الإسلام عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق، تحقيق، محمـــد عبد الحميد، (بيروت، دائرة المعرفة)، ص٢٣.

(8) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٧٣، العبر، ج١، ص٥٢١ -٥٢٢.

(9) السلاجقة، ينتسبون إلى سلجوق بن دقاق، وهو أحد زعماء قبائل الغز، وكان لسلجوق هذا أربعة أبناء منهم طغرلبك الذي اختاره السلاجقة قائداً وسلطاناً عليهم بعد انتصارهم على الدولة الغزناوية، ودخل السلاجقة بغداد وطردوا البويهيين الشيعة وأصبحوا حكاماً بجانب الخلفاء العباسيين، وامتد حكمهم لبلاد الشام، وهم الذين تصدوا للحملة الصليبية الأولى، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٣٦. ابن خلدون، العبر، ج٥، ص٣. سيسالم، تاريخ الدويلات، ص١٥١.

٤٦٣هـ/١٠٧٠م[١] بقيادةِ السلطان ألب أرسلان[٢] وأخذهم للقدسِ والرملـةِ مـن خلفـاءِ مـصرَ الفاطميين[٣]، وقد تم كل هذا للسلاجقة بعدَ هزيمتهم، وأسْرِهمْ لملكِ الرومِ أرمـانوس فـي معركـة ملاذكرد[٤] سنة ٤٦٤ هـ /١٠٧١م، وبسطِ نُفوذهم على دمشقَ، ومعظم بـلادِ الـشام فـي عهـدِ السلطان ملك شاه[٥] الذي فَوَضَ أَمْرَ البلادِ لوزيرهِ نظام ملك[٦]، حينما قالَ له: "رددت الأمور كلهـا كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد"[٧]

وكان هذا الوزير ناقماً على الشيعة، مبغضاً لهم، يراهُم العدوَ الأول للدولةِ السلجوقية، حيثُ يقولُ: "وليس ثمة فِرقة أكثرُ شراً، وتخريباً وسوءاً مِنْ هؤلاء القوم - يعني الـشيعة الإسـماعيلية؛ لأنهم يبيتون الشر لهذه المملكة من وراء حجاب، ويسعون إلى إفساد الدين.... ولن يألوا[٨] جهدا في

---

(1) ابن الشحنة، محب الدين أبو الوليد محمد، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق، سعيد محمد مَهنَّى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص١٩٥. المقريزي، المقفى، ص٢٢١-٢٢٢.

(2) أبو شجاع محمد بن جعري بك، الملقب عضد الدولة ألب أرسلان، وهو ابـن اخ طغرلبـك، قتلـه أحـد أتباعـه سـنة ٤٦٠هـ/١٠٧٢ م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٢، ص٣١٨. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٣١٨.

(3) المقريزي، السلوك، ج١، ص١٤١.

(4) معركة ملاذكرد، وقعت في مدينة حلب، بين السلاجقة بقيادة السلطان ألب ارسلان وبين الروم بقيادة أرمانوس، وكان ذلك في سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، وهي السنة التي زحف فيها أرمانوس على رأس جيش تعداده حوالي ٢٠٠ ألـف إلـى بـلاد الإسلام، فوصل منطقة ملاذكرد وعندما بلغ ألب أرسلان الخبر جمع جيشه الذي لم يتجاوز ١٥ ألف جندي، ولما تقـارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب الهدنة، فقال له الملك لا هدنة إلا بالرّي، فانزعج السلطان ولكنه لم يتخاذل ولم يجبن، حيث لبس كفنه وتحنط وقال لجنده: إن أنا قتلت فهذا كفني، وزحف إلى الروم فلما قاربهم ترجل وعفر وجهـه بالتراب وأكثر الدعاء ثم ركب وحملت العساكر معه واشتد القتال إلى أن كتب الله النصر للمسلمين وهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بالجثث وأسر ملك الروم أرمانوس، وجيء به إلى السلطان ألب أرسلان فضربه ثلاثة مقارع بيده قائلاً له: ألم أرسل إليك الهدنة فأبيت، ثم أطلق السلطان سراحه مقابل فدية مع إطلاق أسرى المـسلمين. أمـا الروم فلما بلغهم أمر الهزيمة وثب أحد ملوكهم على المملكة فملك البلاد، انظر: ابـن الأثيـر، الكامـل، ج٨، ص٣٨٨. الحميري، الروض المعطار، ص١٩١. العسلي، بسام، فن الحرب الإسلامي، ٥ مجلدات، (بيروت، دار الفكر، ١٢٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ج٣، ص٣٤٩، للمزيد عن معركة ملاذكرد، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٤٨٧-٤٩١. ابن الأثيـر، الكامـل، ج٨، ص٣٨٨. الـذهبي، دول الإسـلام، جـزءان، تحقيـق، حـسن مـروة، (بيـروت، دار صـادر، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج١، ص٣٩٧. ابن الوردي، تاريخ، ج١، ص٣٦٢. المقريزي، السلوك، ج١، ص١٤١.

(5) هو أبو الفتح جلال الدولة بن السلطان ألب أرسلان، تملك بلاد ما وراء النهر، والجزيرة والشام، والعراق، كـان حـسن السيرة، يلقب بالملك العادل، توفي سنى ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٥٠. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٣٧٦.

(6) هو نظام الملك الوزير أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، قوام الدين، من جلة الوزراء، كان مجلـسه عـامرا بالقراء والفقهاء وهو صاحب كتاب سياسة نامة، توفي سنة ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الـسمعاني، الأنساب، ج٥، ص٥٠٥. الذهبي، العبر، ج٢، ٣٤٩.

(7) ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٣٧٣.

(8) يألوا، بمعنى لن يدخر، أي لم يدع جهداً، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٤٠. الزبيدي، تاج العروس، ج١٩، ص١٦٤.

بث الشر والفساد والقتل والبدع، أنهم يدَّعون الإسلام في الظاهر، وينهجون منهج الكفار في الباطن"[١].

لأجلِ ذلك جعلَ جُلّ هَمِهِ وعملهِ القضاء على هذا المذهبِ، وتطهيرِ البلاد السلجوقية مِنْ خَطرِه، وَتسْخير معظم إمكانيات الدولة لنشرِ المَذهَبْ السُني، فأنشأ المساجدَ والمدارس، وقرّبَ إليه العلماء والفقهاء والصوفية، وأغدقَ عليهم الأموال، وكان مجلسه عامراً بالفقهاءِ والصوفية [٢] وحينما قالَ له أحد كتابه أن هؤلاء العلماء مِن الصُوفيةِ والفُقَهاء، يشغلوك عن مصالحِ الرّعية، فما كانَ جوابُه إلا أن قال: "هذه الطائفة أركانُ الإسلام، وهُمْ جمالُ الدُنيا والآخرة، ولو أجلستُ كُلاً منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك"[٣]، وكانَ إذا دَخَل عليه أئمة الصوفية كأبي القاسم القُشيري،[٤] وأبو المعالي الجويني[٥] يقوم لهما ويجلسهما مكانه، وكانَ كثير الإنعام على الصوفية، حتى أنه أعطى بعض متنمسيهم [٦] في مرات ثمانين ألف دينار، ورأى خُصومه وحساده في كثرةِ بنائه للخانقاهات والزوايا والربط فرصة للإيقاع به عند سيده وسلطان البلاد ملكشاه، الذي قال له معاتباً: "ضيعت الأموالَ في هذهِ الوجوه، فقالَ له: "يا ملك لما أقمت لك العساكر، تقاتل بين يديك الأعداء بالنهار، أقمت لك جنداً في الليل، يصفون أقدامهم، ويدعون لك وأنت نائم، وبعد ذلك فانظر في المال الذي فرقته في هذه الوجوه، فأنا أحمله إليك وأمحو اسمك من أبوابها، واكتب اسمي ليبقى لي ذكرها وأجرها، فقال ملكشاه: لا والله ما أريد أن أمحو اسمي من أماكن البر والصلة، وجزاك الله فيما فعلت"[٧]َ .وكانَ ميل السلاجقة للصوفيةِ، وتَقربهمْ إليها أكثر مِنْ غَيْرِها من الفرق؛ لأنها الفئة الوحيدة التي ابتعدت عن الصراعِ على مناصبِ الدولة، فكانتْ هي الوسيلة المناسبة للقضاءِ على المذهبِ الشيعي المستشري في البلاد.[٨] ولمّا رَأى الناسُ المكانةَ العالية التي يتَمتع بها الصوفية، التفوا

---

[1] نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، سياست نامة، ترجمة، يوسف حسين بكار، (بيروت، دار القدس)، ص٢١٢.

[2] ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص١٢٨.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٤٦٥.

[4] أبا القاسم، سبق ترجمته.

[5] هو عبد الملك بن محمد بن يوسف إمام الحرمين شيخ الإسلام، البحر الحبر، المدقق المحقق، الفقيه الشافعي، احد الأئمة الأعلام، كان من أذكياء العالم، توفي سنة ٤٧٨ هـ /١٠٨٥ م، للمزيد عن ترجمته، السمعاني، الأنساب، ج٢، ص١٦١. الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٢٩. السبكي، طبقات، ج٥، ص١٦٥.

[6] نمست الرجل، نامسته إذا ساررته، ونمست السر، كتمته، ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٢٤٤.

[7] سبط بن الجوزي، شمس الدين يوسف، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، (حيدر آباد، ١٣٧هـ/١٩٥١م)، ج١، ص١٦٧-١٦٨.

[8] انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج٥٩، ص٤٦٥. بهجت، منى محمد بدر محمد، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، جزءان، (القاهرة، مكتبة زهراء الشرق للنشر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ج١، ص١٢١.

حولهم، وأحَاطُوهم بمظاهر الاحترامِ والتقديس[١]، ولقي هذا إعجاباً مِنْ الحكام، فاتخذُوا هذه الظاهرة وسيلة لامتصاصِ غضب الجماهير.[٢]

لهذهِ الأسباب وغيرها سيطرَ التصوفُ على الحياةِ العامةِ في أواخرِ العصرِ الـسلجوقي. والـسؤال الذي يطرح نفسه، ما هو موقف الحكام المسلمين من الحركة الصوفية، وعلاقة الـصوفية بهـؤلاء الحكام فترة الحروب الصليبية.

[1] التقديس، من التطهير والتبريك و تقدس، أي تطهر، وتنزه، أي جعلهم أطهار منزهين، والقديس عند النـصارى، المـؤمن الذي يتوفى طاهراً فاضلاً، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٦٨. الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص٤٨٠. أنيس، المعجم الوسيط، ج٢، ص٧١٩.

[2] حسن، الصوفية والسياسة، ص١٠٧. karamustafa, cods unruly friends, p. 87

علاقة صوفية بلاد الشام بالحكام المسلمين فترة الحروب الصليبية

نظراً للمكانة الرفيعة التي حظى بها الصوفية في نفوس طبقات الشعب، نالوا بذلك الحظوة لدى ولاة الأمر، حيث تقربوا إليهم كسباً لودهم، وفي نفس الوقت تقرباً للشعب الملتف حولهم.

لأجل ذلك اتسمت العلاقة القائمة بين صوفية بلاد الشام، وحكامهم المسلمين، من زنكيين، وأيوبيين، ومماليك، طوال فترة الحروب الصليبية، بالعلاقة الحسنة والجيدة.

فبدخول الحقبة الزنكية أصبحت الحركة الصوفية في أوج ازدهارها؛ لما لاقته من كامل الرعاية من قبل السلاطين والأمراء الزنكيين، الذين رعوا التصوف وحاربوا التشيع، حتى أصبحت بلاد الشام في زمان نور الدين زنكي مقراً للصوفية؛ لعظم رعايته لها[1] التي اتخذت أشكالاً مختلفة، عادت على أهل الشام بالخير والبركة، منها علاقات قامت على التشاور والتعاون، كالعلاقة التي كانت قائمة بين السلطان نور الدين والشيخ الصوفي عمر الملا، لدرجة أن جعله مرجعاً رسمياً في بلاد الموصل "حيث أمر الولاة والأمراء بأن لا يفصلوا بها أمراً حتى لا يعلم الملا به، فما أمرهم به من شيء امتثلوه"[٢]، وكان نور الدين من أخلص محبيه، وكان يستشيره ويكاتبه.[٣]

ولشدة اعتقاد نور الدين محمود بهذا الشيخ، كان في رمضان يترك طعام الإمارة، ويطلب منه شيئاً يفطر عليه، فكان يبعث إليه أكياساً فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، وكان نور الدين إذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملا"[٤]، كما فوض السلطان نور الدين عمارة أكبر جوامع الموصل[٥] لهذا الشيخ، وعندما قيل له أن هذا الشيخ لايصلح لهذا النوع من العمل، فقال: إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتّاب، أعرف أنه يظلم في بعض الأوقات.... وأنه غلب على ظني أن هذا الشيخ لايظلم، وإذا ظلم كان الإثم عليه لا عليَّ "[٦]

---

[1] أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٧٨.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٨٢.

[3] المصدر نفسه، ص٢٦٣.

[4] أبو شامة، الروضين، ج١، ص١١٦. ابن قاضي شهبة، بدر الدين أبي الفضل محمد بن تقي الدين، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق، محمود زايد، (بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص٦٨.

[5] كانت الأرض التي بني عليها جامع الموصل أرض خربة، وواسعة في وسط البلد، ولقد أشيع بين الناس أن أي إنسان يعزم على إعمار هذه الخربة فإنه سيموت قبل الانتهاء منها، فما كان من الشيخ عمر الملا إلا أن أشار على نور الدين بشرائها وبناء جامع عليها فوافق نور الدين وبنى الجامع الذي أصبح أحسن وأجمل مساجد الموصل، انظر: أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١١١.

[6] ابن الأثير، الباهر، ص١٧٠. البنداري، الفتح بن علي، من مؤرخي القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، سنا البرق الشامي، تحقيق، فتحية البنداوي، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م)، ص٥٢.ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٣٥-٣٦.

إن دل هذا فإنه يدل على فقه وتقوى السلطان نور الدين محمود زنكي، كما كان نور الدين وعِلية القوم يحرصون على حضور الاحتفالات، التي كان يقيمها عمر الملا بمناسبة ذكرى المولد النبوي، أو الهجرة النبوية، حيث يجتمع فيها الخطباء وكبار الشعراء، وينشد المنشدون الأناشيد في مدح النبيﷺ[١].

ولم تقتصر علاقة نور الدين بالصوفية على الشيخ عمر الملا، بل هي سياسة اتبعها مع الكثير من السادة الصوفية، فيروي ابن الأثير أنه كان له صديق من الصوفية الصالحين بالجزيرة[٢]، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، ويثق فيه ثقةً كبيرة، فبلغه أن نور الدين يدمن[٣] اللعب بالكرة.[٤]

فكتب إليه قائلاً: ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب، وتعذب الخيل لغير فائدة دينية، فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له: "والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر[٥]، وإنما نحن في ثغر[٦] العدو، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب.... ومتى تركنا الخيل على مرابطها[٧]، صارت جماماً[٨] لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، فنحن

---

(1) البنداري، سنا البرق، ص٥٢.

(2) ارض الجزيرة، المقصود بها المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات، وهي مجاورة لبلاد الشام، أهم مدنها الموصل. ياقوت معجم البلدان، ج٣، ص٥٤.

(3) يدمن، بمعنى أدمن أي لزم، يقال فلان يدمن، فلان يدمن شرب كذا أي يديمه، ومدمن الخمر أي الذي لا يقلع عن شربها، ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص١٥٩.

(4) اللعب بالكرة، كانت هذه اللعبة مشهورة في العصور الوسطى وهي رياضة تشبه اليوم لعبة البولو، كان نور الدين يلعب هذه اللعبة مع أصحابه ومنهم صلاح الدين الأيوبي وهي تسليته الوحيدة وكان ماهراً فيها قل أن جاراه فيها أحد، حيث كان يضرب الكرة ويجري بالفرس ورائها ويتناولها بيده من الهواء ويرجعها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى من شدة السرعة، وكان الناس يلعبون هذه اللعبة بكرة من خشب يضربونها وهم على الخيل بمضرب معكوف الآخر يسمى الجوكان، انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٧٩. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٢٩. مؤنس، حسين عالم الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، نور الدين بن زنكي فجر الحروب الصليبية، (القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ، ص٣٧٥.

(5) البطر، بطر الحق، أي يتكبر عنه فلا يقبله، وبطر غلا في المرح والزهو، انظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٣٧٤. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٦٠.

(6) الثغر، الجدار ونحوه إذا كان فيه فرجة، والثغر هو المكان أو الموضع الذي يخاف منه العدو، ومنه سميت المدن القريبة من البحار والقريبة من الأعداء ثغور، ومن الثغور الشامية ثغر صور، وثغر عكا، وثغر حيفا وثغر يافا، انظر: المقرئ، المصباح المنير، ص٥٤. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٣٨٢. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٩٧.

(7) مرابطها، وهو مكان رباط الخيل، ومرابطها، مكوثها في مكانها مربوطة لعدة أيام أو يطلق على الخمسة من الخيل فما فوقها، الجوهري، الصحاح، ج١، ص٨٨١. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٣٠٢. الزبيدي، تاج العروس، ج١٠، ص٢٦٠. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٣٢٣.

(8) جماماً، الجمام بالفتح الراحة، وجم الفرس، ترك فلم يركب، ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٠٥-١٠٦.

نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها، وتتعود سرعة الانعطاف"[١].

كما حظى بهذه الحرية بعض الطرق الصوفية، على الرغم من دخول بعض الخرافات والعادات السيئة على طريقتهم[٢]، إلا أنها لا تخرجهم من الملة، ولا تدخلهم دائرة الكفر والتشيع، كالفرقة اللامتية[٣] في بلاد الشام، وشيخها أبي يزيد الخراساني[٤]، الذي كان يأكل من الدوزة [التسول]، وكانت له فرقة من المنشدين، ينشدون في الاجتماعات الصوفية على الدف[٥] والشبابة[٦]، ويتغنون بأشعار الزهد في المناسبات الصوفية، ولا يجرؤ أحد على اعتراضه[٧]، ومن تصرفاته الغريبة والعجيبة، "أنه كان في كل ليلة يشتري عشرين جرَّة من الخمر، ويستأجر عشرين قينة[٨]، ويريق الخمر في البالوعة، ويغلق عليهن الباب إلى الصباح، ويدفع إليهن أجورهن، ويقول: إنما حبستكن شفقةً عليكن، وربما تكلم معهن، وأثر حاله وصدقه فيهن، فيجهزهن ويزوجهن، وطلب منه السلطان محمود أن يترك التسول، ويعطيه ما يكفي أصحابه، فلم يقبل وقال: "منٌّ الله خير من منّ محمود بن زنكي".[٩]

وعلى الرغم من ذلك، كان نور الدين يقبل عليه إقبالاً عظيماً[١٠]؛ لاعتقاده أنه لا يرتكب شيئاً يخالف الدين، وعقيدة أهل السنة.

---

[1] ابن الأثير، الباهر، ص١٦٤ -١٦٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٦٥. مؤنس، نور الدين، ص٣٧٣.

[2] خرافات، هي الأحاديث المستملحة الكاذبة، وسمي الخاروف خروفاً، لأنه يخرف من هنا وهناك، أي يرتع ويأكل، خرف الرجل، فسد عقله، المقرئ، المصباح المنير، ص١٠٣. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج٣، ص١٣٢.

[3] اللامتة، اللامتي، هو الذي لايظهر ولايته، ولايبالي بالناس ولا يظهر خيرا ولا يضمر شرا، ويظهر من الأحوال ما ينفر الناس عنه، ابن عجيبة، مصطلحات التصوف، ص٣٤. الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، ص٢٤٩.

[4] هو إبراهيم بن محمد، أحد أئمة الطريقة الملامتية، من أقواله المشهورة، من لم يسلك طريق الملامتية لا يأمن عليه السوء، وكان محمود زنكي يحترمه ويغدق عليه الأموال، توفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، انظر: ابن المستوفي، شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد الإربلي، تاريخ إربل، جزءان، المسمى، نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل، تحقيق، سامي السيد الصقار، (العراق، دار الرشيد، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م)، ج١، ص٢٦٤.

[5] الدف، آلة ينقر عليها، ودفتا الطبل الجلدتان اللتان تكتنفانه ويضرب عليهما. الأصفهاني، أبو فرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد، "الأغاني"، ٢٧ جزء، شرحه وكتب هوامشه، عبد مهنا، سمير جابر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج٦، ص٢٩٤. الزبيدي، تاج العروس، ج١٢، ص٢١١.

[6] الشبابة، هي عبارة عن قضيب مجوف سواء كان من الخشب أو الحديد، يخرم فيه ٧-١٢ فتحة، ينفخ فيها المطرب، ويغلف الفتحات بأصابعه على حسب النغم. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٩، ص٣١٤. الرازي، مختار الصحاح، ص١٨٧.

[7] ابن المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص٢٦٢.

[8] القينة، هي المغنية، ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٣٥٢.

[9] ابن المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص٢٦٥.

[10] ابن المستوفي، تاريخ أربل، ج١، ص٢٦٥. إبن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٣٦.

"هكذا كان نور الدين يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم"[١]

بل أن حياة نور الدين نفسها تحوي الكثير من ملامح الزهد ومظاهر التصوف، بإجماع من ترجم له[٢]، حيث وصفوه بكثرة صلاته، ومواظبته على الفرض منها في جماعة، ومداومته على تلاوة القرآن، والصيام والتسبيح، وفعل الخيرات، كما وصفوه بعفة[٣] البطن والفرج، والإقتصاد في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل أن أدنى الفقراء في زمانه أعلا نفقةً منه، من غير اكتناز[٤]، ولا استئثار[٥] بالدنيا.[٦]

حيث كان مع سعة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لايأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا بأملاك له، كان قد اشتراها من سهمه[٧] من الغنائم،[٨] وكان يحضر الفقهاء، ويستفتيهم[٩] فيما يحل له من تناول الأموال الموصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ ما يفتونه بحله، ولا يتعداه إلى غيره البتة[١٠]، ولا يزيد عليه شيئاً ولو مات جوعاً، وكان يأكل من كسب يده بسيفه ورمحه.[١] يقول ابن

---

(1) أبو شامة، الروضين، ج٢، ص٢٠٥. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٦٨.

(2) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٥٥-٥٨. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص١٨٥ – ١٨٧. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٥٣-ص٧٣. ابن العماد، شذرات، ج٤، ص٢٢٨-٢٣٠.

(3) العفة، ترك الشهوات من كل شيء، وغلبت على حفظ الفرج مما لا يحل، ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٢٥٢. الزبيدي، تاج العروس، ج١٢، ص٣٩٣. أنيس، المعجم الوسيط، ج٢، ص٦١١.

(4) اكتناز، أي يحفظ المال بدفنه تحت الأرض، اكتنز بمعنى جمع وملأ، الجوهري، الصحاح، ج١، ص٧١١. الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٣٧.

(5) استئثار، استأثر أي خص به نفسه، ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٨.

(6) ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص١٨٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٦٤. أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، المختصر في أخبار البشر، جزءان، علق عليه، محمود ديوب، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج٢، ص١٣٤. ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٨١. الصفدي، الوافي، ج٢٥، ص١٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٧٨. ابن الشحنة، روض المناظر، ص٢٢٠.

(7) السهم بمعنى النصيب، أسهم بينهم أي أقرع، وهو جزء من الغنيمة، انظر: ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، المغني، تحقيق، محمد شرف الدين خطاب سيد إبراهيم صادق، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ج٩، ص١٠٤. الزبيدي، تاج العروس، ج١٦، ص٣٧٦. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٤٥٩.

(8) الغنائم، الغنيمة هي ما أخذ من مال الكفار قهراً بالقتال، انظر، ابن قدامة، المغني، ج٩، ص٨٤. الزحيلي، وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته، ٨ أجزاء، (دمشق، ط٣، ١٤٠٩/١٩٨٩م)، ج٦، ص٤٥٦.

(9) يستفتهم، بمعنى يسألهم، والفتوى هي الجواب عما يشكل من المسائل الشرعية أو القانونية، ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص١٤٧. الزبيدي، تاج العروس، ج٢٠، ص٣٨.

(10) ابن الأثير، الباهر، ص١٦٤. أبو شامة، الروضين، ج١، ص٩٧. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٦٤. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٥٣.

الأثير: "حدثني صديق لنا بدمشق، كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين، قال: كان نور الدين يصلي، فيطيل الصلاة، وله أوراد[٢] في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء، والصلاة والدعاء، ثم يصلي الصبح ويظهر للركوب[3]، ويشتغل بمهام الدولة.[٤]

وذات مرة اشتكت زوجته من الضائقة المالية، لعدم كفاية ما قرره لها من مال، فأرسلت إليه تطالبه الزيادة، فلما قال له رسولها في ذلك، تنكر[٥] واحمر وجهه، ثم قال من أين أعطيها، أما يكفيها مالها، والله لا أخوض نار جهنم في هواها[٦]، إن كانت تظن أن ما بيدي من الأموال هي لي، فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين، ومرصده لصالحهم، وأنا خادمهم عليها، فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص[٧] ثلاث دكاكين اشتريتها من الغنائم، وقد وهبتها إياها، فلتأخذها، وكان يحصل منها قدر يسير.[8]

وكان نور الدين شديد الميل للصوفية يظهر حبهم، فيكرمهم ويؤاخيهم، ويعظمهم، ويتواضع لهم، ويقوم إليهم ويجلسهم على سجادته، ويتباسط[٩] معهم، ويقبل على حديثهم ولا يرد لهم قولاً.[١٠]

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٧٩.

[2] أوراد، جمع ورد، والورد هوالجزء من القرآن، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٣٤٤.

[3] يظهر للركوب، يظهر بمعنى برز، وظهر على الخيل، أي اعتلاه، المقرئ، المصباح المنير، ص٢٣٠.

[4] ابن الأثير، الباهر، ص١٦٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٦٥. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٥٤.

[5] تنكر، تغير عن حاله، استنكر الشيء استقبحه، أنكرت عليه فعله إذا عبته ونهيته، انظر: المقرئ، المصباح المنير، ص٣٧٠. أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، ص٩٥١.

[6] هواها، أي ميل نفسها وانحرافها، المقرئ، المصباح المنير، ص٣٨٢.

[7] حمص، هي مدينة سورية تقع على نهر العاصي، وهي من أوسع مدن الشام، ولها نهر عظيم يشرب منه أهلها، احتلها الصليبيون من السلاجقة سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م. انظر: اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر، البلدان، وضع حواشيه، محمد أمين ضناوي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ص١٦٠. البعلبكي، موسوعة المورد، ج١، ص٤٤٨. العفيفي، عبد الحكيم، موسوعة ألف مدينة إسلامية، (مصر، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص٢٠٧.

[8] ابن الأثير، الباهر، ص١٦٤. الكامل، ج١٠، ص٥٧. أبو شامة، الروضين، ج١، ص٥٨. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٥٥.

[9] تباسط، بسط وجهه أي تلألأ، باسطه، لاطفه، ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٢٥٩.

[10] ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٥٧. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٣٨.

وهذه العلاقة تميزت بها الصوفية عن باقي طبقات وفئات الشعب، فمن شدة حبه واحترامه للصوفية، "كان إذا دخل عليه صوفي، يقوم له ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه، ويقبل عليه ويحدثه كأنه أقرب الناس إليه.[١]

وهذا العطف والحب من قبل نور الدين للصوفية شجع بعض وعّاظهم على نقده بالمواعظ القاسية، مثل موعظة أبو عثمان المنتخب[٢]، الذي وعظ نور الدين وأغلظ له من خلال قصيدته التي قال فيها:

مثل وقوفك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلماً	فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمر وأنت	في كأس المظالم طائش مخمور
عطلت كاسات المدام تعففاً	وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى	فرداً وجاءك منكر ونكير؟
ماذا تقول إذا وقفت بموقف	فرداً ذليلاً والحساب عسير؟
وتعلقت فيك الخصوم وأنت	في يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في	ضيق القبور موسد مقبور
وودت أنك ما وُليت ولاية	يوماً ولا قال الأنام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة	في عالم الموتى وأنت حفير
وحشرت عرياناً حزيناً باكياً	قلقاً ومالك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس	عافى الخراب وجسمك المعمور؟
أرضيت أن يحظى سواك بقربةٍ	أبداً وأنت معذب مهجور؟
مهِد لنفسك حجةً تنجو منها	يوم المعاد ويوم تبدو العور[٣]

---

[1] ابن الأثير، الباهر، ص١٧١. أبو شامة، الروضين، ج١، ص١٠٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٨٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٦٣.

[2] هو الواعظ أبو عثمان بن أبي محمد الواسطي، كان من الصالحين الكبار كان يجتمع في مجلس وعظه الآلاف من الناس، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٨٢.

[3] أبو شامة، الروضين، ج١، ص١١٢-١١٣. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٤١-٤٢.

ولمكانة الصوفية عند نور الدين وشدة ثقته بهم وبصلاحهم وتقواهم، أثرت به هذه الموعظة تأثيراً عميقاً،فعند سماعها بكى بكاءً شديداً وأمر بوضع المكوس[١] والضرائب[٢] في سائر البلاد.[٣]

هذه مكانة صوفية بلاد الشام زمن الدولة الزنكية، والتي تجلت بكل وضوح في قول الرحالة ابن جبير الذي يقول: "وأمَّا الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطردُ في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر".[٤]

ويقول في موضع آخر: "وأهل هذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنه قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعاش، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم، قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة، وهم على طريقة شريفة وسنة من المعاشرة عجيبة"[٥] ويصف ابن جبير إحدى بيوتهم قائلاً: "وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم يُر أجمل إشراقا منها، وهو من البلد بنصف ميل وله بستان عظيم يتصل به، وكان متنزهاً لأحد الملوك الأتراك، فيُقال انه كان في إحدى الليالي على راحة[٦]، فاجتاز به قوم من الصوفية فهريق[٧] عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر، فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوهبه[٨] من صاحبه، ورفعه برسم[٩] الصوفية مؤبداً لهم"[١٠] هذا النص يدل على عظم مكانتهم في المجتمع الشامي، وعظم حرمتهم حيث

---

[1] المكس، ما يأخذه العشار، يقول كل من باع شيئاً اخذ منه الخراج أو العشر، ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٢٢١.

[2] الضرائب، جمع ضريبة، وهي التي تؤخذ من الأرصاد والجزية ونحوها، وضرائب الأرض، أي وظائف الخراج عليها، وضرب على العبد الأتاوة ضرباً، أي أوجبها عليه بالتأجيل، وهو ما يفرض على الأملاك والعمل الداخل للدولة، وتختلف باختلاف القوانين والأحوال، الزبيدي، تاج العروس، ج٢، ص١٧٢. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٥٣٧.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٨٢.

[4] ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، رحلة ابن جبير، وهي المعروفة، باسم، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، وضع حواشيه وعلق عليه، إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٢٢١.

[5] المصدر نفسه، ص٢٢١.

[6] الراحة، من الاستراحة، وهذا اللفظ غالباً ما يطلق على من يجلسون ويشربون الخمر، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٤٦١. الزبيدي، تاج العروس، ج٤، ص٦٢.

[7] فهريق، من أهرق الماء، أي صبه، فهريق عليهم من النبيذ، أي صب عليهم شراب مسكر، ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٣٦٦. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج٣، ص٣٩١. الرازي، مختار الصحاح، ص٣٧١. أنيس، المعجم الوسيط، ج٢، ص٩٨٢.

[8] استوهبه، أي أخذه بلا عوض وبلا مقابل، الرازي، مختار الصحاح، ص٣٩٣. أنيس، المعجم الوسيط، ج٢، ص١٠٥٩.

[9] رسم بمعني كتب، أي كتبه باسم الصوفية، المقرئ، المصباح المنير، ص١٣٨.

[10] انظر: إبن جبير، الرحلة، ص٢٢٢. باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، (سوريه، دار الفكر، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص١٠١ -١٠٢.

أن نور الدين لم ير أي شيء يمكن أن يعيد للصوفية هيبتهم، وكرامتهم، جرّاء هذا الفعل الشنيع، الذي قام به هذا الأمير التركي، إلا أن يأخذ منه قصره ويعطيه للصوفية.

هذه شواهد عن أحوال صوفية بلاد الشام، إن دلّت على شئ، فإنها تدل على عظم شأنهم في دولة نور الدين، لدرجة أن مكانتهم هذه أوغرت عليهم قلوب ونفوس الحساد من عماله ووزرائه، ظهر ذلك في اغتيابهم للصوفية، واقتناص الفرص[1] للإيقاع بهم، إلا أن نور الدين كان ينهاهم ويقول لهم: ومن المعصوم؟ وإنما الكامل من تُعدّ ذنوبه".[2]

ومن أفعال هؤلاء الحساد، محاولتهم إقناع نور الدين بتقليل الإنفاق على الصوفية، قائلين له: "إنَّ لك في بلادك ادرارات وصلات ووقوفاً كثيرة على القـرَّاء، والفقهاء، والصوفية، فلو استعنت بها؛ لكان أصلح، فغضب من ذلك وقال: "والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعافكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني، وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ؟. وهؤلاء القوم لهم نصيبهم في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم"[3].

وسار السلطان صلاح الدين الأيوبي على نهج نور الدين محمود في علاقته بالصوفية، فحرص على أن يقربهم منه، ويتقرب إليهم، "فكان يُحضر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماع[4]"[5]، "أو يذهب إليهم في زواياهم، كما كان يذهب للشيخ الخبوشاني[6]، الذي كان يحرص على زيارته قبل أن يخرج في غزواته ضد أعدائه، حيث كان يثق به ويبالغ في احترامه"،[7] "كما كان يُوصي أجناده بألا يغفلوا عمن يجتاز الخيام من مشايخ الصوفية المعروفين، حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه[8]"[1].

---

[1] اقتناص الفرص، أي تحين وانتهز الفرصة، اقتنص، بمعنى تصيد، والقنيص هو الصائد، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص٣١٥. أنيس، المعجم الوسيط، ج٢، ص٧٦٢.

[2] ابن الأثير، الباهر، ص١٧١. أبو شامة، الروضين، ج١، ص١٠٦.

[3] ابن العديم، زبدة حلب، ص٣٤٣-٣٤٤. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص١٨٨. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٣٦. حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصريين الأيوبي والمملوكي الأول، (مصر، الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص١٠٦.

[4] السماع، بمعنى، الغناء حيث كان الصوفية يعقدون حلقات الذكر يتغنون فيها بالمدائح النبوية، الحفني، مصطلحات الصوفية، ص١٣٣.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٢٥. بهجت، اثر الحضارة السلجوقية، ج١، ص١٢٣.

[6] هو، نجم الدين أبو البركات، كان فقيهاً فاضلاً ورعاً، توفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م، للمزيد عن ترجمته، انظر:ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص٢٣٩. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٣٢٨. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٠٥.

[7] ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص٢٣٩. بهجت، أثر الحضارة السلجوقية، ج٢، ص١٢٣.

[8] إحسانه، يعني عطاؤه، والحسنة ضد الإساءة، وحاسنه عامله بالحسنى، والرجل الحسان أي كثير الحسن، الجوهري، الصحاح، ج٢، ص١٥٤٤. ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص١١٥. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص١٧٤.

يقول ابن شداد[٢] عن ذلك "وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ، وأرباب العمل، والفضل، وكان يوصينا بألا نغفل عما يجتاز الخيم من المشايخ المعروفين، حتى يحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه، ولقد مر بنا سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م رجل جمع بين العلم والتصوف، وكان من ذوي الأقدار، أبوه صاحب توريز[٣]، فأعرض هو عن فن أبيه، واشتغل بالعلم والعمل... حج ووصل زائراً لبيت المقدس، ولما قضى لبانته[٤] منه، ورأى آثار السلطان - رحمه الله - وقع له زيارته، فوصل إلينا المعسكر المنصوب، فما أحسست به إلا وقد دخل علي في الخيمة، فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب وصوله، فأخبرني بذلك، وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة، فعرَّفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل، فاستحضره وروى عنه حديثاً، ثم انصرفنا، وبات عندي في الخيمة، فلما صليت الصبح، أخذ يودعني، فقبحت له المسير دون وداع السلطان، فلم يلتفت، ولم يلو على ذلك، وقال قد قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدى رؤيته وزيارته، وانصرف من ساعته ومضى على ذلك ليالٍ، فسأل السلطان عنه، فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار الغضب، كيف لم أخبره برواحه، وقال: كيف يأتينا مثل هذا الرجل، وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا؟ وشدد النكير عليَّ "[٥] ولما رأى ابن شداد ذلك، راسل الشيخ الصوفي حيث كان، وحسن له العودة إلى السلطان صلاح الدين، فعاد هذا الرجل، فرحب به السلطان، وانبسط معه وأمسكه أيام، ثم خلع عليه خلعةً حسنةً، وأعطاه مركباً لائقاً وثياباً كثيرة يحملها إلى بيته وجيرانه، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاءً لأيامه. [٦]

والعلاقة بين الصوفية والأيوبيين اتخذت أشكالاً مختلفة، تحمل في طياتها مقاصد، وأهداف، وغايات أملتها ظروف العصر، خاصة ما اتصل منها في الوقوف في وجه المذهب الإسماعيلي،

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٠.

(2) هو قاضي القضاة بهاء الدين أبو العز يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الحلبي الشافعي، برع في الفقه والعلوم وساد أهل زمانه، ونال رئاسة الدين والدنيا، وصنف التصانيف، وله بحلب تربة بنيت مدرسة، ودار حديث، توفى، سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٥٧. الذهبي، العبر، ج٣، ص٢١٥. ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص١٥٧.

(3) الوريزة، هي العرق الذي يجري من المعدة إلى الكبد، ولم يوجد لها معنى واضح غير ذلك، ولقد أهمل تعريفها كل من الجوهري وابن منظور، انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٦٦.

(4) لبانته، بمعنى حاجته، الرازي، مختار الصحاح، ص٣١٩.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٠.

(6) المصدر نفسه، ص٢٠.

وإثارة الحماس في نفوس الناس، في الوقت الذي كان فيه الأيوبيون يواجهون الخطر الصليبي[1]، أو مساعدتهم في إتمام السيطرة على مناطق الشام، بعد قضائهم على الزنكيين.[2]

وكانت العلاقة بين المتصوفة والسلطة، قائمة على المنفعة المتبادلة، فهي بالنسبة للسلطان تتعلق بوجوده الشرعي، والحفاظ على استقراره، وبالنسبة للمتصوفة ترتبط بمصالح مادية، ومكانة إجتماعية، وحظوة لدى الحكام[3]؛ لأن صوفية ذلك العصر كانت تحظى بشعبية ومكانة في المجتمع؛ لأجل ذلك حرص الأيوبيون في دعم نظامهم السياسي، على الاستعانة بنفوذهم في حروبهم ومعاركهم ضد الصليبيين، وتأييد موقفهم في نزاعاتهم ضد الحركات السياسية المناوئة لهم، وعلى الأخص القرامطة[4] والحركات الباطنية[5].

كما استعان السلاطين والخلفاء بالصوفية كوسطاء للإصلاح بين الأمراء، مثل الدور الذي قام به شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم[6]، الذي أرسله الخليفة إلى السلطان صلاح الدين؛ ليصلح بينه وبين عز الدين[7] صاحب الموصل[8]، بسبب نزاع وصراع الطرفين للسيطرة على بلاد الشام، حيث أن صلاح الدين كان يرغب ويطمع في أن تكون مصر والشام تحت إمرته، وكان أمراء البيت الزنكي في بلاد الشام، عقبة كأداء تحول بينه وبين تحقيق طموحاته، حيث كان هؤلاء

---

(1) المصري، جهاد سليمان سالم، التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، ٥٧٠هـ - ٦٤٨/ ١١٧٤م – ١٢٥٠م، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم، جامعة آل البيت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ص١٤٠.

(2) جب، هاملتون، صلاح الدين الأيوبي _دراسات في التاريخ الإسلامي_، حررها، يوسف إيبش (بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص١٩٦.

(3) حسن، الصوفية والسياسة، ص٨٥.

(4) القرامطة، فرقة من فرق الإسماعيلية آمنوا بإمامة محمد المكتوم خاتم الأئمة والقرامطة ينتسبون إلى شخص اسمه حمدان ابن الأشعث ويلقب بقرمط، لقصر قامته وساقيه، ولقد تظاهر بالزهد والورع وجعل الصلاة المفروضة خمسين صلاة في اليوم ودعى إلى إمامة أهل البيت، ومما ساعده على نشر مذهبه الاضطرابات التي عمت البلاد الإسلامية نتيجة لثورة الزنج، وتساهل العباسيين معه، النوبختي، فرق الشيعة، ص٧٢. الغزالي، فضائح الباطنية، ص٢٢. غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، ص١٤٣. الأمين، عبد الله، دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة، (بيروت، دار الحقيقة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٧٥.

(5) انظر: المصري، التعلم في بلاد الشام، ص١٤٠. حسن، الصوفية والسياسة، ص٨٥. فهمي، العامة في بغداد، ص٢٢٤.

(6) هو عبد الرحيم بن إسماعيل، شيخ الشيوخ، العالم الفاضل الورع كان رسولاً بين الخليفة وصلاح الدين، توفي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣٩١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٥. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٨٩.

(7) هو عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي، صاحب الموصل، كان خيراً كثير الإحسان، توفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص٩٩. أبي الفداء، المختصر في إخبار البشر، ج٢، ص١٧٥. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٢١.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٥. ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٩٢. المقريزي، السلوك، ج١، ص١٩٨.

الأمراء يرون أنهم أحق بالخلافة، وأنهم الورثة الشرعيين لنور الدين زنكـــي، وأن صــــلاح الـــدين غاصب لحقهم.

واشتد هذا الخلاف عندما زحف صلاح الدين إلى الموصل، يريد السيطرة عليها، ولما علـــم عز الدين بنوايا صلاح الدين، أرسل القاضي بهاء الدين بن شداد رسولاً إلى الخليفة في بغداد، فمـــا كان من الخليفة إلا أن كلف شيخ الشيوخ صدر الدين بالذهاب إلى صلاح الدين، بهـــدف الإصــــلاح بينه وبين عز الدين، لكنه فشل، مما كان سبباً في اتهامه بميله إلى صــــلاح الـــدين؛ لعملـــه عنـــده فيما بعد.[1]

مما أكد التهمة عند أهل الموصل ضد شيخ الشيوخ، بميله لصلاح الدين، فقالوا فيه أبياتاً منها:

بُعثـــت رســـولاً أم بعثـــت محرضـــاً على القتـــل تستجلي القتال وتستحلـــي؟[2]

وعلاقة الصوفية بالحكام لم تقتصر على صلاح الدين الأيوبي، بل جاراه في ذلـــك معظـــم ملوك بني أيوب، فيذكر أن الملك الأشرف موسى[3] بن الملك العادل، كان يُعظم الصوفية، ويُجلهم، حتى أنه أوصى أن يُكفن بعد وفاته في خرقة أحدهم[4].

وأن الصوفي جمال الدين عبد الحق المغربي[5]، وهو رجل عالم زاهد، كان مـــن خـــواص الملك الناصر داوود[6]، صاحب الكرك[7]، ومنجمه الخاص.[8]

وكانت علاقة الملك الأمجد[1]، صاحب بعلبك[2] بالشيخ الصوفي عبد الله اليونيني[3] علاقـــة قوية، حيث كان الأمجد يحرص على زيارته لسماع مواعظه، على الرغم من شـــدتها وقـــساوتها،

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٢٢. باركر، أرنست، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، (بيروت دار النهضة العربية، ط٤، ١٣٨٦هـــ/١٩٦٧م)، ص١٧٢.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣٩٩.

(3) هو موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب الملقب بالملك الأشرف، أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرها، كان محبوباً إلى الناس مؤيداً في الحروب، كان سلطاناً كريماً، واسع الصدر كثير العطاء، لا يوجد في خزانته شيء مـــن المال، مع اتساع مملكته، توفى سنة ٦٣٥هـــ/ ١٢٣٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيـــات، ج٥، ص٣٣٠. الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٢٥.

(4) اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٦٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٤٧.

(5) هو جمال الدين عبد الحق المغربي، قاضي البلقاء، وهو رجل عالم زاهد، وكان الله قد أيده بعلم الرمال، لا يخطـــئ فـــي استخراج الخبيئ وينص عليه بإسمه ووصفه، انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٣٣٠.

(6) هو الملك الناصر داوود بن الملك المعظم ابن الملك العادل، كان فاضلاً مناظراً ذكيـــاً، بـــصيراً بـــالأدب، تـــوفي ســـنة ٦٥٦هـــ/١٢٥٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٤٩٦. الذهبي، العبـــر، ج٣، ص٢٨٠. ابـــن العماد، شذرات، ج٥، ص٢٧٥.

(7) الكرك، قلعة حصينة في طرف الشام، تقع بين القدس والبحر الميت، ياقوت، معجم البلدان، ج٧، ص١٣١.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٣٣٠.

وكان الأمجد إذا دخل عليه في زاويته يجلس بين يديه، فيقول له الشيخ اليونيني: "يا أمجد أنت تظلم وتفعل كذا وكذا، ويأمره وينهاه عنه، وهو يمتثل جميع ما يقوله له "[٤]

وكانت علاقة الملك الظاهر غازي[٥] بالشيخ الصوفي محي الدين بن عربي قائمة على النصيحة والمشاورة، حيث كان يكثر التردد عليه، طالباً منه الدعاء، متلقياً منه التوجيه والإرشاد، يقول محي الدين بن عربي عن هذه العلاقة: "ما رفعت إليه حاجة من حوائج الناس، إلا سارع في قضائها من فوره من غير توقف، كانت ما كانت"[٦].

كما استخدم السلاطين الأيوبيين، وشيخ الصوفية، سفراء ورسل، "أمثال الملك المعظم عيسى[٧]، الذي أرسل الشيخ الصوفي محمد بن أبي الفتح[٨] إلى جلال الدين بن خوارزم شاه[٩]،

---

(1) هو الملك الأمجد أبو المظفر بهرام شاه صاحب بعلبك تملكها بعد والده، وكان جواداً كريماً شاعراً محسناً، قتله مملوكه بدمشق سنة٦٢٨هـ/١٢٣٠م ، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٠. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٥٣. ابن العماد، شذرات، ج٥،ص١٢٦.

(2) بعلبك، مدينة قديمة، تقع في سوريا القديمة، يوجد فيها آثار عظيمة، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٨.

(3) سبق ترجمته.

(4) الذهبي، العبر، ج٣، ص١٧٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٤.

(5) هو غازي بن يوسف بن أيوب الملك الظاهر صاحب حلب، كان محسناً إلى الرعية وإلى الوافدين إليه، كان يزور الصوفية ويعتقد بهم، توفي سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن نظيف الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان" تحقيق، أبو العيد دودو، (دمشق، مطبعة الحجاز بدمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٧١. أبو شامة، الذيل، ص١٤٥.

(6) ابن عربي، محيي الدين أبي عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي، رسائل ابن عربي، تحقيق، محمد شهاب الدين العربي، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٤١٧هـ/١٧٩٧م)، ص٢٥٧. الخطيب، أسعد، البطولة والفداء عند الصوفية، دراسة تاريخية، (سورية، دار الفكر، ط٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص١١٦.

(7) هو الملك شرف الدين عيسى بن الملك العادل، كان عالي الهمة، كان حازماً شجاعاً، مهيباً، فاضلاً، محباً للأدب وجامعاً لأرباب الفضائل، حنفي المذهب، توفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٤٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبي شامة، الذيل، ص٢٢٩. ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٤٩٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢١.

(8) هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبي الفتح، كان محتسباً لمدينة دمشق، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، كان خبيراً بشؤون البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٨.

(9) هو جلال الدين بن خوارزم شاه، كان سيئ السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، ولقب خوارزم شاه، يحمله كل من يعد نفسه خليفة سلاطين السلاجقة في ملكهم بآسيا الغربية، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٣، ص٤٩٠. دائرة المعارف الإسلامية، ج٩، ص٦.

يستعينه على أخويه، الكامل[١]، والأشرف[٢]، الذين اتفقا ضده، فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة، ولما عاد الشيخ الصوفي محمد بن أبي الفتح، أضاف إليه الملك المعظم، لقب مشيخة الشيوخ[٣]."[٤]

هذه هي طبيعة العلاقة بين ملوك وسلاطين بني أيوب والسادة الصوفية، علاقة قائمة على الحب والاحترام والتقدير والثقة، والسمع والطاعة لنصائح كبرائهم وساداتهم، والاستعانة بهم في المهام السياسية.

أما علاقة سلاطين المماليك بالسادة الصوفية، فان أوضح ما يعكسها علاقة الظاهر بيبرس[٥] بالعديد من مشايخهم، الذين كانوا دائماً يرافقونه، ويصحبونه في معظم مهماته وأعماله ومعاركه، وكان على رأس هؤلاء المشايخ، الشيخ الصوفي خضر بن أبي بكر الكردي[٦]، الذي كان يسمى بشيخ الملك الظاهر بيبرس.

يقول ابن كثير واصفاً هذه العلاقة: "كان حظياً عنده مكرماً لديه، له عنده المكانة الرفيعة، كان السلطان ينزل في زاويته في كل أسبوع مرة أو مرتين، وكان يغدق عليه الأموال الكثيرة، وكان يمازحه إذا جلس عنده [٧]، ويطلعه على غوامض أسراره، ويستشيره في أموره، ولا يخرج عما يشير به، ويأخذه معه في أسفاره، وأطلق يده وصرفه في مملكته، وكان لايرد له طلب عند ملوك الأطراف"[٨]، وكان الملك الظاهر بيبرس، رجل متدين متمسك بأهداب الدين وأوامره

---

[1] هو أبو المعالي محمد، الملقب بالملك الكامل، كان ملكاً جليلاً، مهيباً وحازماً، حسن التدبير، مباشراً لإدارة ملكه بنفسه، كان يتفقد الرعية، محباً للعلم والعلماء والصوفية، يجالسهم ويغدق عليهم الأموال، توفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٨٠-٨١. أبي الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٦٣-٢٦٤.

[2] هو مظفر الدين موسى بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، كان مفرط السخاء، ميمون النقية، لم تنهزم له راية، كان سعيداً، يتفق له أشياء خارقة للعقل، كان حسن العقيدة في آخر عمره، حيث أقبل على العبادة والاستغفار، توفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبي شامة، الذيل، ص٢٥٣. أبي الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٦٢.

[3] مشيخة الشيوخ، هي من أكبر المناصب الدينية، مهمتها النظر في أمور المؤسسات الاجتماعية والدينية، ومشيخة شيوخ الصوفية، وظيفتها الإشراف على جميع الخوانق والزوايا، ورفع مطالبهم إلى الحاكم، والتحدث باسمهم، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٠.

[4] ابن عربي، الوصايا، ص٢٥٧. الخطيب، البطولة والفداء، ص١١٦.

[5] سبق ترجمته.

[6] سبق ترجمته.

[7] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦٥. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٣٤٧.

[8] المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٣٠. حسن، الصوفية والسياسة ، ص٨٨.

ونواهيه، متشدداً في تطبيق أحكام الشريعة، محارباً للبدع والمفاسد، أبطل الخمور، وأغلق الحانات، ونفى الفساق من البلاد، وكان لا يرى شيئاً من الفساد إلى سعى في إزالته بجهده وطاقتـــه، وكـــان ملازماً للصلوات الخمس في أوقاتها، وألزم حاشيته بها، ولما حـــج اصـــطحب معـــه العديـــد مـــن الصوفية، وأنفق عليهم من ماله الخاص.[١]

وقد شارك الظاهر بيبرس في سياسته تجاه الصوفية، معظم سلاطين المماليك الذين تولـــوا حكم بلاد الشام من بعده، أمثال السلطان قلاوون[٢]، الذي أتاح الحريـــة للـــصوفية، فـــي ممارســـة شعائرهم واحتفالاتهم بالمنسابات الدينية، والتي أهمها ذكرى مولد رسول الله ﷺ، وأهل البيت، وكان السلطان قلاوون وجميع الهيئات الرسمية في الدولة، يحرصون على حضورها، ومـــن المناســـبات الدينية ليلة الإسراء والمعراج، ورأس السنة الهجرية، وكان السلطان قـــلاوون ينفـــق علـــى هـــذه الاحتفالات بكل سخاء.[٣] وسار على نهجه ابنه الأشرف خليل، الذي اهتم بالصوفية، وجعلهم ضمن حاشيته، لاستشارتهم فيما يعود على البلاد بالأمن والاستقرار[٤]؛ لأنهم كانوا دعاة خيـــر، يـــسعون لنشر الفضيلة بين الناس، من خلال مجالس الوعظ والذكر، التي كـــانوا يقيمونهـــا فـــي المـــساجد والزوايا، هكذا كانت علاقة الصوفية مع الحكام المسلمين في بلاد الشام طـــوال مرحلـــة الحـــروب الصليبية.

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧١.

(2) هو الملك المنصور سيف الدين أبو الفتوح قلاوون كان قبل السلطة من أكبر الأمراء زمن الظاهر بيبرس، هزم التتار في حمص، وغزا الصليبيين أكثر من مرة، توفى سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٨٨. الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٧٠. البعلبكي، موسوعة المورد، ج٢، ص٩٢٤.

(3) جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، ص٢٤٥.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩١.

موقف صوفية بلاد الشام من الغزو الصليبي

لا يستطيع الباحث في تاريخ الحروب الصليبية أن يتجاهل الدور الذي قامت به الجماعات الصوفية كجزء من حركة اليقظة والإصلاح الإسلامي لكونها ربطت بين الإصلاح الاجتماعي، ومقاومة النفوذ الصليبي الذي يعتبر من أهم الأدوار الإيجابية الذي مارسته الصوفية الشامية خلال الحروب الصليبية، والذي يفند[١] الزعم القائل: "أن المتصوفة تقاعسوا عن الجهاد، وأنه لم تصل إليه هممهم[٢] القعيدة"[٣].

هذا الكلام ينطبق على الحركات الصوفية التي انحرفت عن مفهومها الأصيل، ودخلت عليها مفاهيم مسيحية، وفلسفية وهندية، قتلت فيها روح الجهاد والمقاومة.

أما الحركات الصوفية الأصيلة فان مهامها الأساسية تتمحور حول تكوين أجيال من المسلمين على التربية النفسية المفطومة عن الشهوات القادرة على مواجهة انحلال المجتمعات بايجابية وقوة، ومجابهة الغزو الخارجي بنفسية المجاهد المستعد للاستشهاد في سبيل حماية الفكرة، والذود عن البيضة[٤] والدفاع عن الأرض والوطن.[٥]

وفي ذلك يقول شوقي ضيف[٦]: "إنَّ زهادنا ومتصوفينا كانوا دائماً يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقاتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون."[٧]

يؤكد ذلك سرعة استنفار صوفية بلاد الشام عندما استشعروا خطر الحروب الصليبية الزاحف نحو بلادهم، تمثل ذلك بقيام ساداتهم المتطوعين من هنا وهناك للدفاع عن حوزة[٨] البلاد

---

[1] فند، بمعنى كذب، والتفنيد، تضعيف الرأي، الجوهري، الصحاح، ج١، ص٤٣٩.

[2] هممهم، هم بالشيء، إذا نواه وعزم عليه، والهمام هو الملك العظيم الهمة، لأنه إذا هم بأمر أمضاه ولا يرد عنه، ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٦٢٠-٦٢١.

[3] الزين، سميح عاطف، الصوفية في نظر الإسلام، (بيروت دار الكتاب، ط٢)، ص٧٢-٧٣.

[4] البيضة، بيضة كل شئ وحوزته، وبيضة القوم ساحتهم، الرازي، مختار الصحاح، ص٥٠.

[5] الجيلاني، الغنية، مقدمة المحقق، ص١٠. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٣٠٤.

[6] ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، "مصر – الشام"، (مصر، دار المعارف، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص٣.

[7] المصدر نفسه.

[8] حوزة، بمعنى ناحية، أحواز البلد، نواحيها، وحوزة الإسلام، حدوده ونواحيه، انظر: المقرئ، المصباح المنير، ص٩٦. الرازي، مختار الصحاح، ص٩٨. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٢٠٦.

ابتداءً من عهد الدولة الزنكية حتى بداية الدولة المملوكية إلى رحيل آخر جندي صليبي على يد سلطانها[1] الأشرف خليل.[2]

كما دأبت الربط كمؤسسات صوفية على دفع أبنائها للانخراط في صفوف المجاهدين، إذا ما أعلن نفير الجهاد من قبل الأمراء والسلاطين حرصاً منهم على الكفاح والاستشهاد.[3]

وسعى سلاطين البلاد أمثال نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي[4] من بعده على إقامة علاقات وثيقة مع رجالات الصوفية لاتخاذهم معيناً وسنداً لهم في حروبهم ضد صليبي بلاد الشام، فهذا نور الدين زنكي لم يجد أنجح من الاتصال بالصوفية لكسب تعاطف وثقة الشعب وإرغام أمراء الممالك للانضواء تحت لوائه في حروبه ضد الصليبيين يذكر لنا ابن الأثير تذمر صاحب حمص وتخاذله عندما دعاه نور الدين للزحف نحو قلعة حارم[5]. فيقول على لسانه: إنَّ نور الدين قد سلك طريقاً، إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقيّ المسلمون على أيدي الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرءون كتب نور الدين، ويبكون ويلعنوني، ويدعون عليَّ فلا بد من المسير إليه".[6]

هذا يدل على نجاح الصوفية في استنهاض همم الناس، وإثارة الرأي العام ضد الحكام المتخاذلين، وإرغامهم على النهوض لمساعدة نور الدين في محاربته للصليبيين.

---

[1] القادري، عبد الحي، الزاوية القادرية عبر التاريخ والعصور، (تطوان، مطابع الشويخ، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص٦٥.

[2] هو الأشرف صلاح الدين خليل، ابن السلطان سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ /١٢٩٠ م، قتله أمراءه سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيباني، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ط١، تحقيق، مهدي النجم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٣٢٥. الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٧٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٣-٣٤. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٣٨. السلوك، ج٢ ص٢١٨.

[3] انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٥٨. عيسى، عبد القادر، حقائق عن التصوف، (الأردن، المطبعة الوطنية، ط٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٥٩٤.

[4] هو يوسف بن أيوب بن شاذي، تكريتي الأصل والمولد، ملك البلاد ودانت له العباد، وأكثر من الغزو وهزم الصليبيين أكثر من مرة، كان شديد الهيبة، عالي الهمة، تولى السلطنة عشرين سنة، توفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص٩٩. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٣٥٠. حمزة، عبد اللطيف، ثلاث شخصيات في التاريخ "ابن المقفع – صلاح الدين – قراقوش" (مصر، الهيئة المصرية للنشر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، ص٢٢٣ وما بعدها.

[5] حارم، حصن حصين، من اعمال حلب في سوريا وهي منطقة خصبة غنية بأشجارها، وثمارها ومياهها، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٠٨.

[6] انظر: ابن الاثير، التاريخ الباهر، ص١٢٣. الكامل، ج٩، ص٤٦٧. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٤٤. معلوف، أمين، "الحروب الصليبية كما رآها العرب"، (بيروت، دار الفارابي، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص١٨٤. العسلي، فن الحرب الإسلامي، ج٦، ص٤٥٨.

ولقوة تفاعل الصوفية مع الأحداث الساخنة في المجتمع الشامي، كان لهم نصيب في الوفد الحلبي، الذي أرسله أهالي حلب إلى الخليفة العباسي المستضيء[١] عام ٥٠٤ هـ /١١١١م، حيث تجمهر هذا الوفد في جامع السلطان وأعلن احتجاجه على عدم إرسال الجيوش لإغاثة أهل الشام مما أصابهم من الصليبيين، من قتل الرجال وسبيّ النساء والأطفال، ولشدة احتجاجهم وتذمرهم على تقاعس الخليفة والسلطان، أنزلوا الخطيب من على المنبر وكسروه، وصاحوا وبكوا، ومن كثرة ضجيجهم بطلت الجمعة، مما كان سبباً في دفع السلطان إلى إعلان النفير والاستعداد للجهاد[٢]

هكذا كانت الحركة الصوفية تقوم بكل عمل واعٍ ومقلق لمواجهة التوسع الصليبي في وطننا الإسلامي في ذلك العصر، فكانت بمثابة النفير الذي يُوقِظ الجماهير من غفلتها، ولقد استغل السلطان نور الدين قوة نفوذ هذه الحركة في حروبه ضد الصليبيين فكان على اتصال دائم بالشيخ عبد القادر الجيلاني[٣] المتواجد في بغداد، والذي كان يقوم بإعداد مريديه[٤] للانضمام في جيش نور الدين، والقيام بمهمة الوعظ ورفع المعنويات بخطبهم ومواعظهم المؤثرة التي كانوا يلقونها على الجنود قبل تقدمهم لساحة المعركة.[٥]

كما كان نور الدين يحرص على زيارة مشايخ الصوفية تبركاً بهم، وطالباً الدعاء منهم، كحرصه على زيارة الزاهد الصوفي حياة بن قيس الحرَّاني[٦] الذي كان يقوي عزم نور الدين على جهاد الفرنج ويدعوا له[٧] وكان يداوم على زيارة الشيخ الصوفي أبو الحسين المقدسي[٨] وهو الذي شجع نور الدين على فتح عزاز[٩] بعد أن أقنعه باقتحامها من خلال مجسم طيني صنعه هذا الشيخ

---

[1] هو الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله، بويع بالخلافة وقت موت أبيه سنة ٥٦٦ هـ /١١٧٠ م، مات سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٩٧. الذهبي، العبر، ج٣، ص٦٧. االيافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٣٠٥.

[2] ابن القلانسي، الذيل، ص١٧٣. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١٠٩. ابن العديم، زبدة حلب، ص١٥٨. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢، ص٥٣٦. الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص١٩.

[3] هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الزاهد، شيخ العصر وقدوة العارفين، توفي سنة ٥٦١ هـ /١١٦٥ م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٦. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٢٦٦. الكوهن، طبقات الشاذلية الكبرى، ص٧٧.

[4] مريديه، أي أتباعه، مفردها مريد، والمريد هو من انقطع إلى الله عن استبصار وتجرد، الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، ص٢٤٢.

[5] الكيلاني، ماجد عرسان، "هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس"، (السعودية، الدار السعودية للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص١٨٩.

[6] سبق ترجمته.

[7] الذهبي، سير أعلام، ج١٥، ص٣٧١. تهذيب سير أعلام، ج٣، ص١١٦.

[8] هو محمد بن عبد الملك، صوفي ومؤرخ، من آثاره عيون السير في محاسن البدو والحضر، توفي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: البغدادي، هدية العارفين، ج٢، ص٨٥. كحالة، معجم المؤلفين، ج٣، ص٤١٣.

[9] عزاز، بلدة صغيرة، فيها قلعة، تقع شمال حلب، ياقوت، معجم البلدان، ج٦، ص٣٢٤.

لهذه القلعة موضحاً عليه خطة الهجوم وكيفية الزحف، وعندما توصل لإقناع نـور الـدين بفتحهـا ورأى منه الموافقة، صاح فرحاً مستبشراً، نصر من الله وفـتح قريـب، نـصر مـن الله وكـسر الصليب،[١] وقيام هذا الصوفي برسم مجسم لاقتحام قلعة عزاز يدل على خبرته العسكرية في اقتحام القلاع[٢] ويدل أيضاً على مشاركة الصوفية في صنع القرار.

كما كانت زواياهم وربطهم تقوم بمهام ايجابية ونوعية مثل رصد ومراقبة تحركات العـدو، تمثل ذلك في رباط الشيخ الصوفي رسلان الدمشقي[٣] الذي كان موقعه خارج أسوار سوريا، كأنـه مخفر[٤] يحمي حرس الحدود الذين يطوفون حول المدينة، بعد إغلاقها ليلاً، كي لايكون هناك عـدو مباغت، وكان المريدون يترددون إلى رباطه يتعلمون فيه جميع أنواع الدراسة، ويتـدربون علـى الفنون الحربية.[٥]

وكان أتباع هذه الزوايا والربط المقامة على المنـاطق الحدوديـة القريبـة مـن الأعـداء ينخرطون في صفوف المجاهدين متى رأوا الفرصة سانحة لذلك، وإذا كتب الله لهم الحياة، يعودون بعد انتهاء المعارك إلى ربطهم وزواياهم من غير أن يتركوا أي أثر يـدل علـى اشـتراكهم فـي المعارك، يتيح للأعداء سبيلاً للإطلاع على حقيقة أمرهم، حتى يستمروا في المقاومة، وتتـاح لهـم المشاركة في المعارك القادمة[٦].

ويمكن القول أن الصوفية كانوا في ربطهم وزواياهم الحدودية، يتعبدون ويقرعون، فإذا مر عليهم جيش إسلامي متوجهاً إلى غزو عدو ينضمون إليه منخرطين في صفوفه، يحاربون ويقاتلون أعداء الله من الصليبيين، وإذا ما كتب الله لهم النجاة، يعودون إلى ربطهم، يتعبدون وكأنهم لم يفعلوا شيئاً، تمويهاً على الأعداء، الذين في الغالب يكونون على مقربة منهم.

وعلى مدار الحروب الصليبية، وقف شيوخ الصوفية إلى جانب فقهاء وعلماء بلاد الشام في التصدي للعدوان الصليبي، تمثل ذلك في خروج الشيخين الكبيرين يوسف الفندلاوي[٧] شيخ المالكية

---

[1] ابن العديم، بغية الطلب، ج١٠، ص٤٤١٩.

[2] القلاع، مفردها قلعة، وهي الحصن في الجبل، وقيل القلعة حصن مشرف، والقلاع هي، الصخور الضخمة، معنى ذلك أن القلاع تبنى عادة من الحجارة الضخمة، ابن منظور، لسان العرب، ج٢٨، ص٢٩٠.

[3] هو الشيخ رسلان بن يعقوب الجعبري الحنبلي، الزاهد المشهور، توفي سنة ٥٤٠ هـ /١١٤٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٥، ص١٤٤. البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٣٦٧.

[4] المخفر، هو مكان الحراسة، والخفير هو الحارس، والمخفر هو المكان الذي يتواجد فيه الجنود الذين يحرسون البلـد مـن الأعداء، انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص١٠٩. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٢٤٦.

[5] انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٥، ص١٤٤. الخطيب، البطولة والفداء، ص٨٥.

[6] انظر: فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ٤ أجزاء، (بيروت، دار العلـم للملايـين، ط٧، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج٣، ص٤٣١.

[7] هو يوسف الفندلاوي، المغربي المالكي، كان فقيهاً عالماً صالحاً توفي سنة ٥٤٣هـ /١١٤٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٥، ص٣٥. العبر، ج٢، ص٤٦٥. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٧٣.

بدمشق، وعبد الرحمن الحلحولي[١] الشيخ الصوفي الزاهد، وينقل لنا ابن منقذ[٢] الحوار الذي دار بينهما، عند اقترابهما من الجيش الصليبي، "قال الفقيه لعبد الرحمن: ما هؤلاء الروم – يعني الصليبين – قال بلى: قال فإلى متى نحن وقوف؟ قال سِر على اسم الله تعالى فتقدما وقاتلا حتى قُتلا رحمهما الله في مكان واحد.[٣]

هذا هو جهاد صوفية بلاد الشام في عصر الدولة الزنكية، أما جهادهم في عهد الدولة الأيوبية، فتمثل في مشاركتهم للسلطان صلاح الدين الأيوبي في معظم معاركِهِ التي خاضها ضد الصليبين، والتي كان على رأسها معركة حطين[٤]، وتحرير بيت المقدس[٥]، حيث تجلَّى دورهم الجهادي بصورةٍ واضحة في هذين الحدثين الجليلين، يستشف ذلك من خلال ما أوردته المصادر التاريخية[٦]، من المواقف البطولية التي قام بها السادة الصوفية أمثال الشيخ أبو عمر

---

(1) هو عبد الرحمن الحلحولي، نسبة إلى قرية حلحول إحدى القرى الفلسطينية، قريبة من بيت المقدس، وهو محدث زاهد، ولد بحلب، توفي شهيداً سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٧٢.

(2) هو أسامة ابن منقذ الكناني الكلبي الشيزري الملقب مؤيد الدولة، سكن دمشق وأقام بها حتى مات صلاح الدين، توفي سنة ٥٨٤هـ /١١٨٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج١، ص١٩٥. الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٧. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٣٢٣. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٩٧. ابن منقذ، المنازل والديار –المقدمة-، ص٣١. الكيلاني، أحمد قدري، "الأمير الفارسي والأديب الشاعر أسامة بن منقذ"، سيرة حياته، (سورية، المطبعة العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص٣٥.

(3) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٩٨. ابن منقذ، الاعتبار، ص١٢٧. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٨. عوض، محمد مؤنس أحمد، سندباد في عصر الحروب الصليبية، (مصر، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٨٦.

(4) حطين قرية في شمال فلسطين بين أرسوف وقيسارية، في سهل خصيب غرب بحيرة طبرية، وفيها وقعت المعركة الشهيرة التي انتصر فيها صلاح الدين وشتت شمل الصليبين، للمزيد عن القرية والمعركة، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٦. الاصفهاني،الفتح القسي، ص٥٧. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٤٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٨٨. أبي الفداء، المختصر في إخبار البشر، ج٢، ص١٥٥. دائرة المعارف الإسلامية، ج٧، ص٤٦٩.

(5) تحرر بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧ م. من الصليبيين على يد صلاح الدين، للمزيد من المعلومات، الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٩١. ابن خلدون، العبر، ج٥، ص٣٦٨. ابن العبري، أبو الفرج غر يغوريوس بن أهارون الملطي، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه، خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص١٩٢. المقريزي، السلوك، ج١، ص٢١٠. مصطفى، فلسطين ما بين العهدين، الفاطمي والأيوبي، الموسوعة الفلسطينية، (بيروت، هيئة الموسوعة، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج٢، ص٤١٠. عاشور، سعيد عبد الفتاح، "الحركة الصليبية" صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى"، جزءان، (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ج٢، ص٦٣٧.

(6) انظر: أحداث، سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م. ابن الأثير، الكامل، ج١٠. أبو شامة، الروضين، ج٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢.

المقدسي[١]، الذي شارك نور الدين معظم غزواته، وحضر مع صلاح الدين معركتي حطين وفتح بيت المقدس، يقول عنه ابن كثير: "كان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني[٢]، وأخوه الشيخ العماد[٣]، لا ينقطعون عن غزوة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح بيت المقدس والسواحل وغيرها"[٤]

كما حضر فتح بيت المقدس، الشيخ أحمد المعروف بالقدسي، واشتهر بأبي ثور[٥] لأنه قاتل الصليبيين أثناء فتح بيت المقدس وهو راكب ثوراً[6].

وهذه الرواية توحي لنا شغف الصوفية واندفاعهم للمشاركة في الجهاد، فتلبية الشيخ أحمد لنداء الجهاد، وقتال الصليبيين على ثور، يدلل على أنه لم يجد دابة غيرها يحارب عليها.

ومما يدلل على أن الصوفية دائماً يكونون في طليعة الملبين لنداء الجهاد، وأنهم يبلون بلاءً حسناً في مقاتلتهم للصليبيين، إطلاق أعلى الألقاب الجهادية عليهم، فتشبيه الشيخ الصوفي عبد الله اليونيني[٧] بالأسد، حيث كان يعرف بأسد الشام، يدلل على أن هذا اللقب لم يأتِ من فراغ، وإنما جاء نتاجاً طبيعياً لدوره الحربي الفعال ضد الصليبيين، حيث وصفه المؤرخون[٨] بأنه تام الشجاعة،

---

(1) هو الشيخ الزاهد محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، أخو العلامة موفق الدين، ولد بجماعيل، وهاجر إلى دمشق، بسبب احتلال فلسطين من قبل الصليبيين، كتب الكثير بخطه، وحفظ القرآن والفقه والحديث، وكان إماماً فاضلاً عابداً قانتاً، كثير النفع لخلق الله، توفي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص١٤٧. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٣. مطيع، المدرسة العمرية، ص١٧.

(2) هو عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الحنبلي، هاجر إلى دمشق بعد الخمسين من عمره، صنف التصانيف، وظل يدرس ويكتب إلى أن توفاه الله وإليه انتهى حفظ الحديث متناً وسنداً كان ورعاً وعابداً آمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر، توفى سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص١٢٩. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٣٧٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٦٥.

(3) هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، قدم دمشق سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، سمع الحديث وكان زاهداً ورعاً كثير الصيام يصوم يوماً ويفطر يوماً وكان فقيها مفتيا وله كتاب "الفروع"، توفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، وكان يوم وفاته يوماً مشهودا من كثرة الناس، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص١٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٧٧.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٥٨-٥٩. مطيع، المدرسة العمرية، ص١٧.

(5) هو الشيخ، الإمام الزاهد، العابد المجاهد، احمد الشهير بالقدسي، للمزيد عن ترجمته، انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٣٨. النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج١، ص٤٠٢.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٣٨. الخطيب، البطولة والفداء، ص٩٨. درزينة، محمد أحمد، صفحات من جهاد الصوفية والزهاد، (طرابلس، جروس برس للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص٣٧.

(7) اليونيني، هو أبو عثمان بن عبد العزيز، كان شيخاً مهيباً، دائم الذكر، عظيم الشأن، منقطع القرين، صاحب مجاهدات وكرامات، ت٦١٧هـ /١٢٢٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر، الذهبي، سير أعلام، ج١٦، ص١٢١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٣.

(8) أمثال، الذهبي، ت٧٤٨هـ /١٣٤٧م. العليمي، ت٩٠٠هـ /١٤٩٤م. ابن العماد، ت ١٠٨٩ هـ /١٦٧٨م.

مشارك في كل الغزوات الجهادية ضد الصلبيين في بلاد الشام، فلا يبالي بالأعداء، قلوا أم كثــروا، وكان دائماً يتمنى الشهادة فحصلت له.[١]

ولحسن بلاء الصوفية، وقوة تضحياتهم، وأثرهم الواسع في المعارك التـــي خاضـــوها مـــع صلاح الدين، وعلى رأسها معركة حطين، وفتح بيت المقدس الذي أكرم الله بها المـــسلمين، حيـــث كان نصراً كبيراً، وفتحاً عظيماً، شهده من أهل العلـــم والفقهـــاء والـــصوفية أربـــاب الخـــرق[٢]، وخلق كثير[٣].

قدَّر صلاح الدين هذه التضحيات، فجعل الصوفية والفقهاء في قمة أولوياته عند ترتيبه لبيت المقدس في مجلسه الأول الذي عقده مع الأعيان والقادة والعلماء والصوفية، وشاورهم فـــي إنـــشاء مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للصلحاء الصوفية.[٤]

وجاءت مبادرة الصوفية في التلبية لنداء الجهـــاد، وســـرعة اســـتنفارهم، وشـــدة إقـــدامهم واستبسالهم في قتالهم من شدة حنقهم[٥] على الصليبين، الذين قتلوا شيوخهم، وإخوانهم الذين كـــانوا مرابطيـــن، ومجاوريـــن لبيت المقـــدس، وقـــت غـــزوهم وســـيطرتهم عليـــه ســـنة ٤٩٢ هــ/١٠٩٩م، ولعلَّ صـــلاح الديـــن الأيوبـــي أدرك رغبـــة حـــب الثـــأر والانتقـــام لـــدى صوفيـــة بـــلاد الشام؛ لذلك رأيناه في أعقاب معـــركـــة حطين عام ٥٨٣هــ/١١٨٧م، وبعـــد هزيمتـــه للصليبيـــن، يأمـــر قادتـــه وجنـــوده بإحـــضـــار عنـــاصر الإسبتـــاريـــة[٦]

---

[١] الذهبي، العبر، ج٣، ص١٧٣. الغساني، الملك الأشرف، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق، شاكر عبد المنعم، (بيروت، دار التراث الإسلامي، ١٣٩٥هــ/١٩٧٥م)، ج٢، ص٣٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٢١. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٧٣.

[٢] الخرق، يقصد بهم الصوفية، والخرقة هي لباسهم، حيث كانت شعاراً لارتباط الشيخ والمريد، وفيها معنى المبايعة وهـــي عتبة الدخول في الصحبة، الحنفي، معجم مصطلحات الصوفية، ص٨٩.

[٣] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٥٣. ابن خلكان، وفيات، ج٧، ص١٧٩. أبو شامة، الروضين، ج١، ص٣١١.

[٤] الأصفهاني، الفتح القسي، ص١٤٥. العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص٤٨٥. الحياري، مصطفى، "القدس في زمن الفاطميين والفرنجة"، (عمان، مكتبة عمان، ١٤١٥هــ/١٩٩٤م)، ص٨٠. مصطفى، فلسطين ما بين العهدين، ص٤٩٥.

[٥] حنقهم، أي شدة حقدهم وغضبهم، وأحنق، أي حقد حقداً لا يزول، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج٣، ص٢٢٤. أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ص٢٠٣.

[٦] الاسبتارية، بدأت عام ٤٦٣ هــ/١٠٧٠م وهي جماعة تقوم بالاشراف على المرضى الصليبين وعلاجهم ثم تحولت إلـــى منظمة عسكرية، واتخذت تلك الهيئة طابعاً عسكرياً حربياً وصار عليها الالتزام بالدفاع عن ممتلكات الصليبين في الشرق الإسلامي، وحماية الاماكن المقدسة، ومحاربة المسلمين، قامت بنشاط كبير تمثل في دعوات متتالية من اجل الحرب ضـــد المسلمين لدرجة أن أصبح الفرسان يمثلون القوة العسكرية في الدعوات المتتالية من اجل الحرب على المسلمين، واصبحوا يمثلوا القوة العسكرية المحافظة على الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي، انظر: عاشور، فايد حمّـــاد محمـــد، "جهـــاد المسلمين في الحروب الصليبية العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي" (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١م/ ١٩٨١م)، ص٩٢. عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٨٩.

والداويـــة[١] أمامه، وعندما تجمعوا بين يديه، أمر بقطع أعناقهم، وكلَّف بذلك جماعة من الــصوفية كانوا جالسين بحضرته، بأن يقوم كل واحد منهم بقطع رقبة صليبي، وتم قــتلهم جميعــاً بحــضرة السلطان، بعد أن تم عرض الإسلام عليهم، ورفضهم جميعاً له[٢].

واستمر جهاد الطرق الصوفيــة للصليبيــن تحــت مظلة الحكام الأيــوبيين، حتــى زوال دولتهــم، وبداية الحكم المملوكي[٣]، الذي نشطــت فيه الحركة الصوفيــة، بسبب رعاية واهتمــام السلاطين المماليــك بها، نجد ذلك في خضــوع الظــاهر بيبــرس[٤] للشيــخ الصــوفي خضــر الكردي[٥]، الذي كان يحادثه بكل أسراره، ويصحبه معه في كل غزواته وأسفاره[٦].

ونجد نشاطهم وجهادهم ضد الصليبيين في الدور الجهادي الذي قام به الشيخ الــصوفي أبــو الحسن الشاذلي[٧] مع إخوانه من الصوفية والعلماء، أمثال العز بن عبد السلام[٨]، وغيره من السادة الصوفية والفقهاء، حيث كانوا يجوبون الشوارع يحثون الناس على الجهــاد، ويُــذكرونهم بالنــصر

---

(1) الداوية، نشات على أساس حربي سنة ٥١٢هــ /١١١٨م، مقرها الأول يقع في جزء اقصى من بيت المقدس ولهذا اكتسبت الجماعة اسم فرسان المعبد التي عرفت فيما بعد باسم الداوية، وكان من أهم مهامها حماية الطريق ما بين القدس وشاطئ البحر المتوسط ثم تطور نشاطهم فأصبح لها دور حربي يقوم به الصليبيون في بلاد الشرق الإسلامي ضد المسلمين، انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٧٧، حاشية رقم ٥. رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمــة الــسيد البــاز العريني، (بيروت، دار الثقافة ١٣٩٠هــ/١٩٧٠م)، ج٢، ص٢٤٩. عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٨٩. فايد، جهاد المسلمين، ص٩٢.

(2) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٦٢. أبوشامة، الروضين، ج٣، ص١٨٦. البنداري، سنا البرق، ص٢٩٨. العليمي، الأنــس الجليل، ج١، ص٤٦٦.

(3) بدأ الحكم المماليكي بعد انتهاء الدولة الأيوبية سنة ٦٢٨هــ/١٢٣٠م، وهو العام الذي تولت فيه شجر الدر جارية الملــك الصالح نجم الدين أيوب حكم البلاد، انظر: دحلان، تاريخ الدولة الإسلامية، ص٩٩.

(4) هو الملك الظاهر، سلطان الديار المصرية، وبلاد الشام، والأقطار الحجازية، وهو الرابع من ملوك المماليك، وقد كان شهماً شجاعاً عالي الهمة، له قصد صالح في نصرة الإسلام، بنــى المــساجد والجوامــع والخوانــق الكثيــرة، تــوفي ســنة ٦٧٦هــ/١٢٧٧ م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٧٦. اليافعي، مــرآة الجنــان، ج٤، ص١٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨٦. حسين، المائة الأعظم، ص٢١٠.

(5) كان االشيخ خضر عالماً يتنبأ بالغيب، صاحب كشف، تغير عليه السلطان بعد شدة خضوعه له وانقيــاده لإرادتــه، تــوفي مسجوناً سنة ٦٧٦هــ /١٢٧٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: إبن كثير، البدايــة والنهايــة، ج١٣، ص٢٧٨. المقريــزي، السلوك، ج٢، ص١٠٢. الشعراني، الطبقات الكبرى، ص٢٨٨.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٨. الشعراني، الطبقات الكبرى، ص٢٨٨.

(7) هو أبو الحسن، شيخ الطريقة الشاذلية، الذي انتشرت في جميع العالم العربي والاسلامي، له العديد من الأقوال الحكيمــة، توفي سنة ٦٥٦هــ /١٢٥٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الكوهن، الطبقات الشاذلية الكبرى، ص١٩.

(8) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم الإمام العملاق وحيد العصر، سلطان العلماء الحنبلــي، تــوفي ســنة ٦٦٠ هــ/١٢٦١م، للمزيد عن ترجمته، انظر: اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١١٦. المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٠٤. ابــن العماد، شذرات، ج٥، ص٣٠٠.

والجنة[١]، ولقد تنقل السادة الصوفية العلماء ومعهم مريدوهم وتلاميذهم في المدن المصرية، يحثون الناس على التضحية والفداء، أثناء الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ولقد كان نشاط هؤلاء العلماء وجهادهم، من أهم عوامل رفع الروح المعنوية للمقاتلين وتقوية عزائمهم[٢].

كما ظهر نشاط الصوفية الجهادي خلال حصار المسلمين بقيادة السلطان الظاهر بيبرس لقلعة أرسوف[٣]، التي كانت أحداثها سنة ٦٦٤ هـ /١٢٦٥م[٤]، حيث شارك فيها السلطان الجنود بنصب أدوات الحصار، آمراً حاشيته بألا يشتغلوا بخدمته، يقول المقريزي واصفاً هذا الحصار: "كان بين الفريقين قتال عظيم، استشهد فيه جماعة، وكان الواحد من المسلمين إذا قتل، جره رفيقه ووقف موضعه، وتكاثرت الثقوب، ودخل النقابون إليها، ودخل السلطان معهم، وبذل السلطان في هذا اليوم من المال والخلع كثيراً، ونصب خيمة فيها حكماء، وأشربة ومأكل، فصار من يجرح من العربان والفقهاء والفقراء[٥] "أي الصوفية"، وغيرهم يحضر إليها"[٦].

هذا هو جهاد صوفية بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، واستمرارهم فيه حتى رحيل آخر جندي صليبي عن الديار الشامية، سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١م.

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣،ص١٧٧. المقريزي، السلوك، جزء ١ ص٤٤٥. عبد الحليم، المدرسة الشاذلية، ص٦٧.

(2) انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٤٦ -٤٤٨. صبره، عفاف سيد، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، جزءان، (القاهرة، دار الكتاب لجامعي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م)، ص٧٦-٧٧. عامر، الطرق الصوفية، ص١٩١. محمود، عبد الحليم، "المدرسة الشاذلية الحديثة وأمامها أبو الحسن الشاذلي"، (مصر، دار الكتب الإسلامية)، ص٦٧.

(3) أرسوف، مدينة على ساحل بحر الشام، شمال يافا، ياقوت، معجم البلدان،ج١، ص١٢٦.

(4) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٣.

(5) كان أهل الشام يسمون الصوفية فقراء، انظر: الطوسي، اللمع، ص٢٧.

(6) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٤.

موقف الإمام الغـــزالـــي من الغزو الصليبي لبلاد الشـــام

أُخِذَ على الإمام الغزالي عدم مشاركته في قتال الـصليبيين، وخلـو كتاباتـه مـن الـدعوة لمحاربتهم، والتحريض على قتالهم، يقول عمر فروخ [١] في ذلك: " ألا يعجب القـارئ إذا علـم أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي، الذي وقف نفسه وعلمه على خدمة الـدين؛ لحفـظ الإيمـان علـى العامة، شهد القدس تسقط في أيدي الإفرنج الصليبيين، وعاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك، ولم يـشر إلى هذا الحادث العظيم، ولو أنه أهاب بسكان العراق وفارس وبلاد الترك، لنـصرة إخـوانهم فـي الشام، لنفر مئات الألوف منهم للجهاد في سبيل الله... وما غفلة الغزالي عن ذلك، إلا لأنه كان فـي ذلك الحين قد انقلب صوفياً، أو اقتنع على الأقل بأن الصوفية سبيل من سبل الحياة، بل هي أسَدَّ تلك السبل وأسعدها "[٢].

ويقول زكي مبارك في ذلك[٣]: "بينما كان بطرس الناسك[٤] يقضي ليله ونهاره فـي إعـداد الخطب، وتحبير الرسائل، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزالي غارقاً فـي خلوته، منكباً على أوراده، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد"[٥].

ويقول في موضع آخر: "ويكفي أن نذكر أن الإفرنج قبضوا على أبي القاسم الرملي الحافظ[٦] يـوم فتح بيت المقدس، ونادوا عليه؛ ليفتدى فلم يفتده أحد، ثم قتلوه، وقتلوا معه مـن العلمـاء عـدداً لا

---

(1) هو الدكتور عمر فروخ كان عضوافي مجمع اللغة العربية سنة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، وعضواً في المجمع العلمي العربـي في دمشق، وعضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي له كتابات من أشهرها كتاب التصوف في الإسلام، للمزيد عـن ترجمته، انظر: فروخ، عمر، التصوف في الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، التـصوف فـي الإسلام، المقدمة، ص١.

(2) فروخ، التصوف في الإسلام، ص٩-١٠.

(3) هو الأستاذ الدكتور، زكي مبارك كاتب وصحفي له كتابات عده، أهمها كتاب، الأخلاق عند الغزالي، والذي نال به درجـة الدكتوراه سنة ١٣٦٠هـ/١٩٢٤م، وهو أديب وشاعر له ديوان شعري يعرف بديوان زكي مبارك، وكتاب المدائح النبوية، وكتاب النثر الفني جزءان، وكتاب التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق جزءان، للمزيد عن ترجمته، انظر: مبـارك، زكي، "التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق"، جزءان، (مصر، مطبعة الرسالة، ط١، ١٣٥٧/ ١٩٣٨م)، المقدمة، ج١، ص٤.

(4) هو بطرس الناسك قائد الحملة الشعبية إلى بلاد الشام، وحشد العامة الذي كان يرأسه بطرس الناسك بلغ عدده حـوالي ٤٠ ألف، وكان قد جمعه من كل شعب وقبيلة وعرق وأمة وهذه الحملة أبادها السلاجقة على يد القائد المسلم قلج أرسلان سنة ٤٩٢هـ ١٠٩٦م، للمزيد عن ذلك، انظر: وليم، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص١٨٠. سميث، جوناثان ريلي، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة، محمد فتحي الشاعر، (مصر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتـاب، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص٩٣-٩٤. ماير، إتش، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة، محمد فتحي الشاعر، (القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٠م)، ج١، ص٦٥. عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١١٢.

(5) مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص١٧.

(6) لم أعثر على ترجمته.

يحصيه إلا الله...، وكتب الغزالي لا تنبئ بشئ عن تلك الأزمة التي عاناها المسلمون حين ابتـدأت الحروب الصليبية" [١].

الحقيقة أن موقف الغزالي من الحروب الصليبية ومن احتلالهم لبيت المقدس موقف محيـر، وهو العالم الفقية الذي لا يجهل ما يجب أن يقال، وما يجب أن يعمل في زمن الإغارة علـى أهـل الإسلام، وهو صاحب الكلمة المسموعة، والصيت المدوى، والبيان المؤثر، والحجة البالغـة، وهـو يرى أن الجهاد في مثل هذه الحالة فرض عين، على كل قادر من المسلمين [٢] لقوله تعالى: { انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } .[٣]

وهو الذي أفرد في كتابة مكاشفة القلوب [٤] باباً خاصاً عن فضل الجهاد، مستدلاً بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية منها قوله تعـالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [٥].

وعن النعمان بن بشير [٦] قال: "كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال: رجل مـا أبـالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: لا أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسـلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: للجهاد أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر بن الخطاب، وقـال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاسـتفتِه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [٧]،[٨]

---

[1] مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص١٧.

[2] القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص١٨٠.

[3] التوبة، آية ٤١.

[4] هو أحد كتب الغزالي يحتوي على ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط، يشتمل على ١٠٥ أبواب أولها باب الخوف، وأخرهـا باب في وفاة النبي صلى الله علية وسلم، انظر: البغدادي، هدية العارفين، ج٢، ص٨٠.

[5] الحجرات، آية ١٥.

[6] هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس، وهو أول مولود من الأنصار بعد هجرة النبي ﷺ بأربعة عـشر شـهراً روى عن النبي ﷺ وعن عائشة، كان قاضي دمشق استعمله معاوية على الكوفة ثم نقله إلى حمص، كان خطيبـاً مفوهـاً استشهد سنه ٥٦هـ - ٦٨٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بـن عبـد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ أجزاء، تحقيق، محمد البجاوي، (القاهرة، دار نهضة مصر)، ج٤، ص١٤٩٦، ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٨ أجزاء، ضبطه، علي البجاوي، (مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر)، ج١، ص٣١٢.

[7] التوبة، آية ١٩.

[8] الغـزالي، أبي حامد محمد بن محمد، مكاشفة القلوب، (القاهرة، دار الفجر للتراث، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، ص٢١٢.

وهو الذي علق على حديث أبي هريرة [١] الذي قال فيه: "مر رجل من أصحاب النبي ﷺ بشعب فيه عُيَيْنه من ماء عذبه فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ولن افعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة، أغزوا في سبيل الله تعالى، من قاتل في سبيل الله تعالى فواق ناقة، وجبت له الجنة " [٢] فإذا كان الصحابي الجليل لم يأذن له رسول الله ﷺ في العزلة مع اجتهاده في الطاعات، وتعاطيه من الطيبات، بل أرشده ﷺ إلى الجهاد، فكيف يليق بنا تركه مع قلة طاعتنا، وكثرة سيئاتنا، وتعاطينا ما جهل حله من الأقوات، وفساد العزائم والنيات" [٣].

كما أورد الغزالي في باب الجهاد أحاديث نبوية أخرى تبين فضل الجهاد، وتحث عليه، فمنها قول رسول الله ﷺ : "إن مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع". [٤]

وقال رسول الله ﷺ: "من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، وجبت له الجنة، فعجب لها أبو سعيد الخدري[٥]، فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال، وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله " [٦].

وهو الذي أفرد في موسوعته "إحياء علوم الدين" كتاباً بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنه الكثير من أقواله التي تحث على مواجهة الكفار وقتالهم، فمثلاً عند تفسيره لقوله

---

[1] هو عبد الرحمن ابن صخر، وقيل ابن غنم، وقيل ابن عائد، حيث اختلف في اسمه وأبية اختلافاً كثيراً، وهو صاحب رسول الله ﷺ الذي روى عنه الأحاديث الكثيرة، توفى سنة ٥٩هـ/٦٧٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١٠، ص٢٩٤.

[2] الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي، جزءان، تحقيق، فواز أحمد زمرلي، (القاهرة، دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج ٢، ص٢٦٥. ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، جزءان، علق عليه، محمد عبد الباقي، (مطبعة دار إحياء الكتب العربية)، ج٢، ص٩٣٤. النسائي، السنن الكبرى، ج٣، ص١٨.

[3] الغزالي، مكاشفة القلوب، ص٢١٢.

[4] النسائي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، ٦ أجزاء، تحقيق، عبد الغفار البنداري، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ج٣، ص١٣.

[5] هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري أبو السعيد الخدري، له ولأبية صحبه مع رسول الله ﷺ، أستصغر يوم معركة أحد، ثم شهد ما بعدها من المعارك، وروي الكثير من الأحاديث، توفى سنة ٦٥هـ/٦٨٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن حجر، تقريب التهذيب، جزءان، ضبطه وحققه، صدقي العطار، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ج١، ص٢٠١.

[6] النسائي، السنن الكبرى، ج٣، ص١٤٠.

تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [١] يقول "لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل... أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جرأته واعتقادهم في سائر المسلمين قله المبالاة وحبهم للشهادة في سبيل الله فتنكسر بذلك شوكتهم"[٢].

وعند حديثة عن الزهد يعرفه قائلاً "أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا، يقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء، فإن من أراد شيئاً أراد دوامه، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال {وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ} [٣]... فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين، أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله، أو نيل رتبة الشهادة. [٤]

هذا كلام الغزالي في موسوعته "إحياء علوم الدين" تكلم عن جهاد الكفار وقتالهم، وتكلم عن الشهادة وتسابق المخلصين إليها، لنصرة دين الله، ولا شك أن الصليبيين الكفار في اعتقاد الغزالي يجب محاربتهم؛ لاغتصابهم واحتلالهم لأراضي المسلمين، وهذا يدحض قول القائلين، إنه لم يتطرق لقتال الصليبيين في كتاباته.

كما كان للغزالي باع طويلة في نصيحة الحكام وتوجيههم إلى ما فيه الخير للإسلام والمسلمين، وله في هذا الجانب كتاب أسماه "التبر المسبوك في نصيحة الملوك"[٥]، ولم يقتصر الغزالي على إبداء النصيحة فقط، بل أبدى رأيه، وجهر بالحق أمام الملوك كلما سنحت له الفرصة، وقد قال للسلطان سنجر[٦] ابن ملك شاه السلجوقي الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها "أسفاً إن رقاب المسلمين كادت تنقضّ بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك كادت تنقضّ بالأطواق الذهبية[٧].

---

[1] البقرة، آية ١٩٥.

[2] الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣١٩.

[3] النساء، آية ٧٧.

[4] الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٢٢٧.

(5) الغزالي، أبي حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، راجعه، سامي خضر، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

[6] هو سنجر أبو الحارث ابن ملك شاه بن ألب أرسلان، سلطان خرسان، وما وراء النهر، خطب له في العراق والموصل وديار بكر والشام، وتلقب بالسلطان الأعظم، كان من أعظم الملوك همه، وأكثرهم عطاءً توفى سنة ٥٥٢هـ، ١١٥٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان وفيات، ج٢، ص٤٢٧. الذهبي، العبر، ج٣، ص١٧.

[7] الندوي، رجال الفكر والدعوة، ج١، ص٢٢٥.

ولا يعرف قيمة هذه الكلمة الجريئة، إلا من عرف الحكومات في عصر الغزالـي، حيث كانت حكومات شخصية مستبدة، وكان نقد السلاطين على سياستهم مجازفة بالحياة، ومغـامرة قد تؤدي على الحبس والإهانة، أو إلى النفي والقتل.

كما كان للغزالي دور فعَّال في نقد الباطنية، وبيان خطرهم في هدم الإسلام، وكتب كتاباً في ذلك أسماه، "فضائح الباطنية"، نقد فيه هذه الطائفة، وكشف اللثام عن تنـاقض أفكارهـا، وفـضائح أعمالها، وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته، وقـد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة السلجوقية الوزير نظام الملك[1].

وكانت الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم بالانتقام والقتل، هذا إن دلَّ علـى شـيء، فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل مهما كانت النتيجة، ورجل هـذه صفاته، أيعجز أن يكتب ويحرض على قتال الصليبين.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي مبررات عدم اشـتراك الغزالـي فـي قتـال الـصليبيين، والتحريض عليهم.

بدايةً يجب أن يلاحظ أن العصر الذي عاش فيه الغزالي، كان عصر ضياع وتشرذم، فيـه مزيج من اختلاف المذاهب والآراء والأفكار، فأراد أن يأخذ على عاتقة عبء النهضة والإصلاح.

حيث إن الصليبيين ما تجاسروا على غزو بلاد الشام، إلا من بعد أن تأكدوا مـن ضـعف الخلافة العباسية وذهاب هيبتها، وتشرذم الدولة الزنكية، والنزاع بين أمرائها، علاوة على صـراع الخلافة الفاطمية الدائم، مع الخلافة العباسية، والدولة الزنكية [2].

في ظل هذه الظروف الصعبة، رأى الغزالي أن لا صلاح لهذه الأمة، إلا بمـا صـلح بـه أولها، فما كان منه إلا أن توجه إلى جذور المشاكل لمعالجتها، ومعرفة أسباب الـداء الـذي ينخـر داخل جسد الأمة، حتى جعلها قابلة للتخلف والهزيمة.

ورأى "أن ذلك لا يكون إلا بالرجوع إلى أصل الإسلام، حتى يتماسـك الجـسد الإسـلامي وتعود إليه العافية والسلامة، وتنتشر فيه الفضيلة التي إن تمسك المسلمون بها، تمكنوا من النـصر على أعدائهم، فالإصلاح الأخلاقي عند الغزالي، كفيل بإصلاح بقية نواحي المجتمع، من سياسـية، وعسكرية، واقتصادية، وغيرها. [3]

وفي وصية عمر بن الخطاب إلى قادة عسكره ما يعزز هذا الكلام، حيث قال: "أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عزّ وجلّ أفضل العـدة علـى العدو، وأقـوى العدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من

---

(1) سبق ترجمته.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٤٩٤-٤٩٥. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٠.

(3) القرضاوي، الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص٣١-٣٢. الخطيب، البطولة والفداء، ص١٦٧.

عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم... " (١)

انطلاقا من هذه المفاهيم، ركز الغزالي على ضرورة تطهير المجتمع من الأمراض، التي كانت تفترسه من الداخل، فألف موسوعته المسماة بـ"إحياء علوم الدين"، التي تناول فيها جميع الأمراض النفسية والاجتماعية، المنتشرة في المجتمع، وبيان كيفية التخلص منها، مشدداً على ضرورة إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

"فبدأ بإصلاح نفسه، ثم انتقل إلى إصلاح نفوس أصحابه وأتباعه وتلاميذه، الذين أخذوا في تطبيق هذا المنهج، الذي كان من ثماره، جيل نور الدين، وصلاح الدين، الذين تم على أيديهم تحرير بيت المقدس وبلاد الشام من أيدي الصليبيين "(٢)

فكان الشغل الشاغل للغزالي هو الإصلاح من الداخل، الذي لا يتم إلا بإصلاح الفرد، الذي هو نواة المجتمع، وإصلاح الفرد لا يكون إلا بإصلاح قلبه وفكره، الذي ينتج عنه إصلاح عمله وسلوكه، وهذا هو ما أرشد إليه القرآن " {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} (٣)

إلا أن الباحث يرى أن السبب الرئيس وراء عدم مشاركة الغزالي في محاربة الصليبيين، أن الاحتلال الصليبي للبلاد الشامية، تفاقم وازداد خطره في نفس الوقت الذي كان فيه الغزالي في صراع مع نفسه، دفعه إلى حياة التقشف والعزلة، وهجر الدنيا بما فيها، رغبةً منه في تنقية نفسه من أمراضها، لتحظى بمرضات الله وجنته.

ولقد استأنس الباحث بترجيح هذا الرأي؛ بسبب كلام الغزالي عن نفسه، حيث قال: "كان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بِكُنْه(٤) الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق، ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في تاريخ الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، وتيقنت أني على شفا جرف هار، وإني قد أشرفت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال"(٥).

---

(1) الصلابي، علي محمد محمد، فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [شخصيته وعصره] (القاهرة، دار الفجر للتراث، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٤٧٤.

(2) الغزالي، المنقذ، ص٤٨. القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص١٨١.

(3) سورة الرعد، آية ١١.

(4) كنه الشيء، قدره ونهايته وغايته، وإذا قلت كنه هذا الأمر تقصد غايته، ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٥٣٦-٥٣٧. الزبيدي، تاج العروس، ج١٩، ص٨٨.

(5) الغزالي، المنقذ، ص٤٨.

الفصل الثالث

أثر الحركة الصوفية في المجتمع الشامي

- دورهم في الحيـــاة الاجتماعية.
- دورهم في الحياة الثقافية.
- دورهم في الحيـــاة الاقتصادية.

دور الصوفيـــة في الحياة الاجتماعيـــة

على مدار تاريخ الحروب الصليبية، لم يعش صوفية بلاد الشام على هامش الحياة، أو فـــي عزلة عن الناس كما يتوهم البعض، بل على النقيض من ذلك، حيث كانت لهم مواقف إيجابية فـــي مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، فلقد كانوا من الدعاة إلى إقامة شرع الله[1] يبصرون النـــاس بمـــا ينفعهم، ويحذرونهم مما يضرهم، يؤكد ذلك دعوة الإمام الغزالي سيد صوفية ذلك العـــصر إخوانـــه وتلاميذه المنعزلين في زواياهم وخوانقهم، إلى الاختلاط بالناس ومعايشتهم، يـــأمرونهم بـــالمعروف وينهونهم عن المنكر بقوله "ولا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعزلـــةِ، وعـــدم الاختلاط بالناس، إذا كان قادراً على الأمر والنهي، ولم يكن في غيره كفاية، بـــل الحـــضور مـــع المسلمين، وتكثير سوادهم في جمعهم وجماعتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر، وعيادة مريضهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم، لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، وإعانة المحتاج ونصرة المظلوم، وقمع نفسه عن الإيـــذاء، وصبره على الأذى من أفضل القربات وأجل العبادات"[2].

في النص السابق يدعو الإمام الغزالي صوفية عصره المنعـــزلين عـــن المجتمـــع إلـــى الاختلاط بالناس، والتعامل معهم بمشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم، وإعانة محتـــاجهم ونـــصرة مظلومهم، وإرشادهم لعمل الخير، مبيناً أن ذلك من أفضل القربات وأجل العبادات.

كما كان للصوفية دور بارز في إصلاح المجتمع الشامي، وكانت دعوتهم الإصلاحية شبيهة بدوائر بعضها أوسع من بعض، أولى هذه الدوائر أن يبدأ الفرد بنفسه، يصلحها ويقومهـــا، لتـــصبح نموذج الفرد الصالح، والمؤمن المطلوب، وبعد أن يتم له ذلك، ينتقل إلى إصلاح غيره.... وهكذا

ويوضح لنا الغزالي منهجه الإصلاحي بقوله: "حق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيـــصلحها بالمواظبة على الفرائض[3]، وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده..."[4].

---

[1] الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣٠٦.

[2] الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٢٢٢. ابن داود الحنبلي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي، الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق، مصطفى حميدة، (بيروت، دار الكتب العلميـــة، ط١، ١٤١٧هـــ/١٩٩٦م)، ص١٢٨.

[3] الفرائض تشمل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة المغتصب المحتل للبلاد، انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج١٠، ص١٢١. أبو جيب، القاموس الفقهي، ص٢٨٢-٢٨٣.

[4] الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣٤٢. ابن داود الحنبلي، الكنز الأكبر، ص١٣٤.

ويؤكد هذا القول سيد آخر من سادات صوفية ذلك العصر، وهو الشيخ أحمد الرفاعي[١] بقوله: "إذا أراد الله عز وجل أن يرقى بالعبد إلى مقامات الرجال، يكلفه بأمر نفسه أولاً، فإذا أدب نفسه واستقامت كلفه جيرانه وأهل محلته، فإن هو أحسن إليهم وداراهم[٢] كلفه جهة من البلاد"[٣].

ويؤكد الإمام الغزالي هذا المنهج بقوله: "كن أحد رجلين، إما مشغولاً بنفسك وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك. فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه، وهمت بقتله وهو يطلب مذبة[٤] يدفع بها الذباب عن غيره، ممن لا يغنيه، ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به"[٥].

لقد اتفق كلا الشيخين الغزالي والرفاعي، على أن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الفرد لنفسه ليكون قدوة لغيره، ومن ثم يكون تأثيره على أهله وجيرانه أنفع وأجدى.

ويرى الغزالي أن الدعوة والسعي إلى الإصلاح واجب اجتماعي على كل مواطن، لقوله: "اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان، فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف... فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين، وإلاَّ عمَّ الحرج الكافة أجمعين، أما العالم فلتقصيره في الخروج، وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم"[٦].

يرى الغزالي أن الإصلاح واجب اجتماعي على كل فرد في المجتمع، وهو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط الإثم ورفع الحرج عن الآخرين، وإذا لم يقم به أحد وقع الجميع في الإثم.

وأمام هذا الواجب، ينتقل الغزالي إلى توجيه ندائه إلى علماء وفقهاء عصره، يحثهم على القيام بواجبهم تجاه مجتمعهم، لتعريف الناس بالحلال والحرام، وإرشادهم إلى ما ينفعهم، ويسعدهم وتحذيرهم بتجنب ما يضرهم وما يشقيهم فيقول: "على كل عالمٍ بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو

---

[١] هو أبو العباس أحمد بن علي الرفاعي، الشيخ الزاهد الكبير، كان سيداً جليلاً وصوفياً عظيماً، وهو أحد الأولياء المشاهير، والرفاعي نسبة إلى جده السابع رفاعة، توفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١١٨. ابن خلكان، وفيات، ج١، ص١٧١. الصيادي، قلادة الجواهر، ص١٥. النبهاني، جامع كرامات، ج١، ص٣٩٨.

[٢] المداراة، حسن الخلق والمعاشرة مع الناس، ومداراة الناس ملاينتهم، ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٢٥٥. المقري، المصباح المنير، ص١١٧. الزبيدي، تاج العروس، ج١٩، ص٤٠٥.

[٣] الصيادي، محمد بن حسن الرفاعي الخالدي، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ص١٥٣.

[٤] المذبة، هي عصا أو ما شابهها، يربط في طرفها شعر من ذيل فرس أو ما شابهه من الحيوانات، تستخدم لطرد الذباب، ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٣٨٠.

[٥] الغزالي، الإحياء، ج١، ص٣٩.

[٦] المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤٢.

مشهد، أن يعلِّم أهله دينهم ويميِّز ما يضرُّهم عمَّا ينفعهم، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه، فإنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء، ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم"[(١)] إلى عيوبهم وأخطائهم ويأخذون بأيديهم إلى طريق السلامة وبر الأمان.

ثم ينتقل الغزالي بدعوته الإصلاحية إلى مطالبة الحكام بالتعاون والتنسيق مع العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول: "وهذا فرض على العلماء كافة، وعلى السلاطين كافة، إذ يجب عليهم أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلةٍ فقيهاً متديناً، يعلم الناس دينهم، فإن الخلق لا يولدون إلا جهالاً، فلابد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع، والدنيا دار المرضى ليس في بطن الأرض إلا ميت، ولا على ظهرها إلا سقيم، ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان، والعلماء أطباء، والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره، كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي، أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم[(٢)] ليقيده بالسلاسل والأغلال، ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس"[(٣)].

بهذا يشرك الغزالي العلماء والفقهاء والسلاطين، في مهمة الإصلاح الاجتماعي، ويدعوهم إلى التعاون في أداء الأعمال التي لابد من إتمامها لكفالة قيام المجتمع واستمراره، وتوفير الظروف التي تضمن سعادة الدنيا والآخرة، حيث يقول: "أيها السلطان، خطر الولاية عظيم، وخطبها جسيم، والشرح في ذلك طويل ولا يسلم الوالي إلا بمقاربة علماء الدين، ليعلموه طريق العدل، ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر"[(٤)] ثم يقول "وعلى السلطان أن يشتاق أبداً إلى رؤية العلماء ويحرص على استماع نصحهم، وأن يحذر من علماء السوء، الذين يحرصون على الدنيا، فإنهم يثنون عليك، ويغرونك ويطلبون رضاك طمعاً فيما في يديك، من خبث الحطام، ووبيل الحرام، ليحصلوا منه شيئاً بالمكر والحيل، والعالم هو الذي لا يطمع فيما عندك من المال، وينصفك في الوعظ والمقال"[(٥)].

لقد نصح الغزالي السلاطين بتقريب العلماء المخلصين الصادقين الأوفياء لشعبهم وبلادهم، وإبعاد علماء السوء، الذين يسعون إلى التنعم بالدنيا، والتوصل إلى الجاه بالمكر والكذب والتملق والخداع.

---

(١) الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٥٠.

(٢) القيم، بمعنى، السيد، وسائس الأمر، وقيم المرأة زوجها، لأنه يقوم بأمرها وما تحتاج إليه، انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج١٧، ص٥٩٧.

(٣) الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٥١. ابن دواد الحنبلي، الكنز الأكبر، ص١٨١.

(٤) الغزالي، التبر المسبوك، ص٢٢.

(٥) الغزالي، التبر المسبوك، ص٢٢-٢٣. نصر، محمد، فلسفة السياسية عند الغزالي، مهرجان الغزالي في دمشق، (سوريا، إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م)، ص٤٦٠.

وإمعاناً في النصيحة للسلاطين والحكام، قام الإمام الغزالي بتأليف كتاب مليء بالنصائح والمواعظ أسماه (التبر المسبوك في نصيحة الملوك)[1] أهداه للسلطان محمد بن ملك شاه[2] ابتدأه بقوله "اعلم يا سلطان العالم، مالك الشرق والغرب، أن لله عليك نعماً ظاهرة، وآلاء متكاثرة، يجب عليك شكرها، ويتعين عليك إذاعتها ونشرها، ومن لم يشكر نعم الله، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، فقد عرض تلك النعمة للزوال، وخجل من تقصيره يوم القيامة، وكل نعمة تفنى بالموت، فليس لها عند العاقل قدر، ولا عند اللبيب خطر لأن العمر وإن تطاولت مدده لا ينفع طوله إذا انقضى عدده"[3].

وفيه أيضاً "اعلم وتيقن أن الله سبحانه وتعالى اختار الملوك لحفظ العباد من اعتداء بعضهم على بعض، وملكهم أزمة الإبرام والنقد، فَرَبَطَ بهم مصالح خلقه في معايشهم بحكمته والسلطان العادل من عدل بين العباد وحذر من الجور والفساد، والسلطان الظالم شؤم لا يبقى ملكه ولا يدوم"[4].

ولم يقتصر الإمام الغزالي على ذلك، بل أفرد باباً كاملاً في كتابه إحياء علوم الدين تحت عنوان (أمر الأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر) وحدد فيه، أن أمر السلاطين بالمعروف يكون بالتعريف والوعظ، أما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان، لأن ذلك يحرك الفتنة، ويهيج الشر، ويكون ما يتولد منه من المحظور أكثر، أما التخشين في القول، كقوله يا ظالم من لا يخاف الله، وما يجري مجراه، فذلك إن كان يحرك فتنةً يتعدى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز، بل مندوب إليه، فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة[5] والتعرض لأنواع العذاب، لعلمهم بأن ذلك شهادة في سبيل الله"[6] مستدلاً بحديث رسول الله ﷺ "خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى، فقتله على ذلك"و قوله ﷺ أفضل الجهاد "كلمة حق عند سلطان جائر"[7].

---

(1) كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك، عدد صفحاته ١٣٠ صفحة من القطع المتوسط، ٢٣ على ١٧ سم، ألفه حجة الإسلام الإمام محمد الغزالي، باللغة الفارسية، ثم عربه بعضهم، ونقله محمد بن علي المعروف بعاشق جلبي إلى التركية، انظر: حاجي، كشف الظنون، ج١، ص٣٣٧.

(2) هو محمد ابن السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان، التركي السلجوقي، تفرد بالسلطة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وهو ذو سيرة حسنة، من عدله أبطل المكوس والضرائب، ومنع استخدام اليهود أو النصارى في مراكز الدولة، توفى سنة ٥١١هـ/١١١٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٤، ص٤٢٦. ابن العماد، شذرات، ج٤، ص٣٠.

(3) الغزالي، التبر المسبوك، ص٩.

(4) المصدر نفسه، ص٤٩.

(5) المهجة، دم القلب، ولا بقاء للنفس بعدها، تقول، بذلت له مهجتي، أي بذلت له نفسي وخالص ما أقدر عليه، الجوهري، الصحاح، ج١، ص٣١١. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٣٧٠. الزبيدي، تاج العروس، ج٣، ص٤٩٠.

(6) الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣٤٣. الجيلاني، عبد القادر بن موسى، الغنية لطالبي طريق الحق، أعد فهارسها، رياض عبد الهادي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١)، ص٧٩. ابن داود الحنبلي، الكنز الأكبر، ص١٢٦.

(7) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ٥ أجزاء، تحقيق، السيد محمد السيد، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩)، ج٤، ص١٨٥٧. ابن ماجة، السنن، ج٢، ص١٣٢٩. الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣٤٣. ابن داود الحنبلي، الكنز الأكبر، ص١٢٦.

هذا الكلام الذي ذكره الإمام الغزالي في وعظ الحكام يدل على أنه رجل فقه وسياسة، حيث يقرر أن وعظ الحكام لا يقوم به آحاد الناس لأنه لو فتح الباب أمام العامة، لضاعت هيبة الحاكم التي يترتب عليها انتشار الفتنة والفوضى في البلاد، وكأني أفهم أن الغزالي يدعو إلى العمل المنظم، وأن يكون وراء العالم الذي يعظ الحاكم جماعة تشد عضده وتقوي أزره، ويا حبذا لو كانت هذه الجماعة متفاعلة مع المجتمع في همومه وطموحاته.

كما ندب وأباح للعلماء وفقهاء الصوفية، مواجهة الحكام الظلمة بقولهم له يا ظالم، إذا رجحت لدى الواحد منهم أن الفتنة التي تترتب على كلامه لا تتعداه.

وهذا من أعظم الجهاد وأجلّ الخدمات التي يقدمها الفرد لمجتمعه.

ولم يقف الأمر عند الإمام الغزالي على الكتابة والتأليف، بل تصدى لفتوى قاضي [١] بيت المقدس التي أتاحت للوالي[٢] انتزاع أراضي آل تميم منهم.

يروي لنا العليمي[٣] هذه الحداثة التي تبين لنا سعة وعي وفقه الإمام الغزلي، وشجاعته وجرأته في قول الحق، فيقول: "اعترض بعض الولاة على آل تميم[٤]، وأرادوا انتزاع الأرض منهم، ورفع أمرهم للقاضي أبو حامد الهروي الحنفي، قاضي بيت المقدس الشريف، فاحتج الداريون بالكتاب[٥]،

---

[١] هو، عبد المجيد بن إسماعيل الحنفي أبو حامد الهروي، من فقهاء الحنفية، تفقه ببلاد ما وراء النهر، قدم دمشق واستقر بها وله مصنفات في الفروع، توفى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الزركلي، خير الدين، "الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، (بيروت، دار العلم للملايين، ط٨، ١٤١٠هـ/١٩٨٠م)، ج٤، ص١٤٨.

[٢] لم يتعرض أحد من المؤرخين ولا أصحاب التراجم لذكر اسم هذا الوالي، وكذلك العليمي لم يتعرض لذكره وتعريفه عند إيراده لهذه الحادثة.

[3] هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العمري المقدسي الحنبلي مجير الدين، كاتب ومؤرخ ولد بالقدس، ودرس بالقاهرة، ومن آثاره "المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد"، "الإنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، توفى سنة، ٩٢٧هـ/١٥٢١م، للمزيد عن ترجمته، انظر: حاجي، كشف الظنون، ج١، ص١٧٧. البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٥٤٤. كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١١٢.

[4] هم الذين ينتسبون إلى الصحابي الجليل تميم الداري، ويقال لهم أل التميمي، ويسكنون في منطقة القدس والخليل، ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق، أحمد راتب حموش وآخرين، (دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج٥، ص٣٠٧. الدباغ، مصطفى مراد، موسوعة بلادنا فلسطين، ١١مجلد، (كفر قرع، دار الهدى للطباعة والنشر، ١٤٣٢هـ/٢٠٠٢م)، ج٢، ص١٦٦. حماده، محمد عمر، أعلام فلسطين من القرن الأول حتى الخامس عشر الهجري، ٣ أجزاء، (دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م)، ج٢، ص٤٢.

[5] الكتاب، هو الذي كتبه رسول الله ﷺ لتميم الداري ومضمونه "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أنطى [بمعنى أعطى] محمد رسول الله ﷺ لتميم الداري وإخوته، حبرون، والمرطوم، وبيت عينون، وبيت إبراهيم، وما فيهن نطية، بتّ بذمتهم، ونفذت وسلمت ذلك لهم، ولأعقابهم، فمن آذاهم، آذاه الله، ومن آذاهم لعنه الله"، انظر: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٥، ص٣٠٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص١٢٧. العليمي، الإنس الجليل، ج٢، ص١٤٦. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٥، ص٣٢١.

فقال القاضي: هذا الكتاب ليس بلازم لأن النبي ﷺ أقطع تميماً[1] ما لم يملك، فاستفتى الوالي الفقهاء، وكان الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه حينئذ ببيت المقدس، قبل استيلاء الإفرنج عليه، فقال هذا القاضي كافر، فإن النبي ﷺ قال: "زويت لي الأرض كلها"[2] وكان يقطع في الجنة، ويقول: قصر كذا لفلان، فوعده صدق، وعطاءه حق، فَخُزِيَّ القاضي، والوالي، وبقي آل تميم على ما بأيديهم"[3].

كما أنكر صوفية بيت المقدس، وعلى رأسهم الشيخ الصوفي فخر الدين بن عساكر[4] شيخ المدرسة الصلاحية[5] على الملك المعظم عيسى[6] تضمين المكوس والخمور[7].

ولقد أولى الصوفية فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جل اهتمامهم، وجعلوه ضمن شعائرهم وأدبياتهم، لأثره الكبير والواسع في بقاء المجتمع وصلاحه، يقول فيه الإمام الغزالي: "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة[8] وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد"[9].

ولأهميته عند الصوفية، أفرد له الإمام الغزالي في كتابه الأحياء، باباً كاملاً، مبيناً فضله، والمذمة في إهماله وإضاعته، مستدلاً على ذلك بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، منها

---

(1) هو تميم الداري، أبو رقية بن أوس، قدم إلى رسول الله سنة ٩هـ/٦٣٠م وأعلن إسلامه، وطلب من رسول الله إقطاع فأقطعه منطقة الخليل في فلسطين، توفي سنة ٤٠هـ/٦٦٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خياط، طبقات، ص٣٠٥. ابن عبد البر، الاستيعاب، ج١، ص٣١٣. ابن حجر، الإصابة، ج١، ص٣٦٧. أحمد، ضحى الإسلام، ج٢، ص٩٦. محمد، أعلام فلسطين، ج٢، ص٤٢.

(2) مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص١١٠٧.

(3) العليمي، الإنس الجليل، ج٢، ص١٤٥. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٥، ص٣٢٩.

(4) هو أبو منصور عبد الرحمن بن محمد الحنبلي، الملقب فخر الدين، المعروف بابن عساكر، كان إمام وقته، في علمه ودينه، توفى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٣٦٣. الذهبي، العبر، ج٣، ص١٨١.

(5) هي المدرسة الصلاحية التي أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م بباب الأسباط، وجعل وظيفة شيخها من الوظائف السنية الرسمية، العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٨.

(6) هو الملك المعظم عيسى، صاحب دمشق، وسلطان الشام، حفظ القرآن، وبرع في الفقه والشعر، وله شعر كثير، كان فيه خير وشر كثير، توفى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ص٤٦٧. الذهبي، العبر، ج٣، ص١٩٤.

(7) الذهبي، العبر، ج٣، ص١٩٤.

(8) الفترة، هي الإنكسار والضعف، ابن منظور، لسان العرب، ص٤٣. الزبيدي، تاج العروس، ج٧، ص٣٣٥.

(9) الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣٠٦.

قولـــه تعـــالى: { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [1]. وقوله تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } [2]. وقولـــه تعـــالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [3]. وقوله تعـــالى: { الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [4].

أما الأخبار، فمنها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها:"يـــا أيهـــا الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتؤولونها على خلاف تأويلها { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [5] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من قوم عملـــوا المعاصـــي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل، إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده"[6].

يقول سيد قطب[7] معقباً على هذه الآية: "ما أيسر أن يلجأ الضعاف إلى تأويل هـــذه الآيـــة على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه، كلاَّ والله إنَّ هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح"[1].

---

(1) آل عمران، آية، ١٠٤.

(2) آل عمران، آية، ١١٠.

(3) التوبة، آية، ٧١.

(4) الحج، آية، ٤١.

(5) المائدة، آية، ١٠٥.

(6) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ١٠ أجزاء، راجعه وعلق عليه، محمد الحفناوي، (القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ج٣، ص٦٧٠. الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣٠٨. العظيم أبادي، أبي الطيب محمد شمس الحق، "عون المعبود" شرح سنن أبي داوود، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج١١، ص٣٢٨-٣٢٩.

(7) هو سيد ابن الحاج قطب ابن إبراهيم، ولد في أسيوط، إحدى محافظات مصر، تخرج من كلية دار العلوم، وعين مفتشاً في وزارة التربية والتعليم، ترك الوظيفة ليتفرغ للكتابة، من أهم كتاباته، تفسير القرآن المسمى بظلال القرآن، وكتاب معالم في الطريق، وفي سنة ١٣٧١هـ/١٩٥١م اعتزل الأدب وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، حكم عليه بالإعدام مـــن قبـــل الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر، ونفذ فيه الحكم، ونال الشهادة سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، للمزيد عن ترجمتـــه، انظر: فضل الله، مهدي، مع سيد قطب في فكرة السياسي والديني، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص٤٣-٥٣. شادي، صلاح، الشهيدان حسن البنـــا وسيد قطـــب، (المنـــصورة، دار الوفـــاء للطباعـــة والنـــشر، ط٣، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص٤٩. رزق، جابر، مـــذابح الإخـــوان فـــي ســـجون ناصـــر، (مـــصر، دار الاعتـــصام، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص١٤٠. الخالدي، صلاح عبد القادر، في ظلال القرآن في الميزان، (جـــدّة، دار المنـــارة للنـــشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٢١.

ومن أحاديث رسول الله ﷺ التي تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قوله: "إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا، نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا ذلك، فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[٢].

ومن أقوال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "أول ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس، فجعل أعلاه أسفله"[٣].

كما تطرق الإمام الغزالي في كتابه الإحياء للعديد من العادات السيئة المنتشرة في المجتمع، كمنكرات الأسواق، ومنكرات الشوارع، ومنكرات الضيافة، وضرب أمثلة على ذلك، فمن منكرات الأسواق، الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب في السلعة، أما منكرات الشوارع، كطرح القمامة على جوانب الطريق، وربط الكلاب على أبواب الدور، أو إرسال الماء من الميازيب[٤] المخرجة من الحائط في الطرق الضيقة، أما منكرات الضيافة كاجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال، أو حضور المجالس التي يتعاطى فيها الخمور[٥].

وتناول الإمام الغزالي لهذه المواضيع يدل على الاندماج الاجتماعي للصوفية وحرصهم على القيام بواجبهم تجاه مجتمعهم فيما يعود عليه بالخير والبركة.

كما تطرق الإمام الغزالي للعديد من الأمراض النفسية المنتشرة بين الأفراد والتي تنعكس آثارها السلبية والمدمرة على المجتمع، ومن الأمراض التي تناولها الغزالي بالتوضيح والتفنيد هي: الكبر، والعجب، والحقد، والحسد، وسوء الظن، واحتقار الناس.

وسيتناول الباحث ثلاثة من هذه الأمراض ألا وهي: الغضب، والحقد، والحسد لأن جميع الأمراض النفسية الأخرى متولدة وناتجة عنها، كما أن الغزالي نفسه أجملها تحت عنوان واحد، وربط بينها ربطاً نفسياً وخلقياً، وجعل الغضب هو الأساس الذي يتولد عنه الحقد والحسد حيث عرفه بأنه "غليان دم القلب، بطلب الانتقام"[٦]، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها والتشفي والانتقام بعد وقوعها".[٧]

---

(1) قطب، سيد، في ظلال القرآن ٦ أجزاء، (مصر، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ج٢، ص٩٩٢.

(2) البخاري، صحيح، ص١١٤٠. ابن حجر، فتح الباري، بشرح صحيح الإمام البخاري، ١٣ جزء، تحقيق، عبد العزيز بن باز، (الرياض، مكتبة الرياض الحديثة)، ج٥، ص١١٢.

(3) الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٣١١.

(4) هي المزاريب، ومفردها ميزاب، ولا يقال المزراب، ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٤٨.

(5) الغزالي، الإحياء، ج٢، ص٢٤٠-٢٤١.

(6) الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٦٧. مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص١٥٢.

(7) الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٦٧.

معنى ذلك أن الغضب لا يسكن إلا بالتشفي والانتقام.

وذكر الغزالي أن الغضب يكون على ثلاثة أحوال، التفريط، الإفراط، والاعتدال.

أما التفريط بالغضب فهو مذموم، وهو الذي يقال فيه أنه لا حمية له، ولذلك قال الشافعي: "من استُغضب فلم يغضب فهو حمار"[١].

أما الإفراط، فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ولا نظر ولا فكر ولا اختيار، فيظهر أثره على اللسان بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه قائله عند فتور غضبه، وذلك مع تخبط واضطراب في اللفظ[٢].

أما الاعتدال، فهو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهي الوسط، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله، فينبغي أن يعالج نفسه، حتى يقوي غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغي عليه أيضاً أن يعالج نفسه، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين[٣].

فالمسلم هو وحده الذي يضع نفسه على ميزان الشرع، فيغضب به ويرضى به، وبذلك يعتدل معه ميزان الحياة الكريمة، ويكون إنسان رحمة لأهله ومجتمعه.

"أما الحقد[٤] فهو نوع من أنواع الغضب، فقد تغضب على إنسان ثم تعفو عنه وتسامحه فتصفو نفسك، فلا تحقد عليه بعد أن شفيت غيظ قلبك، وثأرت لنفسك منه، وقد تغضب على إنسان فلا تقدر على مسامحته، ولا تقدر على أن تنتقم منه لأنه أقوى منك، فتضطر حينئذ أن تحتقن الغيظ داخل نفسك وقلبك يغلي من الغضب الدفين فيه، وهذا هو الحقد"[٥]، ومن ثمراته، الحسد الذي يحملك على أن تتمنى زوال النعمة عمن تحسده، فتغتم بنعمة أصابها وتسر بمصيبةٍ إن نزلت به، وتشمت بما يصبه من بلاء، وتعرض عنه استصغاراً، وتتكلم فيه بما لا يحل لك من كذب وغيبة،

---

[1] الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٦٧. ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، علق عليه، شعيب الأرنؤوط، (دمشق، مكتبة دار البيان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ، ص١٧٩. الفقي، محمد، النفس أمراضها وعلاجها في الشريعة الإسلامية، (مصر، مكتبة ومطبعة صبح وأولاده، ط١، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ص٢٢٥.

[2] الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٦٨. ابن داوود الحنبلي، الكنز الأكبر، ص٣٣٩.

[3] الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٦٩. مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص١٥٢.

[4] الحقد، هو إمساك العداوة في القلب حتى تسنح فرصة الانتقام، ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص١٥٤.

[5] الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٨١. ابن قدامة، مختصر منهاج القاصدين، ص١٨٥. مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص١٥٥.

وإفشاء سر، وهتك ستر[١]، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحسد وثمراته فقال: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا"[٢].

ومسببات الحسد كثيرة منها "العداوة والبغضاء، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرئاسة، وخبث النفس، وبخلها وشحها بالخير على عباد الله"[٣].

فالعداوة والبغضاء من أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، الذي يؤدي إلى التشفي والانتقام والتنازع والاقتتال[٤].

أما الخوف من فوت المقاصد، فذلك ما يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، كتحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المنزلة في قلبه[٥].

أما حب الرئاسة وطلب الجاه، كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، وإنه فريد عصره، وإنه لو سمع بنظير له ولو في أقصى العالم، لساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة عنه التي يشاركه فيها المنزلة، من شجاعة أو علم أو صناعة أو جمال أو ثروة، أو غير ذلك مما يتفرد هو به، ويفرح بسبب تفرده[٦].

أما خبيث النفس وشحها بالخير لعباد الله، فإنك تجد إنساناً إذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته[٧].

ولقد أبدع الصوفية في دراسة النفس البشرية، حيث أولوها جل اهتمامهم، وركزوا على تنقيتها من الأمراض الخبيثة، وتحليتها بالأخلاق الحميدة، فأضحوا متخصصين في علاجها.

وتناول الغزالي لهذه الأمراض النفسية الخبيثة التي تعود على الفرد والمجتمع بالخراب والدمار، يدلل على أنه رجل إصلاح اجتماعي، حيث أنه ركز اهتمامه على إصلاح الفرد، الذي هو نواة المجتمع، لأن صلاح المجتمع يبدأ بصلاح الفرد، الذي هو أساس التغيير الاجتماعي.

---

(1) الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٨٦. مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص١٥٥.

(2) البخاري، الصحيح، ص٩٦٩. مسلم، الصحيح، ص٩٩٤. أبو داوود، السنن، ج٤، ص٢٠٩٦.

(3) الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٩٢-١٩٣. ابن قدامه، مختصر منهاج القاصدين، ص١٨٨.

(4) الأموي، حياة القلوب، ج٢، ص٣٠. الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٩٢-١٩٣. ابن قدامه، مختصر منهاج القاصدين، ص١٧٩.

(5) الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٩٣.

(6) الأموي، حياة القلوب، ج٢، ص٣٣. الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٩٣-١٩٤. ابن قدامه، مختصر منهاج القاصدين، ص ١٨٧ - ١٨٩.

(7) الغزالي، الإحياء، ج٣، ص١٩٤.

كما كان للصوفية الشامية دور بارز في الحياة الاجتماعية فترة الحروب الصليبية، من خلال ما كانوا يقدمونه من خدمات اجتماعية للفقراء والمحتاجين وعابري السبيل الذين يؤون إلى خوانقهم وزواياهم، فيجدون فيها المأوى والطعام والشراب[١].

لهذه الأسباب اكتسبت الصوفية الشامية مكانة مرموقة في المجتمع الشامي، لأن كل طائفة تتحدد مكانتها في مجتمعها بواسطة ما تقدمه من خدمات اجتماعية أو ما تمتلكه من قادة أجلاء[٢] مخلصين لوطنهم وأمتهم.

كما تمتعت الصوفية بجاه عظيم في المجتمع الشامي، وتعلق عامة الناس بمشايخهم تعلقاً شديداً للاستفادة من علمهم وخبراتهم وخيراتهم، وانتموا إلى طرقهم، لأنها كانت توفر لهم الغذاء والشراب والكساء، وتقيهم أذى الحكام والمتصلين بهم، وتجعل منهم وزناً اجتماعاً، بالإضافة إلى إشباع عاطفتهم الدينية، من خلال الأذكار والأوراد والإنشاد في حلقات الذكر وإحياء الموالد، ومن ناحية أخرى، تخلصهم من ملل وفراغ الوقت الطويل، وتنسيهم متاعب حياتهم إلى حين[٣].

كما أتاحت الفرصة للمنتمين إليها ليجدوا نموذجاً اجتماعياً يجنبهم الإحساس بالنقص، ويتيح لهم الشعور بالتضامن والتماسك، ويميزهم عن أولئك الفرادى الذين لا ينتمون لأي جماعة[٤] وأصبح الشيخ في نظر بعض الناس ولياً يحكم أتباعه اجتماعياً وخلقياً ويتدخل في شؤون حياتهم من زواج، وطلاق، ومواليد[٥] وامتدت جهود شيوخهم إلى الفصل بين الناس في حالات النزاع والخلاف، وأصبح لهم دور كبير وفعال في الضبط الاجتماعي في كثير من الأقاليم، وخاصة التي ينتشر فيها عادة الأخذ بالثأر، فكلمة طيبة بسيطة من رجل صوفي، يُعتقد فيه بأنه مُلهم، يكون لها فعل السحر في النفوس، فتقضي على دواعي الشر والفتنة، فإذا بالمتنازعين جميعاً إخوة متحابين

---

(1) انظر: ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة ابن بطوطة، المسماة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه، طلال حرب، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ص١٢٢. المقريزي، الخطط، ج٢ ص٤١٥. عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص٣٤٩.

(2) اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٣١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٥٩. حسن، الصوفية والسياسة، ص١٠٩. كامل، عمر عبد الله، التصوف بين الإفراط والتفريط، (دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م)، ص١٥١.

(3) انظر، ابن كثير، البداية والنهاية. ج ١٣، ص ١٣٦. حسن، الصوفية والسياسة، ص١٠٨.

(4) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤١٥. حسن، الصوفية والسياسة، ص١٠٨.

(5) المناوي، الكواكب الدرية، ج٢، ص٢١٩.

متآلفين[1] يقول الذهبي، واصفاً الدور الاجتماعي لأحد السادة الصوفية، وهو حياة بن قيس الحرّاني[2] "أنه كان كلمة وفاق بين أهل بلده".[3]

أي رجل إصلاح يحل المشاكل، والخلافات الاجتماعية التي تقع بين أفراد مجتمعه.

ويحدثنا الخزرجي[4] عن المكانة الاجتماعية للصوفية الشامية بين الناس فترة الحروب الصليبية قائلاً: "ومما رأيت بدمشق أن الشيخ علي الكردي[5] وكان ظاهره الوله[6] كان يتحكم في أهل دمشق تحكم المالك".[7] إن دلَّ هذا على شيء؛ فإنه يدلُّ على الدور الاجتماعي الفعال للصوفية.

كما كان للموالد النبوية التي كانت تحييها الفرق الصوفية في بلاد الشام، أثرها الواضح في توثيق العلاقات الاجتماعية بين الوافدين من أبناء القرية، أو الإقليم الواحد، أو المنتمين، إلى طريقة صوفية واحدة، وإن تعددت مواطنهم الإقليمية، وقد يكون هذا التعارف بين هؤلاء الأشخاص وتوثيق العلاقات بينهم سبباً لإتاحة الفرص الملائمة للإصهار، والزواج والتجارة والمشاركة في أنشطة اقتصادية مستقبلية[8]، حيث كان يحضر هذه المواسم التجار من جميع الأطراف، ويحضرها الشعراء والخطباء، وفي بعض الأحيان الملوك والأمراء، كالاحتفالات النبوية التي كان يقيمها الشيخ الصوفي عمر الملا[9] يقول البنداري:[10] "وكان بالموصل رجل من شيوخ الصالحين وأئمة

---

[1] انظر: الخزرجي، صفي الدين الحسين بن علي بن جمال الدين الأنصاري، سير الأولياء في القرن السابع الهجري، تحقيق، مأمون ياسين، عفت حمزة، (بيروت، دار الفكر، ط١)، ص٦٥. الذهبي، سير اعلام، ج١٥، ص٣٧٨. بهجت، أثر الحضارة السلجوقية، ص٢٧١.

[2] سبق ترجمته.

[3] الذهبي، سير اعلام، ج١٥، ص٣٧٨.

[4] الخزرجي، هو صفي الدين أبو عبد الله الأنصاري، كانت له مكانة عالية بين رجال التصوف في القرن السابع الهجري، توفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، انظر: الخزرجي، سير الأولياء، ص١٣٩.

[5] هو علي الكردي الصوفي الكبير، شافعي الذهب، عارفاً بالله حيث كان من مشاهير أولياء مدينة دمشق، توفى سنة ٦٢٢هـ/١٢٣٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الخزرجي، سير الأولياء، ص٦٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٨. النبهاني، جامع كرامات، ج٢، ص٣٠٢.

[6] الوله، بمعنى الحزن، وقيل التحير من شدة الوجد، وقيل ذهاب العقل، ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٥٦١.

[7] الخزرجي، سير الأولياء، ص٦٥. المناوي، الكواكب الدرية، ج٢، ص٢٧٢.

[8] فهمي، الدين في المجتمع المغربي، ص٤٢٢.

[9] سبق ترجمته.

[10] هو، الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، يكنى، بقوام الدين، من مؤرخي القرن السابع الهجري، ولد ونشأ بأصفهان، وانتقل إلى دمشق واستقر بها، من أشهر مؤلفاته، "زبده النصرة ونجبة العصره"، اختصره من كتاب، "نصرة العصرة وعسرة

العارفين يعرف بعمر الملا، وكان العلماء بل الملوك والأمراء يزورونه في زاويته، وله كل سنة دعوة في أيام مولد النبي ﷺ يحضره فيها صاحب الموصل، ويحضر الشعراء الذين ينشدون الأناشيد في مدح النبي ﷺ وكان يخرج لهم جوايزهم، وكان نور الدين من أخلص محبيه، وكان يستشيره ويكاتبه[١]

كما اهتمت الصوفية بالتربية الروحية، والتربية الأخلاقية، لارتباطهما ببعضهما، فلا حياة روحية بدون حياةٍ أخلاقية، فالانحلال الأخلاقي يرجع أساسه إلى نقص في التربية الروحية، ومن المسلم به أن التصوف يركز على الخلق الاجتماعي، ويحرص على طبع الفرد بالسلوك الكريم، بإحياء ضميره، ومحاسبة نفسه، ومراقبته لله سبحانه وتعالى على الدوام، واستشعاره بالمسؤولية وهذه الأخلاق، هي الرباط بين الناس جميعاً، إذ تنمي فيهم العلاقات السليمة، وتحقق عوامل الإخاء والصفاء والمودة المتبادلة بين طبقات المجتمع، "فالطريقة الصوفية لم تضع لأتباعها الأصول في الحياة الدينية فحسب، بل امتدت لتشمل كافة نواحي حياتهم الاجتماعية، فركزت على العلاقات بين الشيخ والمريد، وبين المريدين بعضهم ببعض، وبين المريد ونفسه وأهله وغيرهم من سائر أفراد المجتمع، كما وضعت أصولاً وقواعد وآداب لتوادهم وتزاورهم، والمشاركة في الأفراح والأحزان وغيرها من العلاقات المختلفة. [٢]

فالتصوف كله آداب[٣]، وهدفه الأساس إقامة مجتمع أخلاقي، تسوده المحبة والسعادة،

كما يقول الدسوقي:[٤] "لا يكتمل مقام الصوفي حتى يكون محباً لجميع الناس مشفقاً عليهم، ساتراً لعوراتهم"... وقال: "أقمنا مذهبنا على ثلاث خصال، لا نطالب الناس بواجب حقنا، ونطالب أنفسنا بحقوق الناس، وعلى متابعة الأمر والنهي، والشفقة على الخلق". [٥]

هذه هي المبادئ التي تسعى الصوفية لنشرها وإذاعتها في المجتمع الشامي الإسلامي، حيث الحب لجميع الناس، والشفقة عليهم، والستر لعوراتهم، والسعي لتقديم الخدمات الاجتماعية إليهم.

النضرة في أخبار وزراء الدولة السلجوقية"، "سنا البرق"، اختصره من كتاب، "البرق"، للعماد الأصفهاني، توفى سنة، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣٣٢. كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص٦١٠.

[1] البنداري، سنا البرق، ص٥٢. ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص٣٦.

[2] انظر: الغزالي، الإحياء، ج٢، ص١٩٢. حوى، تربيتنا الروحية، ص٢٥٠.

[3] السهروردي، عوارف المعارف، ص٦٢.

[4] هو إبراهيم الدسوقي القرشي، من أجلاء مشايخ الصوفية، كان صاحب كرامات ومقامات، له قبول عند الخاص والعام، توفى سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الشعراني، الطبقات الكبرى، ص٢٣٤. المناوي، الكواكب الدرية، ج٢، ص٣٢٠. النبهاني، جامع كرامات، ج١، ص٣٢٣.

[5] الطوسي، اللمع، ص١٦٣.

فالصوفية لها دورها الاجتماعي، "فهي القادرة على إيجاد الإنسان في كمالاته كلها، الإنسان الذي يقوم بفرائض العبودية لله، الإنسان الذي يقدم أعظم العطاء في باب التعامل مع الآخرين، فينتج من ذلك مجتمعاً كله آداب، وكله عطف، وكله مودة، وكله إيثار". [١]

---

[1] حوى، تربيتنا الروحية، ص٢١.

دور الحركـــة الصوفيـــة في الحيـــاة الثقافيـــة

لا يمكن إغفال الدور الثقافي للصوفية في إثراء ونهضة الحياة الأدبية في بلاد الـشام إبـان الحروب الصليبية، حيث ظهر دورهم من خلال ما خلَفه السادة الصوفية من بحوثٍ رائعـة ونافعـة في مجال الأدب، والنثر والشعر، والتأليف في موضوعاتٍ عدة، وليس أدل على ذلـك مـن كتـاب "إحياء علوم الدين" الذي ألفه الإمام الغزالي أثناء وجوده في بلاد الشام"[١]، وأصبح مرجعاً للصوفية بوجه عام، ولصوفية بلاد الشام بوجه خاص، لاحتوائه علـى جميـع العلـوم والمفـاهيم والآداب الصوفية، فهو بمثابة موسوعة علمية تناول فيها مواضيع متنوعة، بأسلوب أدبـي رائـع وجميـل، كقوله في مقدمتها مبيناً أهميتها ودوافع كتابته لها "اعلم أن الآخرة مقبلة، والـدنيا مـدبّرة، والأجـل قريب، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ، وسلوك طريق الآخـرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكّد، فأدلة الطريق هم العلماء الـذين هـم ورثـة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان، ولم يبق إلا المترسمون[٢] وقد استحوذ علـى أكثـرهم الـشيطان، واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحدٍ بعاجل حظه مشغوفاً، فصار يرى المعروف منكراً، والمنكـر معروفاً، حتى ظلّ علم الدين مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقـد خُيلـوا إلـى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة يستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغـام[٣] أو جدل يتذرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام، وشبكة للحطام، فأما علم طريق الآخرة ومـا درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً، وحكمة، وضياءً، ونـوراً، وهدايـة، ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً، وصار نسياً منسياً، ولما كان هذا ثلماً فـي الـدين ملمـاً، وخطباً مدلهماً، رأيتُ الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهي العلوم النافعة، عند النبيين، والسلف الصالحين"[٤].

هذه قطعة أدبية رائعة، قدم بها الإمام الغزالي، سيد سادات صوفية ذلك العصر، موسـوعته العلمية التي أسماها "إحياء علوم الدين"، حيث أجمل فيها دوافع كتابته لهـا مبينـاً أحـوال علمـاء

---

[1] حيث مكث الغزالي في بلاد الشام سنتان، من سنة(٤٨٨هـ-٤٩٠هـ/ ١٠٩٥م- ١٠٩٧م)، الغزالي،المنقـذ، ص ٤٩ – ٥٠.

[2] المترسمون، مفردها مترسم، وهي بمعنى بقية الشيء، أو ما لصق بالأرض منها، أو مالا شخص له من الآثار، الزبيدي، تاج العروس، ج ١٦، ص ٢٨٩.

[3] الطغام، هم أوغاد الناس وأراذلهم، ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص ٣٦٨. الزبيدي، تاج العروس، ج ١٧، ص٤٤١.

[4] الغزالي، الإحياء، ج ١، ص ٢.

عصره، واقتصارهم على العلوم التي تجلب لهم الجاه والمال في الدنيا، وانــصرافهم عــن العلــوم النافعة، التي تحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

وقد ضمت هذه الموسوعة بين دفتيها العديد من القطع الأدبية، التي تناولت موضوعات عدة في مجال العبادة، والعادات، والتقاليد، والمواعظ المرشدة للأعمال المنجية في الدنيا والآخرة.

ولأهمية العلم والتعلم عند الصوفية، ابتدأ الإمام الغزالي هذه الموسوعة الشاملة بكتاب العلم متوسعاً فيه، مفصلاً القول في بيان أقسامه، حيث يقول: " وصدرت الجملة بكتاب العلم، لأنه غايــة المهم، وأميز فيه بين العلم النافع من الضار" [1] واستشهد على أهميته بكلام الله عز وجل، وشــهادة الأنبياء والمرسلين، وأقوال الحكماء وذوي الرأي، فمن قوله تعالى {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} " [2] وقوله تعالى {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [3]، أما الأحاديث فمنهــا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[4] وقوله: "العلماء ورثــة الأنبياء"[5]، ومعلوم أنه لا توجد رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف وراثتها.

أما أقوال الحكماء فتمثلت في قولهم: "إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع المملوك حتــى يدرك مدارك الملوك"[6]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "العالم أفضل من الــصائم القــائم المجاهد، وإذا مات العالم ثُلِمَ في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه، وقال في فضل العلم شعراً":

مــا الفخــر إلا لأهــل العلــم إنهــم	علــى الهــدى لمــن اســتهدى أدلاء
وقدر كل امــرئ مــا كــان يحــسنه	والجــاهلون لأهــل العلــم أعــداء
ففــز بعلــم تعــش حيــاً بــه أبــداً	الناس موتى وأهــل العلــم أحيــاءُ [7]

وقال أبو الأسود الدؤلي:[8] " ليس شيئاً أعزُ من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك"[9].

---

[1] الغزالي، الإحياء، ج ١، ص ٢.

[2] الزمر، آية ٩.

[3] المجادلة، آية ١١.

[4] البخاري، الصحيح، ص ٣١.

[5] أبو داوود، السنن، ج ٣، ص ١٥٧٦.

[6] الغزالي، الإحياء، ج ١، ص٥.

[7] المصدر نفسه، ج ١، ص٧.

[8] هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني، واضع علم النحو، فقية وشاعر، كان معدوداً من التابعيين، والفقهاء والمحدثين والأشراف والأمراء، توفى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م، للمزيد عن ترجمته، انظــر: حــاجي، كــشف الظنــون، ج١ ص٧٧٠. كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص٢٠.

[9] الغزالي، الإحياء، ج١، ص٧.

ويقول الإمام الغزالي في أهمية وقيمة العلم: " أشرف موجود على الأرض جنس الإنسان، وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره، وسياقته إلى القرب من الله عز وجل، فتعليم العلم من وجه عبادة لله تعالى، ومن وجه، خلافة الله، فإن الله قد فتح على قلب العالم بالعلم، الذي هو أخص صفاته، فهو كالخازن لأنفس خزائنه، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه، فأي رتبة أجّل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى، وسياقتهم إلى جنة المأوى جعلنا الله منهم بكرمه"[1].

والعلم عند الإمام الغزالي هو أصل السعادة في الدنيا والآخرة، يقول في ذلك " وأصلُ السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال، وكيف لا؟ وقد تعرف فضيلة الشيء بشرف ثمرته، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة، ومقاربة الملأ الأعلى، هذا في الآخرة، وأما في الدنيا فالعز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام[2] ويقول أيضاً: " أعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة والمكانة، والقدرة والسلامة من الغموم والهموم، ودوام الراحة والسرور، وهذا لا يفوز به الإنسان إلا بالعلم والعمل"[3] كما أن الإمام الغزالي عاش معلماً، وكان في كل كتبه ورسائله معلماً، يحاول أن يوصل معلوماته إلى قرائه بأسلوب سهل واضح، وأبرز آرائه في التربية والتعليم، مبثوثة في رسالته المعنونة بعنوان "أيها الولد"[4] التي شرح فيها كل ما يحتاجه المعلم والمتعلم في عصره، مع أن الكثير منها يطابق النظريات الحديثة في التربية والتعليم، ومن أقواله في هذه الرسالة " أيها الولد، كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحِرمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كانت نيتك نيل عرض الدنيا وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال فويلٌ لك ثم ويلٌ لك، وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي ﷺ وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك، ثم طوبى لك، ولقد صدق من قال شعراً:

سهر العيون لغير وجهك ضائعٌ ... وبكاؤهن لغير فقدك باطلُ[5]

---

[1] الغزالي، الإحياء، ج١، ص١٣.

[2] الغزالي، الإحياء، ج١، ص١٢. الغزالي، ميزان العمل، تحقيق، سليمان دينا، (مصر، دار المعارف، ط١، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ص١٩٠.

[3] الغزالي، ميزان العمل، ص١٩٠.

[4] رسالة أيها الولد، كتيب صغير كتبه الإمام الغزالي لأحد تلاميذه، ناصحاً له، مخاطباً إياه، بيا أيها الولد، وهو متضمن العديد من النصائح القيمة والمتنوعة في الزهد والترغيب والترهيب، والعلم والتعليم، والتربية، انظر: حاجي، كشف الظنون، ج١، ص٢١٦.

[5] انظر: الغزالي، أيها الولد، (بيروت، دار ابن حزم، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص١٤. القطان، الشيخ إبراهيم، "الغزالي المربي والمعلم، مهرجان الغزالي في دمشق، (سوريا، إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م)، ص٣٩٨.

أيها الولد: "العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون، واعلم أن علماً لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، لن يبعدك غداً عن نار جهنم"[1]
أيها الولد:"ينبغى لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة[2]

ولم يقتصر أمر هذه النهضة العلمية على الإمام الغزالي، بل شاركه فيهـا أدبـاء، وعلمـاء وصوفية عصره أمثال الشيخ الصوفي أبو البيان بنا بن محمد الدمشقي، [3] الذي كان ملتزماً بالقرآن والسنة، عاملاً بهما، ومعلماً للغة العربية، وكان كاتباً وشاعراً، وله أشعار مطبوعة، وكتابات كثيـرة أهمها، كتاب "التثنية في الفقه الشافعي"، كما له كتباً عدة، كتبها للرد على المتكلمـين، مـن علمـاء وأدباء عصره، هذا مع قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي من المنكر[4].

ومن سادة صوفيـة ذلك العصـر، محمـد بن قدامـة[5] الجماعيلـي [6] الـذي تجسـدت ثقافتـه فـي حفظـه للـقرآن صغـيـراً، وسمـاعه للحـديث من والـده، وحفظه لمختصـر الخـرقـي [7] فـي الفقه، وتفقهـه علـى المذهـب الحنبلـي، حتى أصبـح مرجعـاً فيـه، وقراءتـه وتعليمـه للنحـو، وكتابتـه بخطـه الحليـة[8] لأبـي نعـيم[9]،

---

[1] الغزالي، أيها الولد، ص١٦.

[2] الغزالي، أيها الولد، ص٢١.

[3] هو أبو البيان بنا بن محمد بن محفوظ القرشي، الشافعي المذهب، اللغوي، الحنبلي، الزاهد، له معرفة في اللغـة العربيـة والبلاغة والنحو، وله أدب وحكم وكلام يؤثر عنه، توفى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٥، ص١١٠. أبو شامه، الروضتين، ج١، ص٣٠٤. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٢٢٨. ابن كثير، البدايـة والنهاية ج١٢، ص٢٣٥.

[4] الذهبي، العبر، ج٣، ص١٥. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣١٠. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٥٠. ابن العماد، شذرات، ج٤، ص١٦٠.

[5] هو محمد بن أحمد بن قدامه أبو عمر، القدوة الزاهد، أخ العلامة، موفق الدين، ولد بجماعيل، وهاجر إلى دمشق، بـسبب استيلاء الفرنج على الأراضي المقدسة، كان إماماً فاضلاً، قانتاً عابداً، توفي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، للمزيد عن ترجمتـه، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص١٤٧. دول الإسلام، ج٢، ص١١٥. الصفدي، وفيات، ج٢، ص٨٣. ابن رجب، الـذيل، ج٤، ص٣٩.

[6] الجماعيلي، نسبة، إلى جماعيل، قرية في جبل نابلس، من أرض فلسطين، ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٧٣.

[7] الخرقي، هو عمر بن الحسين بن عبدالله الحنبلي، فقيه، وصاحب تصانيف كثيرة، من اهم مؤلفاته، المختصر في فروع الفقه الحنبلي، توفي سنة٣٣٤م/٩٤٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: البغدادي، تاريخ، ج١١، ص٢٣٤. ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٤٤١.

[8] كتاب الحلية، جمع فيه أبو نعيم الأصفهاني تراجم العديد من السادة الصوفية وشرح أحوالهم وأخلاقهم وهو مكون من ١٢ مجلد، ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج١، ص٨. حاجي، كشف الظنون، ج١، ص٦٨٩.

[9] هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني الصوفي. طاف العديد مـن البلـدان، وصـنف التصانيف الكثيرة، ومن مؤلفاته، كتاب معرفة الصحابة، وكتاب دلائل النبوية، وكتاب تاريخ أصـبهان، وكتـاب الحليـة

وتفسير البغوي[1]، والمغني[2] في الفقه لأخيه الموفق[3] والإبانة في الفقه لابن بطة، [4] وكتابته مصاحف كثيرة، ونسخه لكتاب الخرقي عدة نسخ للناس، بغير أجرة، فجمع الله له معرفة الفقه، والفرائض، والنحو، مع الزهد، والعمل، وقضاء حوائج الناس[5].

ومنهم أيضاً الرشيد الدمشقي [6] العالم المحدث، الصوفي الفقيه، حيث كان إماماً في المذهب الحنفي، وعالماً باللغة والنحو، وكان أديباً وشاعراً، ومن أشعاره، هذه المقطوعة من الشعر اللطيف، الذي يخاطب من خلاله الشيب الذي أصاب شعر رأسه:

ما شبتُ من كبرٍ ولكن شّيبت	رأسي شدائد للمتون قواطع
لو أن بعض مصائبي يُمنى بها	ويذوق شدتها غلام يافع
لنضالها بُرد الشبيبة وأغتدي	للشيب في فؤديه نجم طالع
والناس في اللأواء حين تعدهم	رجلان ذو صبرٍ وآخر جازع
فاصبر على مضض الحوادث	إنها ميزان عدلٍ خافض أو رافع
وتعلمن أن البلاء لأهله	كالسَّبك للإبريز مؤذٍ نافع[7]

وطبقات الأصفياء، توفى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٣٢. الذهبي، العبر، ج٢، ص٢٦٢.

(1) هو، الحسين بن مسعود المعروف بابن الفراء البغوي، الشافعي، فقيه ومحدث ومفسر، توفى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٤، ص٣٨٩. الداوودي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد، طبقات المفسرين، تحقيق، عبد السلام عبد المعين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ص١١٣.

(2) المغني، من أهم الكتب التي ألفت في الفقه الإسلامي بوجه عام، وفي الفقه الحنبلي بوجه خاص، انظر: بن قدامه، المغني، ج١، مقدمة المحقق، ص، ز.

(3) هو عبد الله بن أحمد بن قدامه المقدسي الجماعيلي، ثم الحنبلي، الحنبلي، عالم وفقيه ومجتهد، كان أوحد زمانه، إماما في علم الخلاف والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب، توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٢٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٦، ص١٦٢. الصفدي، الوافي، ج١٧، ص٢٣.

(4) هو ابن بطة عبد الله بن محمد بن حمدان بن عمر الكعبري الحنبلي، فقيه ومحدث ومتكلم، من أهم مصنفاته، السنن والمناسك، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المزعومة، توفي سنة ٣٧٨هـ/١٩٩٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٨٠ مجلد، محب الدين أبي سعيد العمروي، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ج١٠، ص٣٦٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٣٢١.

(5) ابن رجب، الذيل، ج٤، ص٣٩.

(6) هو أبو عبد الله بن أبي القاسم الآمدي، لزم طريقة التصوف، وقال بمذهب القوم، توفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن المستوفي، تاريخ أربل، ج١، ص٢٨٥.

(7) ابن المستوفي، تاريخ إربل، ج١، ص٢٨٦.

هذا غيض من فيض، من تراث الأدب الصوفي، الذي يعد بذلك تراثاً ضخماً في كمه ونوعه، فهو متنوع تنوع الأدب المادي، ففيه الحكم، وفيه القصص، وفيه الشعر، حيث كان الصوفية من قادة الفكر والبيان "وكانوا معروفين بسعة الإطلاع وكثرة الحفظ"[1]

واختص أدبهم عن الأدب المادي بمواضيع تكثر فيها المناجاة والورع والتقوى، وذم الدنيا، والزهد في شئونها، فهم الذين ابتدعوا فن المدائح النبوية، وأنشأوا فن المناجاة، الذي تمثل في حب الذات الإلهية، في الأدعية والأوراد، وأجادوا القول في الوصايا والنصائح والترغيب والترهيب، كما نظموا أشعاراً كثيرة، تشرح ما يعانون فيها من خطرات القلوب.

ومن أعظم شعراء صوفية عصر الحروب الصليبية الصوفي الزاهد، شرف الدين ابن الفارض[2]

يقول فيه الصفدي:[3] "كان سيد شعراء عصره"[4] حامل لواء الشعراء، الملقب في جميع الآفاق بسلطان المحبين والعشاق "[5] له ديوان شعري مكون من حوالي ثلاثين قصيدة كلها تتضمن معاني الحب والعشق، ومن أعظم قصائده، القصيدة التائية، المسماة بنظم السلوك، وهي لوحدها مكونة من ستمئة وسبعة وستين بيتاً شعرياً نظمها تحت وحي التصوف مبتدئاً إياها بقوله:

---

[1] مبارك، التصوف الإسلامي، ج٢، ص٧١.

[2] هو القاسم بن عمر بن علي الحموي، المعروف بإبن الفارض، له أشعار جيدة، أشهرها القصيدة التائية، المعروفة بنظم السلوك، توفي سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٥٨. الذهبي، العبر، ج٣، ص٢١٣. عطوي، علي بخيت، ابن الفارض- شاعر الغزل في الحب الإلهي-، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص٢٦.

[3] هو خليل بن أيبك بن عبد الله صلاح الدين الصفدي، أبو الصفاء، حبب إليه الرسم، والأدب، وكتب الخط الجيد، وقال الشعر الحسن، جمع تاريخه الكبير الذي سّماه، الوافي بالوفايات في نحو ثلاثين مجلداً ورتبه على حرف المعجم وأفرد منه أهل عصره في كتاب سماه أعوان النصر في أعيان العصر، في ست مجلدات، وله شرح، لامية العجم، وكان محبباً إلى الناس حسن المعاشرة جميل المودة، توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٩.

[4] الصفدي، الوافي، ج٢٣، ص٥.

[5] الذهبي، العبر، ج٣، ص٢١٣. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٦٠. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٥٦. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص١٥١.

سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأسي محيا من عن الحسن جلت

فأوهمتُ صَحبي أن شُرب شرابهم به سُر يسري في انتشائي بنظرةِ

وبالحدق استغنت عن قدحي ومن شمائلها لا من شمولي تَشوُّقِي

ففي حان سكري حان شكري لفتيةٍ بهم تم لي كتم الهوى مع شُهرتي

ولما انقضى صحوي تغاضيت وصلها ولم يغشني في بسطها قبض خشيتي

وأبثثتها مابي ولم يكُ حاضري رقيبُ لها حاظٍ بخلوةِ جَلوتي

هبي مثل يغني الحب مني بقيةً أراكِ بها في نظرةِ المتلفتِ[1]

وكان ابن الفارض شاعراً عاشقاً، توزعت عواطفه بين عالم المادة والروح، وهو في أكثر شعره يعبر عن نفس صافية، تتراوح بين الحب الروحي، والحب الحسي، وله في هذا المجال قصيدة بعنوان "قلبي يحدثني" أبتدأها بقوله:

قلبي يُحدثني بأنك مُتلفي روحي فداك عرفت أم لم تعرف

لم أقضِ حقّ هواك إن كنت الذي لم أقضِ فيه أسى ومثلي من يعف

مالي سوى روحي وباذلُ نفسِهِ في حُبٍّ من يهواهُ ليس بمسرفِ

فلئن رضيت بها فقد أسعفتني يا خيبة المسعى إذا لم تُسعفِ

يا مانعي طيبِ المنامِ مانحي ثوب السقام به ووجدي المُتلفِ

عطفاً على رمقي وما أبقيت لي من جسمي المضني وقلبي المُدنفِ

فالوجدُ باقٍ والوصال مماطلي والصبرُ فانٍ واللقاء مسوفي

لم أخلُ من حسدٍ عليك فلا تُضع سهري بتشنيع الخيالِ المُرجفِ

واسأل نجوم الليلِ هل زار الكرى جفني وكيف يزور من لم يعرفِ ؟ [1]

---

[1] ابن الفارض، أبو حفص عمر بن أبي الحسن، ديوان ابن الفارض، تحقيق، كرم البستاني، (بيروت، دار صادر، ط١)، ص٣٣.

هذه القصيدة تتدفق بكل معاني الحب والعشق، وكل قصائد ابن الفارض على هذا المنـوال، لذلك عُرف بين الناس بشاعر الحب، ونظر الكثير من الشعراء والأدباء إلى ديوانه، وأعجبـوا بـه، ولعل أهم هؤلاء ابن أبي حجلة[2] الذي وصفه فقال: "هو من أرق الدواوين شعراً، وأنفسها دراً بـراً وبحراً، وأسرعها إلى القلوب جرحاً، وأكثرها على الطول دوماً، إذ هو صادر عن نفثـةِ مـصدور، وعاشق مهجور، وقلب بحر النوى مكسور" [3].

أما الشاعر الصوفي الكبير، محيي الدين بن عربي، [4] فمساهمته في الأدب العربي تمثلـت في تناوله لمواضيع عدة، فتارة يقول شعراً ينفي فيه عن نفسه القول بالوحدة والاتحاد، وتارة أخرى ينظم شعراً في عظمةِ الله، وله أشعار أخرى قالها في مناسبات مختلفة، كشوقه إلى الكعبة، وبيانـه للدرجة التي يبلغها الشهداء، ومكانة الشريعة، وحق الجار، وفعل الخيرات، وغير ذلك.
أما قصيدته التي ينفي فيها عن نفسه تهمةِ القول بالوحدة، والاتحاد، ابتدأها باعتماده على الله وحـده، دون غيره، حيث يقول فيها:

---

[1] ابن الفارض، ديوان، ص٤٦. عطوي، ابن الفارض، ص١٤٦- ١٤٧.

[2] هو أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد شهاب الدين، المشهور بابن حجله وهو أديب، وشاعر، وناثر، دخل دمشق، من آثاره الشعرية قصائد بعنوان أطيب الطيب، منطق الطير، وديوان الصبابة، وقيل أن له أكثر من ثمانين مصنفاً، توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ان حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص١٩٣. السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق، أبو الفضل إبراهيم، (مصر، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٧/١٩٧٨م)، ج١، ص٣٢٩. ابن العماد، شذرات، ج٦، ص٢٤٠.

[3] ابن العماد، شذرات، ج٦، ص٢٤٠. عطوي، ابن الفارض، ص٩٧.

[4] هو الشيخ الأكبر محيي الدين محمد المشهور بابن عربي، فقيه وصوفي مشهور، سمع الحديث، ودرس الكثير من العلوم، له ديوان شعري معروف بترجمان الأشواق، توفي سنة، ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الصفدي، الوافي، ج٤، ص١٢٤. المقرئ التلمساني، نفح الطيب، ج٢، ص٣٧٥. صانع، أنيس وآخرون، الموسوعة الفلسطينية "٧ مجلدات"، هيئة الموسوعة الفلسطينية، (بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ج٢، ص١٥٣٧. ألفا، أعلام الفلسفة، ج١، ص٣٥. الغراب، محيي الدين، ص٥. العطي، فاروق عبد، محيي الدين بن عربي، -حياته - مذهبه - زهده، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص٢٣.

مــالي وإيــاك غيــر الله مــن ســندٍ — وفــاز مــن يتخــذ رب الــورى ســندا
هو المهــيمن فــوق العــرش مــسكنه — كمــا يليــق بــه دينــاً ومعتقــداً
يــأتي وينــزل والألبــاب تطلبــه — كمــا روينــا علــى المعنــى الــذي قــصدا
ومن يكون على مــا قُلــت فيــه فقــد — وفِــي بمــا كلــفَ الإنــسان واقتــصدا
ودع مقالــة قــومٍ قــال عــالمهم — بأنــه بالإلــه الواحــد اتحــدا
الاتحــاد محــال لا يقــول بــه — إلا جهــول بــه عــن عقلــه شــردا
وعــن حقيقتــه وعــن شــريعته — ولتتخــذ عنــده قبــل القــدوم يــدا
وانهض إلى واهب الأسرار تحــظ بــه — فاعبــد إلهــك لا تــشرك بــه أحــدا
لديــه مــن دارك الــدنيا ومــن فكــر — تظــل مــن أجلهــا فــي حيــرة أبــداً
وكــن إمامــاً ولا تــنهض لمعــرةٍ — بكــل وجــهٍ وكــن فــي الحكــم مجتهــدا
ولا تغــالط بتعطيــل وأقيــسةٍ — وكــن عــن الــرأي والتقليــد منفــردا
إني نــصحتك والــرحمن يــشهد لــي — كمــا أُمــرت وهــذا كلــه وردا [1]

أما شعره الذي يعبر فيه عن شوقه، وتلهفه للكعبة المشرفة، يقول فيه:

أنــي إلــى الكعبــة الغّــراء مــشتاق — فيهــا لعاشــقها فــي الــسر إمــلاق
إذا تــذكرت أســراري ومــشهدها — فيهــا تحركنــي للبيــت أشــواق
الله يعلــم أنــي لــست أذكرهــا — إلا وعنــدي لــذاك الــذكر إحــراق
فــالروح تائهــةٌ والنــاس والهــة — والقلــب محتــرق والــدمع مهــراق [1]

أما شعره الذي نظمه، ويبين فيه حق الجار، يقول فيه:

إن المهــيمن وصــى الجــار بالجــار — والكــل جــارُ لــربِ النــاس والــدار
فــإن تعــدى عليــه جــاره فلــه — العفــوَ والأخــذ آثــاراً بآثــارِ
إن شاء عاقبــه أو يعــف عــن كــرمٍ — والعفو شيمةُ مــن يــصغي إلــى القــارى(2)

---

[1] ابن عربي، محمد بن علي، ديوان الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، تحقيق، محمد قجة، (بيروت، دار الشرق العربي)، ص١٢٩. الأهل، عبد العزيز سيد، محيي الدين بن عربي في شعره، (بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ص٥٢.

ومن شعراء عصر الحروب الصليبية، الشاعر الصوفي عبد الرحيم البرعـي، [3] صـاحب ديـوان شعري يتناول فيه موضوعات مختلفة، ومن أشعاره المختلفة، له قصيدة يعزي فيها صديقاً لـه فقـد ولده، يقول فيها:

أفـقِ هُـديَت مـن التبـريح والكمـد وإن تكـن قطعـةٌ ذابـت مـن الكبـد

واقنع بمن لمن بـذل سـبحانه عوضـاً عن كل مـا فـات مـن أهـل ومـن ولـد

وأشكر على نعمة مـن نعمـة نـشأت لمـن أراد بـك الحـسنى ولـم تـرد

وأصبر على الكـسر عـلَّ الله يجيـره بمعظـم الأجـرِ واطلـب جـوده تجـدِ

وكلمـا صـرعتك النائبـات فقـل يـا سـيدي يـا رسـول الله خـذ بيـدي [4]

ومن أشعاره، قصيدة له ينصح فيها صديقاً له بترك اللهو، والالتجاء إلى الله، فيخاطبه قائلاً:

مضى زمـن الـصبا فـدع التـصابي قبـيح فيـك شـبت وأنـت صـابي

تظـلُّ تغـازل الغـزلان لهـواً وتكثـر ذكـر زينـب والربـابِ

وتلـبس للبطالـة كـل ثـوبِ وتنـسى مـا يـسودُ فـي الكتـاب

وقـد بـذلت بعـد قـواك ضـعفاً ودلَ الـشيبُ منـكَ علـى تبـابِ

فخـذ زاداً يكـون بـه بـلاغٌ وتـب فلعـل فـوزك فـي المتـابِ [1]

---

[1] الأهل، محيي الدين بن عربي، ص١٧٢.

[2] ابن عربي، ديوان الشيخ الأكبر، ص١٧٦. الأهل، محيي الدين بن عربي، ص٣٣٨.

[3] هو عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي، اليمني، زار بلاد الشام، وهو من كبار الصوفية، له ديوان شعر في المدائح النبوية، توفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وقال عنه اسماعيل باشا هو من رجال القرن الخامس الهجري، للمزيد عن ترجمته، انظر: البغدادي، هدية العارفين، ج١، ص٥٥٩. كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١٢٩.

[4] البرعي، عبد الرحيم بن أحمد، ديوان البرعي في المدائح الربانية والنبوية والصوفية، شرحه وضبطه، حافظ المسعودي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ط٢، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م)، ص١٢٣.

كما كان للصوفية باعٌ طويلة في أشعار المناجاة، فهم الذين أنشأوا هذا الفن وقالوا فيه القصائد الكثيرة، منها قصيدة عبد الرحيم البرعي الذي يناجي فيها ربه قائلاً:

لك الحمدُ حمداً نستلذُ به ذكراً ... وإن كنت لا أحصي ثناءً ولا شكراً
لك الحمد حمداً طيباً يملأ السما ... وأقطارها والأرض والبرَّ والبحرا
لك الحمد حمداً سرمدياً مباركاً ... يَقِلُّ مِدَادُ البحرِ عن كنهه حُصْراً

لك الحمد تعظيماً لوجهك قائماً ... بحقِّك في السرَّاء منى وفي الضرَّا
لك الحمد مقروناً بشكرك دائماً ... لك الحمد في الأولى لك الحمد في الأخرى
لك الحمد موصولاً بغير نهاية ... وأنت إلهي ما أحَقّ وما أحرى
لك الحمد يا ذا الكبرياء ومن يكن ... بحمدك ذا شكرٍ فقد أحرز الشكرا
لك الحمد حمداً لا يعد لحاصر ... أيحصى الحصى والنبت والرمل والقطرا[2]

وله قصيدة أخرى، يناجي فيها ربه أن يقيل عثرته، وأن يعافيه من الأمراضِ والعللِ ابتدأها بقوله: -

مقيل العاثرين أقل عثاري ... وخذ لي من بني زمني بثاري
وجَمِّلْني بعافيةٍ وعَفْوٍ ... من الامراض والعلل الطواري
فيا فرداً فلا ثانٍ أجرني ... بعزِّ عُلاكَ من شانٍ وزارِ
ولا تُشْمِتْ بِيَ الأعداء وانظر ... إليَّ برحمةٍ نظرَ اختيار
فقد هتكوا حِمَايَ وعاندوني ... على نعم تدر على ديار
وإن تضرري وعَنَايَ منهُم ... نظير تذللي لك وافتقاري
فإن يخْسَرْ بسوقهم إتجاري ... ففضلك سوق أرباح التّجار[3]

---

(1) البرعي، ديوان المدائح الربانية، ص٣٠٤.

(2) المصدر نفسه ، ص٩.

(3) البرعي، ديوان المدائح الربانية، ص ١٨.

أما مناجاة ابن عربي لربه تتمثل في قوله:

تريد جفوني أن ترى نــور وجهكــم فتـــشهدكم عينـــي ويرعـــاكم قلبـــي
ترفق بمــن أضــحى قتــيلاً بحــبكم وبـــالكلف المـــشتاق والوالـــهِ الـــصَّبِ
أتاكم من الكــون الغريــب لترفعــوا بفـــضلكم عنـــه مـــشاهدةِ الحجـــب
يناجي الذي في قلبــه مــن وجــودكم بما جاء مــنكم فــي الــصحائف والكتــبِ[١]

وفي هذه القصيدة يتمنى ابن عربي على ربه ان يجعله مع من يدخلون في قوله: { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [٢]

ويناجي ابن عربي مولاه في قصيدة أخرى فيقول فيها:

أيا خير مصحوب ويا خيــر صــاحب عليــك اتكـــالي فـــي جميـــع مطـــالبي
عليــك اتكــالي ثــم أنــت وســيلتي إليـــك فَحُـــلْ بينـــي وبـــين مطـــالبي
وكــن عنــد ظنــي لا تخيبــه إنــه مـــن أكـــرم مطلـــوب وأفقـــر طالـــب
لقــد تــرجم الإيمــان عــنكم بــإنكم ضـــمنتم لأمثـــالي جميـــع المطالـــب [٣]

ويناجيه في قصيدة أخرى، طالباً منه أن يوفقه إلى طاعته، وقربه، فيقول:

إلهي وفقني إلــى كــل مــا يُرضــي ورَضِّ فؤادي بالــذي أنــت لــي تقــضي
فــإن كــان ســراء حمــدتُك منعمــاً وإن كان ضــراء نظــرت إلــى المقــضي
فــانظر فيــه بالــذي قــد ذكرتــه فإن كان لا يرضي عدلت إلــى المرضــى
إلهــي أرجــو مــن عنــايتكم بنــا إذا زلت عــن نــدبٍ أسـير إلــى فــرضٍ
وإن كنتُ فــي رفــع بربــي محققــاً فــلا تحجبنـــي عـــن عبوديـــة الخفــضِ
أفـــوض أحـــوالي إليـــك مـــسلماً لأكتــب فــيمن أمــره للرضــا يفــضي[٤]

ومن الفنون الأدبية التي أجاد فيها صوفية بلاد الشام إبان الحروب الصليبية، فــن المــدائح النبوية، وكان لاهتمامهم بمدح الرسول ﷺ أثر بالغ في الأدب، حيث احتلت مدائحهم النبويــة حيــزاً واسعاً، وعريضاً، من الأدب الصوفي.

وإذا كانت المدائح التقليدية تنتظر العطاء والهبة والجوائز، وغير ذلك مما يبذله الممدوح لمادحه،

---

[1] الأهل، محي الدين بن عربي، ص٢٢٠.
[2] القيامة، آية(٢٢- ٢٣).
[3] ابن عربي، الديوان، ص٤٧. الأهل، محي الدين بن عربي، ص٢٣٢.
[4]ابن عربي، الديوان، ص٢٢٤. الأهل، محي الدين بن عربي، ص٢٦١.

فإن المدائح النبوية اختلفت عن هذا وتغايرت، فقد كانت مدائح خالصة، متجردة، لا يدفعها الهوى، ولا يسوقها الغرض، ولا تصدر عن طمع، لأنها كانت لوجه الله خالصة، وبحب الرسول لاهجةً، فكانت غايةً في الصدق والحب.

ومن شعراء الصوفية الذين أبدعوا في مدح الرسول ﷺ الإمام الصوفي البوصيري[١] الذي نظم قصائد عدة، في مدح الرسول ﷺ كان أشهرها قصيدته المعروفة بالبردة[٢] وهي من أشهر القصائد التي قيلت في مدح رسول الله ﷺ وهي مكونة من أربعمئة وستة وخمسين بيتاً شعرياً ابتدأها بقوله:

كيف ترقى رقيك الأنبياء	يا سماء ما طاولتها سماءُ
لم يساووك في علاك وقد حال	سنا منك دونهم وسناءُ
إنما مثلوا صفاتك للناس	كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضلٍ فما تصدر	إلا عن ضوائك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيب	ومنها لآدم الأسماءُ
لم تزل في ضمائر الكون تختار	لك الأمهات والآباءُ
ما مضت فترة من الرسل إلا	بشّرت قومها بك الأنبياءُ
تتباهى بك العصور وتسمو	بك علياءٌ بعدها علياءُ
وبدا للوجود منك كريم	من كريم آباؤه كرماءُ
نسب تحسب العلا بحُلاه	قلّدَتها نجومها الجوزاءُ[٣]

ومن قصائده أيضاً في مدح رسول الله ﷺ قصيدة مكونة من مئة وأربعة أبيات ابتدأها بقوله:

بمدح المصطفى تحيا القلوب	وتختفي الخطايا والذنوب
وأرجو أن أعيش به سعيداً	وألقاه وليس عليّ حُوبُ
نبيٌّ كاملُ الأوصاف تمت	محاسنه فقيل له الحبيب

---

(1) هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن شرف الدين، مثقف بثقافة عصره، درس العلوم الدينية وما تيسر من اللغة العربية كالنحو والصرف، والعروض، والأدب والتاريخ والسيرة النبوية، ثم اطلع على أسرار التصوف وآدابه وطرقه، من آثاره الشعرية قصيدته المسماة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية، المعروفة باسم البرده، قصيدة أم القرى في مدح خير الورى، توفى سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الصفدي، الوافي، ج٣، ص٨٨. حاجي، كشف الظنون، ج٢، ص١٣٣١. كحاله، معجم المؤلفين، ج٣، ص٣١٧.

(2) عرفت بالبردة، لأن البوصيري أصيب بفالج أبطل نصفه، ففكر في عمل قصيدته هذه، وتوسل بها إلى الله تعالى، ثم نام فرأى النبي ﷺ فمسح على وجهه وألقى عليه بردته فشفى البوصيري، للمزيد، انظر: الصفدي، الوافي، ج٣، ص٩٣. النبهاني، يوسف بن إسماعيل، المجموعة النبهانية، ٤ أجزاء، (دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١)، ص٣٧، ج١، ص٥.

(3) البوصيري، الديوان، ص٩.

يفـــرج ذكـــره الكربـــات عنـــا	إذا نزلـــــت بـــــساحتنا الكـــــروبُ
مدائحـــه تزيـــد القلـــب شـــوقاً	إليــــه كأنهـــا حلـــيٌ وطيـــب [1]

وبلغت قصائد البوصيري التي مدح بها رسول الله ﷺ عشر قصائد مجموع أبياتهـا ألـف وسـتمئة وواحد وعشرون بيتاً.[2]

ومن الشعراء الذين أبدعوا القصائد في مدح الرسول ﷺ الـشيخ الـصوفي عبـد الـرحيم البرعي، وله ديوان في مدح الرسول، بلغت قصائده عشرين قصيدة، مجموع أبياتها ألـف وتـسعة وعشرون بيتاً، وهي تحتل منزلة عالية في هذا الفن، وهو بلا شك ثروة أدبية كبيرة، ومن قـصائده في هذا المجال قصيدة ابتدأها بقوله.

بمحمد خطـر المحامـد يعظـم	وعقـــود تيجـــان القبـــول تـــنظم
وله الشفاعة والمغـانم الأعظـم	يــوم القلــوب لــدي الحنــاجرِ كظَّــمُ

بحياتكم صلّوا عليه وسلموا

قمـــر يغـــرد بالكمـــال كمالـــه	وحـــوى المحاســن حــسنه وجمالُــه
وتنـــاول الكـــرم العـــريض نوالـــه	وحـــوى المغـــافر فخـــرُه المتقـــدمُ
والله مــــا ذرأ الإلــــه ولا بــــرا	بشراً ولا ملكـاً كأحمـد فـي الـورى
فعليـــه صـــلَّ الله مـــا قلـــمٌ حـــري	وجـــلا الـــدياجي نـــوره المتبـــسمُ[3]

ومن قصائده أيضاً في مدح رسول الله ﷺ، قصيدته التي ابتدأها بقوله:

يـــا صـــاحب القبـــر المنيـــر بيثـــرب	يـــا منتهـــى أملـــي وغايـــةَ مطلبـــي
يـــا مـــن بـــه النائبـــات توســـلي	وإليـــه مـــن كـــلِّ الحـــوادث مهربـــي
يـــا مـــن نرجيـــه لكـــشف عظيمـــةٍ	ولحــــل عقــــدٍ ملتــــوٍ مُتعـــصِّبِ
يا مـــن يجـــود علـــى الوجـــود بـــأنعمٍ	خُضْرٍ تعُـمُّ عمـوم صـوب الـصَّيِّب
يا غوث مـــن فـــي الخـــافقين وغيـــثهم	وربـــيعهم فـــي كـــل عـــام مجـــدبٍ[4]

كما تجلَّى الأدب الصوفي في أبهى صوره، في الوصايا والنصائح التي يوصي بها الـسادة الصوفية أبناءهم، وتلاميذهم، وإخوانهم، من هذه الوصايا وصية الإمام الغزالي، لأحد تلاميذه قائلاً: له "أيها الولد، النصيحة سهلة، والمشكل قبولها، لأنها في مذاق متبعـي الهـوى مـر، إذ المنـاهي

---

[1] المصدر نفسه، ص٣٧.

[2] النبهاني، المجموعة النبهانية، ج١، ص٣٧.

[3] البرعي، ديوان المدائح الربانية، ص٤٧.

[4] البرعي، ديوان المدائح الربانية، ص٦٣.

محبوبة في قلوبهم، وعلى الخصوص لمن كان طالب علم، مشتغلاً في فضل النفس، ومناقب الدنيا.[١]

"أيها الولد، إني أنصحك بثمانية أشياء، أقبلها مني لئلا يكون عِلمك خصمك يوم القيامة، تعمل منها أربعا، وتدع منها أربعا، أما اللواتي تدع، فأحدها، ألا تناظر أحداً في مسألة ما استطعت لأن فيها آفاتٍ كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبعُ كل خُلقٍ ذميم، كالرياء، والحسد، والكبر، والحقد، والعداوة، والمباهاة، وغيرها.

نعم لو وقعت مسألة بينك وبين شخص، أو قوم، وكانت إرادتك منها أن تظهر الحق، ولا يضيع جاز البحث، والثاني مما تدع، هو أن تحذر وتحترز من أن تكون واعظاً، ومذكراً، لأن آفته كثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولاً، ثم تعظ به الناس، فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام: "يا ابن مريم، عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستح من ربك"[٢]

والثالث مما تدع "لا تخالط الأمراء والسلاطين، ولا تَرَهُمْ، لأن رؤيتهم ومجالستهم، ومخالطتهم آفة، عظيمة، ولو ابتليت بها دَعْ عنك مدحهم، وثناءهم، لأن الله يغضب إذا مدح الفاسق والظالم، ومن دعا بطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله في أرضه.

والرابع، ألا تقبل شيئاً من عطاء الأمراء، وهداياهم، وإن علمت إنها من الحلال، لأن الطمع فيهم يفسد الدين، لأنه يتولد منه المداهنة، ومراعاة جانبهم، والموافقة في ظلمهم، وهذا كله فسادُ في الدين، وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم، وانتفعت من دنياهم، أحببتهم، ومن أحب أحداً أحب طول عمره وبقاءه بالضرورة، وفي محبة بقاء الظالم إرادة في الظلم على عباد الله تعالى، وإرادة خراب العالم، فأي شيء يكون أضر من هذا على الدين والعافية"[٣]

أما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها:

الأولى : "أن تجعل معاملتك مع الله، بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه ولا يضيق خاطرك عليه، ولا تغضب، والذي لا ترضى به لنفسك من عبدك فلا ترضاه لله تعالى وهو سيدك الحقيقي.

والثانية : أن تعامل الناس بما ترضاه لنفسك منهم، لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه.

والثالثة : إذا قرأت العلم أو طالعته، ينبغي أن يكون علمك علماً يصلح قلبك ويزكي نفسك.

---

[1] الغزالي، أيها الولد، ص٨.

[2] الغزالي، أيها الولد، ص٣٩. القطان، الغزالي المعلم والمربي، ص٣٩٩.

[3] الغزالي، أيها الولد، ص٣٩-٤٣. ألفا، أعلام الفلسفة، ج٢، ص١٠٤.

والرابعة : ألا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة ، كما كان رسول الله ﷺ يُعِدَّ ذلك لبعض حجُراته، وقال "اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً"[١] ولم يكن يعد ذلك لكل حجراته بل كان يعده لمن علم أن في قلبها ضعفاً، وأما من كانت صاحبة يقين فما كان يعد لها أكثر من قوت يوم ونصف"[٢]

من هذه النصائح والوصايا، يظهر لنا مدى معرفة الإمام الغزالي في التربية والتعليم، وكيف كان معلماً في جميع أحواله، حريصاً على نصيحة تلامذته وإخوانه، كل هذا مع تواضع كبير وإخلاص، وصدق في القول، والعمل، يتبين ذلك من أقواله التي ختم بها موسوعته التي أسماها إحياء علوم الدين إذ يقول: "ونحن نستغفر الله تعالى، من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما ادعيناه، وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى، مع التقصير فيه، ونستغفره من كل وعدٍ وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمةٍ أنعم بها علينا، فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص، وتقصير مقصر، كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا به للناس في كتاب سطرناه، أو كلام نظمناه أو علم أفدناه، أو استفدناه، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا، ولمن طالع كتابنا هذا..." [٣]

ومن نصائح الشيخ الصوفي أحمد الرفاعي[٤] لأولاده، وإخوانه، وأصدقائه، وأتباعه "يا ولدي، بُنيَّ الطريق على الصدق والإخلاص، وحسن الخلق والكرم، يا ولدي، الغنى بالعلم، والزينة بالحلم، والكرامة والتقوى والعزة بمخالفة النفس، يا ولدي أكثر من الدعاء المأثور، وعدّ نفسك من أهل القبور، وقل اللهم أغنني بالعلم، وزيني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجملني بالعافية، يا ولدي أكثر الناس في بيت الغفلة، فلا تكن من الغافلين، فإذا نظرت بعين البصيرة، رأيت حقيقة فناء الكل، فإذا تحققت فناء الكل تركت الكل، يا ولدي، إياك والظهور، فالظهور يقصم الظهور، يا ولدي، عملك خيرٌ لك من نسبك، وأدبك خيرٌ لك من أبيك، وحسن خلقك خير لك من قبيلتك، وتوكلك على الله خير لك من مالك، وتفويضك إلى القدر، خير لك من تدبيرك".[٥]

وكان يقول لبعض تلاميذه "يا ولدي، عليك بملازمة الشرع بأمر الظاهر والباطن، وبحفظ القلب من نسيان ذكر الله، وبخدمة الفقراء والغرباء، وبادر دائماً بالسرعة للعمل الصالح من غير كسل ولا ملل، وقم في مرضاة الله تعالى، وقف في باب الله، وعود نفسك القيام في الليل، وسلمها من الرياء في العمل، وابك في خلواتك، وجلواتك على ذنوبك الماضية، يا ولدي، إن الدنيا خيال، ما

---

(1) مسلم، الصحيح، ص١٨٠. ابن ماجه، السنن، ج٢، ص١٣٨٧.

(2) الغزالي، أيها الولد، ص٤٥. أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص٢٠.

(3) الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٥٤٤.

(4) سبق ترجمته.

(5) الصيادي، قلادة الجواهر، ص ١٥٤-١٥٥.

فيها زوال، يا ولدي، همة أبناء الدنيا دنياهم، وهمة أبناء الآخرة آخرتهم، الدنيا أولها ضعف وفتور، وآخرها موت وقبور، لو بقي ساكنها ما خربت مساكنها، يا ولدي، صل الرحم، وأكــرم الأقــارب، واعف عمن ظلمك، ولا تتردد على أبواب الوزراء والحكام، وأكثر من زيارة الفقراء، وليِّن كلامــك للخلق، وكلمهم على قدر عقولهم، وحسن خلقك وأعرض عن الجاهلين، وقم بقضاء حوائج اليتامى، وأكرمهم، وأكثر التردد لزيارة المتروكين من الفقراء، وبادر بخدمة الأرامل، وارحم تُــرحم، وكــن مع الله ترى الله معك، واجعل الإخلاص رفيقك في سائر الأقوال، والأفعال، واجتهد بهدايــة الخلــق لطريق الحق. (١)

هكذا كان صوفية بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، مشاركين في الحياة العلميــة، بــل أن مشايخهم وساداتهم هم قادة الفكر والبيان، وأمراء الشعر والنثر، فازدهرت علــى أيــديهم الأشــعار الصوفية، والمدائح النبوية التي أصبحت فناً مستقلاً بذاته، يقول زكي مبارك(٢) "كان ملحوظاً فــيهم أنهم من أقطاب الأدب والبيان". (٣)

ولقد أكثر الصوفية من مدح رسول الله ﷺ وتوسلوا(٤) به إلى الله لكشف الغمة عــن أمتــه، "حيث كانت الحروب الصليبية التي شنها الصليبيون ضد الدين الحنيف من أهم عوامل ازدهار فــن المدائح النبوية". (٥)

كما إن عمائر الصوفية من زوايا، وربط، وخانقاهات، كانت مراكز إشعاع علمية، تعقد فيها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بها من علوم فقهية، ونقليــة، وعقليــة(٦) كعلــم القــرآن، والحديث، والتفسير، وأصول الفقه، وعلوم اللغــة العربيــة، والعــروض، والتــاريخ، والحــساب، والطب، والتصوف. (٧)

---

(1) الصيادي، قلادة الجواهر، ص ١٥٥-١٥٦.

(2) سبق ترجمته.

(3) مبارك، التصوف الإسلامي، ج٢، ص٦٨.

(4) التوسل بالصالحين والأولياء، تعمل وتأخذ به جميع الطرق والفرق الصوفية، يقول ابن تيمية، التوسل بالأموات، ولو كــان برسول الله ﷺ مخالف لإجماع الصحابة والتابعين لهم، فإن أحداً من الصحابة لم يثبت عنه إنه طلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له، ولا سأله شيئاً، ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، ابن تيمية، الفتاوى، ج١، ص١٢٠.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣٠١.

(6) حسن، حسن ابراهيم، "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٣ أجزاء، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٨٤هــ/١٩٦٤م)، ج٢، ص٤٢٣.

(7) ابن تميم المقدسي، شهاب الدين أبو محمود، "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام"، تحقيق، أحمد الخطيمي، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٥هــ/١٩٩٤م)، ص٣٥.

وكان العديد من هذه الدور، يحتـوي على مكتبـات، تشتمل على العديـد مـن الكتـب، ولا سيمـا المصاحف، وكتب علوم الفقه، والنحـو، والفـلك، كمـا كانـت بعـض الزوايـا والخانقاهـات، لا تخلـو من مؤلفـات فلسفيـة لـبعض الفلاسفـة، والعلمـاء، والأدبـاء، والفقهـاء، واللغوييـن، والنحـاة. [١]

وقد أتاحت هذه الكتب المتوفرة في الزوايا والربط والخانقاهات، الفرصـة أمـام روادهـا والمقيمين فيها من طلبة، ومدرسين، وعلمـاء، للمطالعة والكتابـة، لذلك نلاحظ أن الكثير من كتب التصوف أُلفت في الربط والزوايا والخانقاهـات، بسبب ما توفره هذه الأماكن من استقرار وهـدوء مناسب يشجع على الدراسة والكتابة. [٢]

كما كانت دور الصوفيـة الملجأ الذي يلجأ إليه العلماء، والرحالة، وطلبـة العلـم، الـذين يتنقلون في أرجاء العالم الإسـلامي، ليتلقوا العلم على أيدي بعـض مشايـخ وعلماء المؤسسـات الصوفية[٣] ومما يـدلل على الأهمية التعليميـة للزوايا الصوفيـة، أن الكثيـر مـن مـدارس بـلاد الشام كانت تعرف بالزوايا، والكثير من الزوايا كان يطلق عليها اسم مـدارس، فالمـدرسة الأمينيـة هي الزاوية الأمينية[٤]، والزاوية النـصرية، هـي المدرسـة النـصرية[٥] والمدرسـة الختنيـة، هي الزاوية الختنية. [٦]

وكان كبار الشيوخ يعلمون في الزوايا، والمدارس، سواء بسواء، فالشيخان الكبيران نـصر المقدسي[٧]، وشهاب الدين بن أرسلان الرملي[١] كانا يعلمان في الزاويتين النصرية، والختنية، وكان لهما الفضل في تثقيف وتعليم العديد من الطلبة. [٢]

---

[1] كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص١٣١.

[2] المصري، التعليم في بلاد الشام، ص١٤٣.

[3] انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٢٧. المدني، الحياة العلمية في فلسطين ص١٨١.

[4] الزاوية او المدرسة الأمينية، هي التي بناها، الشيخ أمين الدين عبد الله، وأوقفها سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، وهي قريبة مـن المدرسة الداوادارية التي تعرف بدار الصالحين، العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٤.

[5] المدرسة النصرية، تعد من أقدم مدارس القدس، سميت بذلك، نسبةً إلى مؤسسها نصر المقدسي، وهي أيضاً تعرف بالزاوية النصرية، العسلي، كامل جميل، معاهد العلم في بيت المقدس، (عمان، المطابع التعاونية، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م)، ص٩٦.

[6] المدرسة الختنية، هي التي تقع خلف منبر المسجد الأقصى، بناها صلاح الدين، وأوقفها على رجل من الصالحين، يـدعى جلال الدين محمد بن أحمد الشاشي، كان مجاوراً لبيت المقدس، انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٩، ص٢٠٧.

[7] هو شيخ الشافعية بالشام، ولد بنابلس، وكان إماماً صوفياً، وعلامة في الفقه والأدب، كان زاهداً ورعاً، له تصانيف كثيـرة في علوم الفقه واللغة والأدب، توفى سنة، ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي العبر، ج٢، ص٣٦٣. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٣٩٥.

يتضح للباحث من العرض السابق عن صوفية بلاد الشام إبان الحروب الصليبية، الدور البارز في بعث الحركة العلمية، وتطورها، فالحركة الصوفية أسدت إلى المكتبة العلمية كتباً في شتى العلوم الصوفية، وغيرها، وأصبحت منهلاً للمريدين، وطالبي العلم إلى عصرنا هذا، وصدق تاج الدين السبكي[٣] حيث يقول: "حياهم الله وبياهم، وجمعنا في الجنة نحن وإياهم"[٤].

---

[1] هو الشيخ شهاب الدين بن أرسلان الرملي، المقدسي الشافعي المذهب، ولد بالرملة إحدى مدن فلسطين الرئيسة، لم أجد له ترجمة في كتب التراجم.

[2] العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص٣٠٨.

[3] هو الشيخ الإمام قاضي القضاة عبد الوهاب السبكي، ولد بالقاهرة، وقدم دمشق ٧٣٩هـ/ ١٠٣٨م، درس في مدارس بلاد الشام، كان عالماً بالفقه والأصول والأدب، وكان شاعراً جيد البديهة، صاحب بلاغة وطلاقة لسان تولى القضاء في بلاد الشام، توفى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن العماد، شذرات ج٦، ص٢٢١.

[4] السبكي، معيد النعم، ص١١٩.

دور الصوفية في الحياة الاقتصادية

للصوفية فلسفة خاصة في حياتهم الاقتصادية، فالعمل والسعي وراء الرزق ليس من أولوياتهم، وقلما مارسوه في حياتهم، ففلسفة العمل عندهم قائمة على أن لا يكون سبباً في انشغال القلب عن الله، أما إذا كان العمل يسبب تشويشاُ في القلب وانشغالاً عن الله تعالى، فتركه أولى وأفضل.

يؤكد الغزالي هذا الكلام بقوله " أعلم أنه [أي الصوفي] إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص، واستغراق وقت بالعبادة، وكان الكسب يشوش عليه ذلك، وهو مع هذا لا تستشرف[1] نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاَ، بل يكون قوي القلب في الصبر، والإتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى، وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلي الناس فالكسب له أولى، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك التكسب[2] ويؤيد هذا الكلام" جواب أحد صوفية بلاد الشام عندما شوهد وهو يطحن حبوباً بعد أن كان قد ترك العمل أربعين سنة، فقيل له دخلت في التكسب بعد إن كنت قد تركته، فقال، يا هذا إذا عدمنا عز التوكل فإننا لم نصبر على ذل الاستشراف.... فالتكسب خير من التشرف إلى الخلق"[3]

معنى ذلك أن الصوفي إذا فرغ قلبه من الخلق وشغله بالخالق، واستغرقت العبادة كل وقته، مع إخلاص وصبر وإتكال على الله من غير اضطراب قلب، أو تطلع إلى الناس فله ترك العمل،أما إذا تطلع لما في أيدي الناس منتظراً أن يوفروا له رزقه، وانشغل قلبه في ذلك، فالعمل والتكسب له أولى.

مع هذا الكلام يرى الباحث أن هناك إشكالية قائمة عند الصوفية، سببها نوعية العلاقة بين التوكل، وبين الأخذ بالسبب.

وهل هناك تعارض بين التوكل على الله، وبين الأخذ بالأسباب، وهل من يأخذ بالأسباب لا يكون متوكلاً.

يؤكد هذه الإشكالية الإمام الغزالي عند حديثة عن التوكل بقوله " التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقربين، وهو في نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع[4].

---

(1) الاستشراف، بمعنى الحرص، تقول، استشرفت الشيء، إذا رفعت رأسك أو بصرك تنظر إليه، ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص ١٧٢.

(2) الغزالي، الأحياء، ج٤، ص٢٦٩..

(3) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص١٦.

(4) الغزالي، الإحياء، ج ٤، ص٢٤٣.

ويقول في موضع آخر "قد يظن البعض أن التوكل ترك التكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم [1]، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين، بل نكشف الغطاء عنه ونقول، إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد، وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وسعي العبد باختياره، إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع عنده كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل [2] والسارق والسباع" [3]، يفهم من كلام الإمام الغزالي أن جلب النافع وهو العمل والكسب لا يكون إلا بارتباط الأسباب مع تقدير الله ومشيئته ارتباطا مطرداً [4] فلا يعني التوكل ترك العمل، والتكسب، فالأرض لا يمكن أن تنبت نباتاً ترغب فيه بدون بذر، ولا يمكن أن تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام، ولا يمكن أن يصل الطعام الموضوع أمامك إلى فمك دون أن تمتد يدك إليه، وتقول أنا متوكل، فهذا جنون محض، وليس من التوكل في شيء.

بسبب هذه الإشكالية تعددت وجهات النظر إلى العمل والتكسب عند الصوفية وانقسموا إلى فريقين، فريق يرى أن ممارسة العمل والتكسب لا بأس ولا يتنافى مع التعبد، والتوكل على الله تعالى مع اعتقادهم أن العمل وسيله وليس غاية، وأن الرزق ليس نتيجة العمل، فالله سبحانه وتعالى هو الرازق المعطي، ودعموا أقوالهم وموقفهم بالعديد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال أسلافهم من السادة الصوفية.

أما الفريق الآخر فقد رأى في التصوف ترك العمل، لأن العمل يتنافى مع التوكل، وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى قد تكفل برزق كل مخلوق خلقه، فلم الكد، والتعب،واستدلوا أيضاً بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ،وأقوال أسلافهم من السادة الصوفية، وأما الآيات القرآنية التي استدلوا بها على أن الرزق مكتوب عند الله ولا داعي للعمل والكسب قول الله تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [5]، وقال تعالى " {وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا

---

[1] الوضم، كل شئ يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير، يوقى به من الأرض، ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، ص٦٤٠. الزبيدي، تاج العروس، ج١٧، ص٧٣١.

[2] الصائل من الرجال، هو الذي يضرب الناس ويتطاول عليهم، وجمل صؤول، وهو الذي يأكل راعية، ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٣٨٧.

[3] الغزالي، الإحياء، ج٤،ص٢٦٥.

[4] مطرداً، بمعنى تتابع، وأطرد الأمر، تبع بعضه بعضاً، وأطرد الأمر، استقام، وإضطرد الكلام إذا تتابع، وأطرد الأمر، تبع بعضه بعضاً وجرى الأمر واستقام، ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٦٨. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٣١٠.

[5] هود، أية ٦.

﴿ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [2] فقالوا إذا كان رزقنا في السماء، فلماذا نطلبه من الأرض: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [3]، وقالوا من كان الله كافيه فهو شافيه، ومعافيه،ولا يسأل عما هو فيه[4]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [5] أي كافيه مما سواه.

أما الأحاديث النبوية التي تحث على التوكل على الله في الرزق فكثيرة، منها قول رسول الله صلى الله علية وسلم " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً[6] وتعود بطاناً" [7].

وقال صلى الله علية وسلم: "من انقطع إلى الله عز وجل، كفاه الله تعالى كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها " [8].

وكان عيسى عليه السلام يقول لأتباعه: "أنظروا إلى الطير، لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله يرزقها يوماً بيوم"[9].

أما قول أسلافهم من السادة الصوفية في الحث على ترك العمل فكثيرة، منها قول سهل التستري[10] "إذا كان شغل الصوفي بالله، عليه ترك التسبب" [11]، وقال أبو يعقوب السوسي[12] "المتوكلون على الله تجرى أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب، وغيرهم مكدودون مشغولون" [13]، وقال بعض العلماء "لا يشغلك المضمون من الرزق عن

---

(1) العنكبوت، آية ٦٠.

(2) الذاريات، آية ٢٢.

(3) الزمر، آية ٣٦.

(4) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص٢.

(5) الطلاق، آية ٣.

(6) خماصاً من الخمص، وهي بمعنى الجوع، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً، والمخمصة بمعنى المجاعة، ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص٣٠. الزبيدي، تاج العروس، ج٩، ص٢٧٥.

(7) أبن ماجة، السنن، ج٢، ص١٣٩٤.

(8) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن محمد بن أحمد بن أيوب اللخمي، المعجم الصغير، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ج٢، ص١٦٧. الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٢٤٤.

(9) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢،ص٤..

(10) سبق ترجمته.

(11) الكلاباذي، التعرف، ص٩٧.

(12) سبق ترجمته.

(13) السهروردي، عوارف المعارف، ص١٠٠.

المفروض عليك من العمل، فَتُضيِعَ أمر آخرتك، ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك "[١]، وقيل " لو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لأدركه" [٢]، وقالوا: " يجب أن يكون حال الصوفي مع الله تعالى، كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها[٣] وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه، فإنها مفزعه، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها... فمن كان باله إلى الله عز وجل، ونظره إليه، واعتماده عليه، كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلاً حقاً، فإن الطفل متوكل على أمه "[٤].

هذه هي نظرة هذا الفريق من الصوفية إلى العمل والرزق، وكانوا هم الأكثرية في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، فكان نتيجة موقفهم هذا وفهمهم الخطأ لمعنى التوكل وتركهم للتكسب والعمل، إنهم لم يساهموا في ازدهار البلاد وتطورها اقتصادياً.

ومن العجب أن حالهم هذا وجد كل عناية، ورعاية، وتشجيع من قبل الحكام الزنكيين، والأيوبيين، والمماليك الذين رعوا الحركات الصوفية، وأولوها كل اهتمام، لأنَّ همَّ أولئك الحكام كان منصباً على طبع البلاد بالطابع الديني السني، وهذا الجانب كان للصوفية فيه دور فعَّال لكونهم ساهموا مساهمة ايجابية في محاربة المذهب الشيعي، ونشر المذهب السني، وهذا لوحده كان كافياً للفوز برضى الحكام الذين أغدقوا عليهم الأموال وبنوا لهم العمائر، وأوقفوا عليها الأوقاف[٥] الكثيرة، حتى أصبح لكل زاوية أو رباط أو خانقاه أوقافاً معينة، من بساتين وأراضٍ" حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه"[٦]، فكان كل منزل أو دار للصوفية يوقف عليها السلطان أو الأمير أو أهل الخير أوقافاً تقوم بها وبساكينها[٧]، ومن الأمثلة التي توضح كثرة الأوقاف الموقوفة على الصوفية وعمائرهم، أوقاف الزاوية المالكية الموجودة بالمسجد الأموي[٨] بدمشق حيث لها

---

(1) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص٤.

(2) أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص ٤-٥. الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٢٦٧.

(3) الغزالي، الإحياء، ج٤، ص٢٤٥.

(4) الغزالي، الإحياء، ج٤، ص ٢٦١.

(5) الأوقاف، هو حبس عقار أو أراضي عن البيع، وقصر منافعها على أهل الخير، أو هو ملك يتخلى عنه صاحبه ويمنحه لأغراض دينية، وتصبح ملكيته لله. ويستعمل ريعه في وجوه البر والإحسان، المقرئ المصباح المنير، ص٣٩٦، الرازي، مختار الصحاح، ص٣٩١. كرد على، خطط الشام، ج٥، ص٩٠. دمير، ميشيل، الوقف الإسلامي في فلسطين، مجلة هدى الإسلام، إدارة الأوقاف والشئون الإسلامية، (القدس، دار الأيتام الإسلام، العدد ٥، ص١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٢٩، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(6) ابن جبير، الرحلة، ص٢١٤. كرد علي، خطط الشام، ج٥، ص٩٩.

(7) ابن جبير، الرحلة، ص ٢١٤.

(8) الجامع الأموي، من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء، ابتناه الوليد بن عبد الملك في مدينة دمشق، للمزيد عنه، انظر: ابن جبير، الرحلة، ص٢٠٣، مطيع، محمد مطيع الحافظ، الجامع الأموي بدمشق، (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٣.

طاحونتان، وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام، ودكانان بسوق العطارين(١).

ونتاج هذه الأوقاف يعود إلى مشايخ الصوفية، وأتباعهم، مما جعلهم يعيشون في بحبوحة من العيش ،بسبب وفرة الطعام والشراب والكساء، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا العمل والتعب والشقاء؟؟

يؤكد هذا الكلام ابن بطوطة(٢) في حديثه عن صوفية دمشق، حيث يقول: "وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد وأن يتأتى له وجه من المعاش، من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو خدمة مشهد من المشاهد (٣) المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة"(٤).

هذا النص يؤكد أن السلطة الحاكمة كانت تخصص لكل نزيل في دور الصوفية حصة من الغذاء مع كسوة للصيف، وأخرى للشتاء، يقول المقريزي(٥) عند حديثة عن معاملة صلاح الدين الأيوبي للصوفية: " ورتب للصوفية في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً" (٦)، بسبب هذه المعاملة الحسنة من قبل الحكام للصوفية، تعددت دورهم وكثر عددها في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، فتجاوزت المئات بسبب تنافس أهل الخير من ملوك وأمراء وأميرات في بنائها، وإسكان الصوفية فيها بعد تجهيزها، لينعموا بما يقدمه إليهم أهل الخير بدون جهد أو نصب، أو تعب، حتى وصفهم ابن جبير بملوك الأرض قائلاً " وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من التفكير في أسباب المعايش، وأسكنهم قصوراً تذكرهم قصور الجنان" (٧)

كما انتشرت الصوفية فترة الحروب الصليبية انتشاراً خاصاً وواسعاً بين جماعات الحرفين، والتجار، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية(٨)، حيث إن الحرف والصناعة والزراعة عادة ما تكسد

---

(1) ابن جبير الرحلة، ص٢٢٢.

(2) هو محمد بن على اللواتي، المشهور بابن بطوطة، من أشهر الرحالة العرب والمسلمين، صاحب الرحلة المسماة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، توفى سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٩٢. حسين، المائة الأعظم، ص٢٢٤. محمد، أسماء أبو بكر، ابن بطوطة الرجل والرحلة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٣٤.

(3) المشاهد، هي مراقد العظماء من الصحابة والتابعين والعلماء والزهاد، وهي اشبة بالزوايا يقصدها الناس للتبرك، وإن كان منها لا يثبت أن فلاناً مدفوناً فيها، انظر: ابن منظور لسان العرب، ج٣، ص٢٤١، كرد على، خطط الشام، ج٦، ص١٥٣.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٢٢.

(5) سبق ترجمته.

(6) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤١٥.

(7) ابن جبير، الرحلة، ص٢٢١.

(8) تريان، الكساندر خانتشا، أهل الفتوة والفتيان في المجتمع الإسلامي، تقديم، صالح زهر الدين، (بيروت، المركز العربي للأبحاث، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨)، ص٨٧.

ويصيبها الخراب، والدمار، بسبب المعارك والحروب التي عادة ما تأكل الأخضر، واليابس، وينعدم بسببها الأمن، والأمان،والاستقرار في البلاد فلا يجد الفلاحون ولا أصحاب الحرف من ملجأ يضمن لهم الأمن والحماية والطعام والشراب وإشغال وقتهم، وملء فراغهم أفضل من دور الصوفية.

أما الفريق الثاني الذي زاول العمل، ودعا إليه، ولم يرَ فيه خدشاً للتوكل والتصوف اشترط أن يكون العمل والتكسب على قدر الحاجة، والكفاية، من غير استكثار، ولا ادخار، مع اعتماد على الله، لا على بضاعة ولا على خبرة وشطارة، واستدلوا على أفعالهم وأقوالهم بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال أسلافهم من السادة الصوفية التي تؤيد موقفهم ووجهة نظرهم، فمن آيات القرآن الكريم قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } [(١)] وقوله تعالى: { فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ } [(٢)] وقوله تعالى: { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ } [(٣)] وقوله تعالى: { وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا } [(٤)].

أما الأحاديث النبوية التي استدلوا بها على ممارسة العمل، " قول رسول الله ﷺ: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده" [(٥)] وقال رسول الله ﷺ: " إن داود علية السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده" [(٦)] وقال رسول الله ﷺ: "لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه" [(٧)]، وقال رسول الله ﷺ: " ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة " [(٨)]

أما أقوال ساداتهم الصوفية في الحث على التكسب والعمل فكثيرة، منها قول سفيان الثوري[(٩)]: "العالم إذا لم يكن له معيشه، صار وكيلاً للظلمة، والعابد إذا لم تكن له معيشه أكل بدينه،

[(1)] الأعراف، آية ١٠.

[(2)] الجمعة، آية ١٠.

[(3)] المزمل، آية ٢٠.

[(4)] النبأ، آية ١١

[(5)] البخاري، الصحيح، ص٣٧٣. البيهقي، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، كتاب السنن الكبرى، ١٠ أجزاء، (بيروت، دار المعرفة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ج٦، ص١٢٧.

[(6)] البخاري، الصحيح، ص٣٧٣.

[(7)] المصدر نفسه، ص٣٧٤.

[(8)] أبن ماجة، سنن، ج٢، ص٧٢٣.

[(9)] هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله محدث وفقيه، أهم مؤلفاته، "الجامع الكبير في الأحاديث"، "وتفسير القرآن الكريم"، توفى سنة ١٦١هـ/٧٧٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبن النديم، الفهرست، ص٣٧٣. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص٣٩٧-٣٩٨. كحالة، معجم المؤلفين، ج١، ص٧٧١.

والجاهل إذا لم تكن له معيشه كان سفيراً للفساق "[١]، وقال أبو طالب المكي[٢] " التكسب خير من التشرف إلى الخلق واعتياد المسألة.. ومن أنكر التكسب فقد طعن في السنة"[٣].

والإمام الغزالي أفرد كتاباً في موسوعته "إحياء علوم الدين" أسماه كتاب آداب الكسب والمعاش، وذكر فيه فضل الكسب والحث عليه، مستدلاً بذلك بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث من أقوال رسول الله ﷺ التي تحث على العمل، وثوابه وابتدأه بقوله:" إن رب الأرباب ومسبب الأسباب جعل الآخرة دار الثواب والعقاب، والدنيا دار التمحل[٤] والاضطراب، والتشمر، والاكتساب، وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها" [٥].

وكان الشيخ الصوفي أحمد الرفاعي [٦] يحث أتباعه على أن يتخذ كل منهم لنفسه حرفه يتكسب منها وكان يقول لهم" من لم يكن له عمل فليس منا" [٧].

وكان عبد القادر الجيلاني [٨] يحث أتباعه على التكسب والعمل قائلاً " كل بكسبك، ولا تأكل بدينك، اكتسب وكل، وواسي فيه غيرك، اكتساب المؤمنين أطباق الصديقين"[٩]، وقال الكلاباذي[١٠] " أجمعوا (أي الصوفية) على إباحة المكاسب من المتاجر والحرث، وغير ذلك مما أباحته الشريعة، عن تيقظ وتثبت وتحرر من الشبهات "[١١].

كما مارس سادة صوفية بلاد الشام التكسب، والعمل، ورأوا أن العمل والحركة لا يتنافيان مع التوكل، والزهد، الذي يعني السيطرة على النفس والقدرة على التحرر من سلطان المادة حتى ولو كان الإنسان يملك منها الكثير، مقتدين بأسيادهم الصوفية الأوائل أمثال إبراهيم بن أدهم [١٢]،

---

[1] أبو طالب، قوت القلوب، ج٢، ص١٦.

[2] هو الإمام العالم العامل، أبو طالب محمد بن على بن عطية، أحد أقطاب القرب الرابع الهجري، تميز بغزارة العلم وكثرته، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً في العبادة وهو صوفي متكلم له مصنفات في التصوف أهمها كتاب قوت القلوب، توفى سنة ٣٨٦هـ-٩٩٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: البغدادي، تاريخ، ج٣، ص٨٩. أبن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٨٦. الصفدي، الوافي، ج٤، ص٨٦.

[3] المصدر نفسه، ج٢، ص١٦.

[4] التمحل بمعنى المحل، أي الشدة والجوع، ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٦١٦.

[5] الغزالي، الإحياء، ج ٢، ص٦٠.

[6] سبق ترجمته.

[7] الفاسي، شمس الدين، حقيقة التصوف، (مصر، دار المعارف، ١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص٣٤.

[8] سبق ترجمته.

[9] الجيلاني، الفتح الرباني، ص١٥.

[10] سبق ترجمته.

[11] الكلاباذي، التعرف، ص٩٦.

[12] سبق ترجمته.

الذي كان يحرص على الكسب وممارسة العمل ويحث أتباعه عليه قائلاً: " عليك بعمل الأبطال الكسب الحلال، والنفقة على العيال " [١]، كما كان إبراهيم بن أدهم لا يأكل إلا من عمل يده حيث كان يعمل بالحصاد، فإذا انتهى موسم الحصاد اشتغل في حراسة البساتين [٢].

ومن السادة الصوفية الذين مارسوا العمل الشيخ الصوفي أرسلان الدمشقي، [٣] الذي كان يعمل نشاراً في نشر الخشب، لتدارك أسباب معيشته، وقيل استمر سنتان يأخذ أجرته التي كان يقسمها إلى ثلاثة أثلاث، ثلث يتصدق به، وثلث لقوته، وثلث لباقي مصالحة.[٤]

كما كان للإحتفالات الدينية التي كانت تقيمها الفرق الصوفية بمناسبة المولد النبوي أو مولد أحد أوليائهم دور في تفاعل الحركة التجارية، إلا أن هذا الدور كان باهتاً، وخافتاً، من الناحية الاقتصادية، حيث كان المولد يتخذ في شكله العام مظهراً دينياً، حيث القرآن يتلى، والأذكار والأوراد تعم مساحات شاسعة حول ضريح الولي، حتى يشمل حياً بأكمله، وبعض الأحياء المجاورة وكانت أيام المولد وكأنها سوق تجاري كبير يعرض فيه المنتجون بضاعتهم ويسعى إليها المستهلكون للشراء، فالمنتج والبائع يستفيدان من المولد في تصريف السلع، أما المستهلك فيستفيد من المنافسة بين الباعة عند الشراء.

وكانت الموالد في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية تعقد وقت تصريف المحاصيل الزراعية، التي تشتهر بها الأقاليم التي كانت تقام فيها الموالد[٥].

ويرى الباحث أنه لم يكن للصوفية الشامية فترة الحروب الصليبية أي دور إيجابي وفعال في نمو وازدهار الاقتصاد الشامي، وليس لها أي مساهمة في رقي المجتمع وتطوره من الناحية الاقتصادية، فأعمالهم كلها دونية، من حرث، وحراسة، وحجامة، ودباغة وحداده، أما المشاريع المنتجة والمساهمة في ازدهار المجتمع وتخفيف حدة البطالة بين أبنائه، فهذا معدوم وليس له أثر في حياة الحركة الصوفية في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية.

وبسبب تعرضنا للطرق الصوفية سنذكر أهمها انتشاراً في بلاد الشام:

أولاً: الطريقة الجوعية: "الدمشقية"

وهذه الطريقة اتخذت من المساجد ركناً لها، حيث كانت تقيم فيها حلقات الذكر والدراسة، ولقد وضعت هذه الطريقة لموريديها وأتباعها، منهجاً يتلاءم مع طبيعة التصوف في بلاد الشام، أهم مواده، التفسير، والحديث، وقراءة القرآن الصحيحة.

---

[1] الطوسي، اللمع، ص١٨٠.

[2] القشيري، الرسالة، ص٩. أبو نعيم، الحلية، ج٨، ص٣٢.

[3] سبق ترجمته.

[4] الذهبي، سير أعلام، ج ١٥، ص١٤٤.

[5] جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، ص٢٣٥-٢٥٤.

واتخذت هذه المدرسة، من الجوع شعاراً خاصاً بها، وأطلق على مريديها الجوعى، نتيجة لعدم إقبالهم على تناول الطعام إلا ما يقيم صلبهم، [١] ويدعي أصحاب هذه الطريقة أن مؤسسها، التابعي الجليل، أبو سليمان الداراني،[٢] الذي يقول: "مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، وإن الله يعطي الدنيا، من يحب ومن لا يحب، وأن الجوع عنده في خزائن مدخرة، ولا يعطي إلا من أحب خاصته، ولأن أدع من عشائي لقمة أحب إلي من أن آكلها، وأقوم من أول الليل إلى آخره".[٣] وقال أيضاً: "جوع قليل وسهر قليل، يقطع عنك الدنيا".[٤]

وقامت هذه الطريقة على دراسة الشريعة الإسلامية، فالشريعة في نظرها، ليست من أعمال الحاكم في الدولة الإسلامية، وهي تطبق على الحكام والمحكومين سواء، فالحاكم في نظرهم، ليس من حقه أن يشرع للناس، ولا يعتبر ما يصدره الحاكم من أمر أو نهي قانوناً إلا إذا كان اجتهاداً في الإطار العام للشريعة الإسلامية، التي مصدرها الكتاب والسنة. [٥]

من خلال استعراضنا لمنهج هذه الطريقة يتضح لنا أن أتباعها لهم تدخل في الأمور الاجتماعية والسياسية، وهم على درجة عالية من الفقه، والوعي لجعلهم دراسة القرآن الكريم وتفسيره وحديث رسول ﷺ من أولويات مناهجها.

ثانياً: الطريقة الرفاعية:

رائدها ومؤسسها الإمام أحمد الرفاعي،[٦] أسسها في أواسط البصرة، وهو من أصل عربي، من قبيلة مراغة، وقد انتقلت هذه الطريقة إلى بلاد الشام، عن طريق تلاميذه ومريديه، الذين يطوفون العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، فكان لهم الفضل في تكوين رابطة قوية، بين بلاد المسلمين، وعاملاً حياً في توحيد الثقافة الإسلامية، وانتشرت هذه الطريقة في بلاد الشام وأصبح لها أتباع ومريدين، وأنشأت الزوايا والخانقاهات الخاصة بها، ولقد اشترط الشيخ الرفاعي على المريد، أو

---

[1] الطوسي، اللمع، ص١٨٤. قاسم، عبد الحكيم عبد الغني، المذاهب الصوفية ومدارسها، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص١٥٩.

[2] هو عبد الرحمن بن عطية العنسي الداراني، الزاهد، المشهور، أحد رجال الطريقة، كان من جلة السادات، وأرباب الجدي في المجاهدات، والداراني نسبة إلى داريّا، وهي قرية بغوطة دمشق، توفي سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبو نعيم، الحلية، ج٩، ص٢٥٤. ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٣٦٣.

[3] ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٤، ص٤٣٩.

[4] أبو نعيم، الحلية، ج٩، ص٢٥٧.

[5] قاسم، المذاهب الصوفية، ص١٦٠.

[6] سبق ترجمته.

الطالب الراغب للانضمام إلى مدرسته وطريقته أن يكون له عمل يعتمد به على نفسه، فإن لم يجد له حرفة يقتات منها، منعه دخول زاويته لأنه من العاطلين،.

وشعار طريقته بينه بقوله: "طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة"،[١] ووضع الرفاعي منهجاً لطريقته تمثل في الآتي:

- العمل بالكتاب والسنة، وعدم مجارات موتى القلوب، وموافقة السلف على ما هم عليه، وترك الدنيا وشهوات النفس، وقهرها، وبغض الرياسة، والصبر على البلاء والاستسلام له، والوفاء والإخلاص، واجتناب الجفاء.

واشترط في المريد عند قبوله:

- ترك الماديات، وحب الدنيا، وكتمان السر ولا يشكو إلى مخلوق مثله، وأن يهرب من الناس إلى الله عز وجل، وأن يلتزم جانب شيخه.

واشترط في الشيخ شروط من أهمها:

- أن يلتزم الكتاب والسنة، ويبتعد عن البدع، وأن يكون مع مريده كالأب مع أبنائه، وأن يدعو إلى الحب والخير والمؤاخاه.[٢]

"إلا أن هذه الطريقة، دخلها الكثير من الخرافات، واتصف أتباعها بصفات شاذة في تصوفهم، من أكل الحيات وهي حية، والنزول إلى التنانير وهي تضرم بالنار، فيطفئونها، ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالم لا يعد ولا يحصى، ويقومون بكفاية الكل".[٣]

ثالثاً: الطريقة الأحمدية: "البدوية"

وهي الطريقة البدوية نسبة إلى السيد أحمد البدوي[٤] الذي حفظ القرآن في سن السابعة، وبدأ في دراسة الفقه، والتفسير، أثناء تردده على مجالس العلم، بدأ رحلته في الفكر والتأمل في أحوال الأمة الإسلامية، وما وصلت إليه، ثم بدأ رحلته العلمية في التزود من العلوم الرفاعية، فكانت رحلاته عبادة وعمل، وتجميع للفكر، واتصال روحي بالمتصوفين، وقد نظم طريقته، ووضع لها منهجاً دراسياً، بعد أن استقر في مصر، ويدور منهج طريقته، حول المبادئ التالية:

---

[1] الجيلاني، الغنية، مقدمة المحقق، ص١٢-١٣. قاسم، المذاهب الصوفية، ص١٦٧.

[2] قاسم، المذاهب الصوفية، ص١٦٨-١٦٩.

[3] ابن خلكان، وفيات، ج١، ص١٧٢.

[4] هو أحمد بن علي بن إبراهيم الحسني أبو العباس السيد البدوي، المتصوف، صاحب الشهرة في الديار المصرية، كان له كرامات ومناقب جمة، توفى، سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨. الطباع، عثمان مصطفى، إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، ٤ مجلدات، تحقيق، عبد اللطيف أبو هاشم (غزة، مكتبة اليازجي للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج٢، ص١٥٥.

- أن يكون المريد عارفاً بالله، مراعياً لأوامره، وأن يتمسك بسنة النبي ﷺ وكتاب الله، دائم الطهارة، راضياً بقضاء الله، وأن يترك ما في أيدي الناس، ويتحمل أذاهم، وأن يكون متواضعاً.

ولقد قامت هذه الطريقة، بتدريب أتباعها، تدريباً عسكرياً، وإرسالهم لساحات القتال ضد الصليبيين.[١]

رابعاً: الطريقة السهروردية:

أسسها أبو نجيب السهروردي[٢]، من مواليد سهرورد[٣] قدم بغداد وهو شاب، سمع بها الحديث، واشتغل بدراسة الفقه بالمدرسة النظامية، سلك طريق الصوفية، وحبب إليه الانقطاع والعزلة، فانقطع عن الناس مدة، وأقبل على الاشتغال بالعمل لله تعالى، وبذل الجهد في ذلك، ثم رجع ودعى جماعة إلى الله تعالى، وكان يعظ ويذكر، فرجع بسببه خلق كثير إلى الله تعالى، وبنى رباطاً ومدرسة، واشتغل بالوعظ والتذكير والدعاء، سكن رباطه جماعة من أصحابه الصالحين، وصار هذا الرباط ملاذاً يعتصم به الخائف من الخليفة فما دونه، ثم ندب إلى التدريس بالمدسة النظامية، فأجاب ودرس بها مدة، وظهرت بركته على تلاميذه، توجه إلى الشام سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م، عازماً على زيارة بيت المقدس، فلم يتمكن من الزيارة، بسبب انفساخ الهدنة بين المسلمين والصليبيين، فتوجه إلى دمشق، فأكرم السلطان نور الدين مورده مدة إقامته بها، استغل الشيخ إقامته بدمشق بعقد مجالس الذكر، والوعظ، ودعوة الناس إلى الخير، وبسبب هذه الزيارة، أصبح له مريدون وأتباع، أطلق عليهم، أصحاب الطريقة السهروردية، وكما لاحظنا من خلال استعراض سيرته، نرى مدى اهتمام الصوفية بالعلم والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حيث كان السهروردي، حافظاً للقرآن عالماً بالفقه والتفسير، ولا شك أن هذه العلوم، داوم عليها أتباعه في حياته وبعد وفاته، وكيف كانت زاويته ورباطه، ملاذاً للخائفين والضعفاء، سواء كانوا خائفين من الخليفة، الذي يمثل أعلى سلطة في الدولة، أو من الظلمة، أو طالبي الثأر من خصومهم.

---

[1] قاسم، المذاهب الصوفية، ص١٧٢.

[2] هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمّويه، الصوفي القدوة، الواعظ العارف الفقيه الشافعي، أحد الأعلام، كان إماماً في الشافعية وعلماً في الصوفية، توفى، سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، جزء ١٠، ص١٠. ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٢٠٤. الذهبي، العبر، ج٣، ص٤٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٥٤.

[3] سهرورد، هي بلدة صغيرة بأرض الجبال قرب ونجان، ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٩٩. القزويني، آثار البلاد، ص٣٩٤.

ومن خلال استعراضنا لأهم الطرق الموجودة في بـــلاد الــشام، لاحظنـــا مـــدى تمـــسكها بالتصوف السني الخالي من البدع، والذي ازدهر على يد المتكلم الأشعري أبي الحـــسن [1]، وأبـــي حامد الغزالي، الذين رفضوا اتخاذ الفلسفة طريقاً إلى اليقين، وآثروا عليها التصوف الذي يقوم على عقيدة أهل السنة والجماعة، وظل صوفية بلاد الشام طوال عصر الحروب الصليبية، يأخذون مـــن تصوف الغزالي، سواء بالاستشهاد بحكمه في مجالسهم، أو بالقول والعمل بما جاء فـــي مـــصنفاته، وترتب على ازدهار هذا التيار الصوفي في بلاد الشام، فترة الحروب الصليبية، ظهور عوائد جديدة في حضارة بلاد الشام، مثل انتشار حلقات الذكر، وإحياء المناسبات الدينية التي أهمها ذكرى مولـــد رسول الله ﷺ وذكرى هجرته، وذكرى الإسراء والمعراج وغير ذلك من المناسبات الدينية.

---

(1) سبق تعريفه.

الفصل الرابع

عوامل ازدهار الحركة الصوفية في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية

- العامل الديني.
- العامل السياسي.
- العوامل الاجتماعية والطبيعية.

عوامل ازدهار الحركة الصوفية في بلاد الشام
فترة الحروب الصليبية

كانت الحركة الدينية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية قوية، ونشطة، ذات تسلط واسع، وعميق على القلوب، والعقول، بشكل عام. وكانت النزعة الصوفية أكثر جوانب الحياة الدينية ازدهارا، وأعظمها ذيوعاً، وأوسعها انتشارا، بسبب الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطبيعية، وبسبب البلبلة الدينية، الناشئة عن تنازع الفرق الهدَّامة[١]، والنحل[٢] المنشقة، والفلسفات[٣] الوافدة، التي أصبحت هي المعبود المقدس، لدى عِلْيَةِ المثقفين الشاميين فترة الحروب الصليبية. [٤]

والمذاهب الاجتماعية التي تحوي في داخلها بعض مبادئ الهدم والفوضى، شجعها على ذلك النظم الاجتماعية الفاسدة، ومساوئ الحكم والإدارة من جانب، واشتداد الخطر الصليبي من جانب آخر، إضافة إلى حدوث الزلازل، وانتشار المجاعات، والأوبئة[٥] من حين لآخر[٦] كل هذا أثر في ظهور الطرق الصوفية، وزاد من اندفاع الناس للانضمام إليها، وأصبح لهم ثِقل في المجتمع الشامي، زمن الحروب الصليبية، حتى أُطلق عليه العصر الذهبي للحركات الصوفية.

ومن أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار التصوف الشامي في ذلك العصر: -

أولاً: العامل الديني:

برزت في المجتمع الشامي زمن الحروب الصليبية سمة مميزة، تمثلت في احترام مؤسستين رئيستين، هما المؤسسة الدينية، والمؤسسة العسكرية.

---

(1) الفرق الهدامة وعلى رأسها الفرق الباطنية والرافضة من مزدكية، أتباع مزدك المجوسي، وهو أول من جاء بمذهب المعطلة والقرامطة والحشاشين من الفرق التي أشاعت الرعب والقتل والاغتيال بين الناس، انظر: نظام الملك، سياسة نامة، ص٢١٢-٢١٤.

(2) النحل، بمعنى المذهب، فنقول فلان ينتحل مذهب. وإذا قيل فلان ينتحل كذا، أي يدين به وقيل نحلة، أي ديناً وتديناً، الرازي، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الشافعي، مختار الصحاح، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص٣٤٩. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٦٥٠.

(3) الفلاسفة كانوا أصناف عدة، منهم الدهريون الذين يجحدون الله، والطبيعيون الذين يكون أكثر بحثهم في الطبيعة، والإلهيون أمثال سقراط وافلاطون، وأرسطاطاليس، انظر: الغزالي، المنقذ، ص٣١-٣٢.

(4) القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص٢٦.

(5) الوباء هو الطاعون، وقيل هو كل مرض عام، وإذا قيل وبئت الأرض، فهي موبوءة، إذا كثر مرضها، ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص١٨٩. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٣١.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٧٨. سلام، محمد زغلول، الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي، (الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط١، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م)، ص٧١. عاشور، العصر المماليكي، ص٣٤٨.

المؤسسة الدينية تمثلت في تشجيع العلماء، والفقهاء، والصوفية، وتقريبهم، والإغداق عليهم من قبل الحكام، والإكثار من إنشاء المساجد، والزوايا والربط، لتؤدي وظيفتين أساسيتين، تمثلت الأولى في: إرساء قواعد وتعاليم مذهب أهل السنة من جهة، ومحاربة الشيعة والتشييع بعد انقراض الدولة الفاطمية من جهة أخرى[١].

والوظيفة الثانية تمثلت في تلبية حاجات العصر، من شحذ[٢] همم[٣] الناس، للجهاد ضد الصليبيين، وقد كان اللجوء للدين والتعمق فيه والمبالغة في الورع جزءاً من أعمال المقاومة، وسبيلاً من سبل تأصيل الجهاد، وشحذ النفوس بالقيم، والمعنويات[٤] ولما كانت سياسة سلاطين الزنكيين والأيوبيين، متجهة بكاملها إلى نصرة المذهب السُني، سواء بمحاربة التشيع الفاطمي داخلياً، أو بمحاربة الصليبيين خارجياً، فقد عملوا على تشجيع كافة النشاطات الدينية السنية، هم ووزراؤهم وأمراؤهم، وأولادهم، ونساؤهم بكل الوسائل[٥]، ولقد نال التصوف نصيب الأسد من هذا التشجيع لأن رايته كانت فوق كل الرايات المذهبية في ذلك الوقت، بسبب ابتعاد الحركة الصوفية عن الصراعات المذهبية، التي كانت منتشرة، في بلاد الشام بين أنصار المذاهب الفقهية الأربعة[٦] حيث أفرز هذا الصراع آثاراً خطيرة، في ميادين الفكر والتربية، فمن الآثار الفكرية إلزام أتباع كل مذهب بالاقتصار على مطالعة كتب مذهبهم فقط، والذين يخرجون عن تقاليد الانغلاق والتعصب وينفتحون على الآخرين يصبحون هدفاً للاتهام بالنفاق، مهما كانت منزلتهم العلمية[٧].

وليس أدلَّ على ذلك ما حدث مع الشيخ ابن عقيل[٨] شيخ الحنابلة[٩] في زمنه، فقد ثار عليه الحنابلة المتشددون، وأيدهم الأتباع المقلدون، لأنه لم يتحرج من مجالسة العلماء من غير مذهبه،

---

(1) مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأموي، الموسوعة الفلسطينية، (بيروت، هيئة الموسوعة، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص٤٩٥. مصطفى، الأوقاف والعلم في بيت المقدس، (مجلة الحضارة الإسلامية)، ج٣، ص١٢٤. عبد الجليل، المؤسسات التعليمية في بلاد الشام، ص٢٢٥.

(2) شحذ، شحذته، أي سقته سوقاً شديداً، وشحذته ألححت عليه في المسألة، ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٩٤. المقرئ، المصباح المنير، ص١٨٢.

(3) همم، مفردها همة، والهمام، الملك العظيم الهمة، لأنه إذا هم بأمر امضاه لا يرد عنه، ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٦٢١.

(4) ابن الاثير، الباهر، ص١٢٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٤٤. مصطفى، آل قدامة والصالحية، ص٣٢.

(5) مصطفى آل قدامة والصالحية، ص٣٢.

(6) الخطيب، دور التعليم في تحرير بيت المقدس، ص٥٠-٥١. والمذاهب هي المذهب الشافعي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنفي، والمذهب الحنبلي.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٤٧٠. ابن رجب، الذيل، ص١١٩. مصطفى آل قدامة والصالحية، ص٣٢.

(8) ابن عقيل هو علي بن محمد شيخ الحنابلة وصاحب التصانيف كان إماماً في كثير من العلوم توفي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١٦٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥، ص٣٤٩. ابن رجب، الذيل، ج١، ص١١٨. ابن حجر، لسان، ج٤، ص٢٨٣. الداوودي، طبقات المفسرين، ص٢٨٨.

(9) الحنابلة، أتباع الإمام أحمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي وهو أحد المذاهب الفقهية الأربعة المعتمدة عند أهل السنة، انظر: ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، ٢٠ جزء، تحقيق، أحمد محمد شاكر، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤١٦/١٩٩٥م)، ج١، ص٤٠.

ولقد ذكر ابن عقيل طرفاً من تجاربه في هذا المجال، فقال: "وكان أصحابنا الحنابلة يريــدون منــي هجران جماعة من العلماء، وكان ذلك يحرمني علماً نافعاً"[١] ولقد ذكر ابن الجوزي[٢] الفتنــة التــي تعرض لها ابن عقيل بسبب مجالسته للعلماء من غير مذهبه، فقال: "وكان أصحابنا قد نقموا عليــه، لأجل أشياء كان يقولها، وكان في ابن عقيل فطنة وذكاء فأحب الإطلاع على كل مذهب" [٣].

كما شاعت ظاهرة الإرهاب الفكري، الذي مزق الأمة إلى جماعات، ومــذاهب متنــاحرة، يعكس لنا قول محمد بن موسى الحنفي[٤] حالة البغض والكراهية، بين أتبــاع المــذاهب فــي ذلــك العصر، حيث كان يقول: "لو كانت لي الولاية، لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية، وكان مُبغــضاً لأصحاب مالك أيضاً"[٥]

وقول ابن رواحة الحموي[٦] الذي بنى مدرستــين للشافعيــة، إحداهما في دمشق والأخرى في حلب، وشرط "أن لا يدخلها حنبلي أو نصراني أو يهــودي"[٧]

كما ساد الاضطــراب الديني والمذهبــي، وكثر المتعصبــون، وحــلَّ التــشــدد مكــــان الحرية الفكريــة، حيث شهد عصــر الحروب الــصليبيــــة أشــــــد الخلافـــات الدينيـــــة[٨] والمذهبيــة بيــن المسلميــن من أتبــاع المذاهــب المختلفــة، كالخــلاف بيــــن الأشعريــــة[٩]

---

[١] ابن رجب، الذيل، ج١، ص١١٩.

[٢] هو عبد الرحمن بن علي بن جعفر الجوزي، الإمام الحافظ الواعظ المفسر العلاَّمة، صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم توفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص١٤٠. الذهبي، العبــر، ج٣، ص١١٨. الداوودي، طبقات المفسرين، ص١٩١. عويضة، كامل محمد محمد، عبد الرحمن بن الجوزي شيخ الزهاد وإمام الوعاظ، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص١٧.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ٤٧٠٠.

[٤] هو محمد بن موسى بن عبد الله البلاساعوني الحنفي، تولى قضاء بيت المقدس، فشكا منه الناس فعزل عنها ثم تولى قضاء دمشق، توفي سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٧٥.

[٥] المصدر نفسه، ص١٧٥.

[٦] هو زكي الدين أبو القاسم، التاجر االمعروف بابن رواحة، واقف المدرسة الرواحية بدمشق وأخرى بحلــب تــوفي ســنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص١٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٦. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٩٩. كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٠٤.

[٧] النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٢٠١. كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٠٤.

[٨] حلمي، أحمد كمال الدين، عمر الخيام عصراً وبيئة وانتاجاً، (القاهرة، مكتبة دار المعرفــة، ط١، ١٤١٤هــــ، ١٩٩٤م)، ص٤١.

[٩] الأشعرية، هم أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل، من ذرية أبي موسى الأشعري، أخذ علم الكلام عــن شــيخه محمد بن عبد الوهاب الحبائي شيخ المعتزلة، وتبعه في الإعتزال حتى صار للمعتزلة إماما وصنف كتاباً في الرد عليــه، وأجمع على عقيدة الأشعري المالكية والشافعية، وبعض الأحناف، وفضلاء الحنابلة، وهو يطلق على معتنقيه من أهل السنة والجماعة، انظر: أبو الحسن الأشعري، مقالات إسلامية، واختلاف المصلين، ج١، ص١٢. كرد علي، خطط الشام، ج٦،

والمعتـــزلة[1] أو بين الفقهاء، على اختلاف مشاربهم، وبين الفلاسفة وكان أشدها النـــزاع المـــذهبي بين أهل السنة وبين الشيعة على اختلاف فرقها.

وكان للشيعة[2] في بلاد الشام قبل نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي شـــأن عظـــيم[3]. يذكر ابن جبير[4] أحوالهم، في أيام صلاح الدين الأيوبي، فيقول: "وللشيعة في هـــذه الـــبلاد أمـــور عجيبة، وهم أكثر من السنة فيها، وقد عَمَروا البلاد بمذاهبهـــم، وهم فرق شتى مـــنهم الرافـــضة[5] وهم السبابون، [أي يسبون أبا بكر وعمر] ومنهم الإماميـــة[6] والزيدية[7] وهـــم يقولـــون بالتفـــضيل خاصـــة[8]، ومنهم الإسماعيليـــة[9] والنصـــيرية[10] وهم كفـــــرة لأنهم ألهـــوا علي بن أبـــي طالب،

ص٢٤٠. ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الحسن الأشعري، تحقيق، أحمـــد الـــسقا، (بيـــروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٦هـــ/١٩٩٥م)، ص٣٩.

[1] المعتزلة، هم المحايدة، وليس المعتزلة مأخوذاً عن فكرة الإنفصال عن مذهب أهل السنة والجماعة، وتقبل المعتزلـــة هـــذا الإسم لأنه يعني المحايدة أو الذين لا ينصرون أحد الفريقين المتنازعين من أهل السنة والخوارج، على الآخر، في المسألة كما يقول الخوارج في مرتكب الكبيرة، أو هو مؤمن عاص يعاقب على الكبيرة بقدرها كما يقول أهل السنة، انظر: بدوي، مذاهب الإسلاميين، ص٣٧.

[2] الشيعة انقسمت الشيعة إلى عشرين فرقة منهم المعتدلون ومنهم الغلاة، إلا أنهم جميعاً متفقون على أن الخلافة والإمامة لا تخرج عن أولاد علي بن أبي طالب ولا عن أحفاده، وإن خرجت فبظلم من غيرهم، أو تقية من عندهم، انظر: النوبختي، فرق الشيعة، ص١٧. الحلبي، سليمان، "طائفة النصيرية" تاريخها وعقائدها، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٩٩هـــ/١٩٧٩م ، ص٢١.

[3] الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١، ص٢٩.

[4] هو الإمام الرئيس أبو الحسين محمد بن جبير، حجَّ وحدَّث في طريقه، عني بالآداب، وتقدم في صناعة الشعر والنثر، ثـــم تزهد ورحل مرتين إلى المشرق، توفي سنة ٦١٤هـــ/١٢١٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص١٦٣. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٦٠. حسين، المائة الأعظم، ص١٩٣.

[5] سبق تعريفها.

[6] الإمامية، هي فرقة من فرق الشيعة انقسمت إلى عدة طوائف، وقد ساقت الإمامة من علي بن أبي طالب إلى ابنه الحـــسن بالوصية ثم إلى أخيه الحسين إلى الإمام الثاني عشر محمد إبن العسكري، انظر: القلقـــشندي، صـــبح الأعـــشى، ج١٣، ص٢٣١. دائرة المعارف الإسلامية، ج١٤٣، ص٦٣. الحلبي، طائفة النصيرية، ص٢٥.

[7] الزيدية تنسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان زيد قد تتلمذ على يد واصل بن عطاء المعتزلي، فالتزم منهجه العقلي وبعضاً من أصوله، والفرقة الزيدية هي أقرب الفرق الشيعية إلى أهل السنة والجماعة، ومن مذهبهم جواز إمامة المفضول مع قيام الفاضل، انظر: البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل، البدء والتاريخ، جزءان، وضع حواشـــيه، خليل عمران المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـــ/١٩٩٧م)، ج٢، ص٢٦٤. القلقشندي، صـــبح الأعـــشى، ج١٣، ص٢٣٠. أبو زهرة، الإمام زيد، ص٧٩-٨٠. الحلبي، طائفة النصيرية، ص٢٤.

[8] ابن جبير، الرحلة، ص٢١٧.

[9] سبق تعريفها.

[10] النصيرية، هي فرقة من الشيعة رئيسها محمد بن نصير النميري توفي سنة ٢٧٠هـــ/٨٨٣م، قالوا بحلول الله تعالى فـــي علي، انظر: ابن أبي حديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المدائني، شرح نهـــج البلاغـــة، ١٠

ومنهم الغرابيـــة[١]". [٢]

لقد عانى أهل السنة الكثير، من تلك الفرق الشيعية، التي تواجدت على أرض الـــشام فتـــرة الحروب الصليبية، وقلما كان يمر شهر أو سنة على الأكثر دون أن يحدث فيها صراع مذهبي بـــين أهل السنة والشيعة، يؤكد ذلك قول ابن الأثير[٣] عند ذكره لأحداث سنة ٦٢١هـــ/١٢٢٤م "وفيهـــا وقعت فتنة، بين أهل السنة والشيعة، على جاري عادتهم"[٤] وهذا الصراع المذهبي بين أهل الـــسنة والشيعة، جعل الناس في حيرة من أمرهم، فما كان منهم إلا اللجوء إلى الصوفية البعيدة عـــن هـــذا الصراع والتعصب المذهبي، فهم في نظر الناس منصرفون إلى عبادة الله والتقرب إليه عن طريـــق الزهد والتقشف، وكان هذا من أهم العوامل التي أدت إلى انتعاش التصوف الشامي فتـــرة الحـــروب الصليبية، وكانت هذه الصراعات المذهبية، والسياسية، من أهم أسباب ضـــعف الأمـــة الإســـلامية، وتفتتها، وانقسامها، إلى شيع وأحزاب متنازعة، سهلت على الصليبيين اجتياح بلاد الـــشام وإقامـــة ممالك صليبية فيها، كما بذل السلاطين كل نشاط لنشر المفـــاهيم الإســـلامية الـــصحيحة، فوظفـــوا الأوقاف في إنشاء المدارس، والزوايا والخوانق، إلى جانب تبرعات أهل الخير من أموال وبـــساتين للصوفية[٥] دَفَعَهُم إلى ذلك طلب المغفرة، والرضا من الله، والعودة إلى علوم السلف، والإقتداء بهـــم فكراً وعملاً[٦]، حيث كان الباعث الديني في ذلك العصر يمثل اتجاها قوياً لدى عامة الناس، فاتجـــه الكثير منهم إلى الصوفية، وبذلوا لهم الأموال، والممتلكات، على اعتبار أن الاهتمـــام بهـــم يعنـــي الاهتمام بالشرع الإسلامي، والعمل على رفعته ونشره، فقد وجدوا في هـــؤلاء المتـــصوفة فرصـــة طيبة للبذل والعطاء، خاصة وأن الكثير من أماكن الصوفية تعتني عناية فائقـــة بـــالعلوم الـــشرعية، وبالتالي فإن الإنفاق على تدريس العلوم الشرعية، وعلى المشتغلين بها، يعد هدفاً دينياً، يُرجى مـــن ورائه حصول الخير والبركة في الحياة الدنيا، ونيل الأجر والثواب في الحياة الآخرة. [٧]

أجزاء، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، (طهران، مركز نشر التـــراث، ط١، ١٤٢١هـــ/٢٠٠١م)، ج٨، ص٩٤-٩٥. الحلبي، طائفة النصيرية، ص٣٣.

[1] الغرابية، هي فرقة من غلاة الشيعة قالوا أن الله بعث جبريل إلى علي بن أبي طالب، فغلط وجاء إلى محمد ﷺ وذلك لشدة الشبه بين علي ومحمد ﷺ كما يشبه الغراب بالغراب، فسمُوا بذلك، وقد اتفقوا على سب جبريل والرسول عليهما الـــسلام لذلك تعتبر هذه الفرقة من اشد الفرق كُفراً وإلحاداً، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٥٠.

[2] ابن جبير، الرحلة، ص٢١٨.

[3] سبق ترجمته.

[4] ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص٤٤٢. الغساني، العسجد المسبوك، ج٢ ص٤٠٠.

[5] العسلي، الأوقاف والتعليم في القدس، مجلة الحضاة الإسلامية، عدد ٣، ص١٣٤. مصطفى، فلسطين ما بـــين العهـــدين، ص٤٩٥. المصري، التعليم في بلاد الشام، ص٥٠.

[6] جيب، صلاح الدين، ص١٢٨. المصري، التعليم في بلاد الشام، ص٥٠.

[7] المصري، التعليم في بلاد الشام، ص٥.

كما كانت تبرعات نساء سلاطين الملوك كثيرة للصوفية، حيث كُنَّ يَتَقَرَّبْنَ إلى الله برعاية الصوفية، وإغداق الأموال عليهم، وبناء الخوانق، والزوايا، والربط لهم، مثل الخاتون عصمت الدين[1]، زوجة نور الدين، والتي تزوجها صلاح الدين، من بعد وفاة سيده "أوقفت الخانقاه المعروفة بالخاتونية غربي دمشق"[2]

كما كان لكثرة المشاهد[3] والأماكن المباركة التي كان يلجأ إليها الصوفية في بلاد الشام ويعتكفون فيها أكبر الأثر في ازدهار التصوف، وازدياد الصوفية في بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، فعندما يذكر ابن جبير [4] جبل قاسيون [5] وكثرة ما عليه من مشاهد مباركة، يقول: "وهذا الجبل مشهور بالبركة في القديم لأنه مصعد الأنبياء صلوات الله عليهم"[6] ومكان استراحة إبراهيم عليه السلام بسفح جبل قاسيون، وهو عبارة عن غار مستطيل، وقد بني عليه مسجد كبير مقسم إلى مساجد كثيرة كالغرف، وعليه صومعة عالية، ومن ذلك الغار رأى إبراهيم عليه السلام الكواكب ثم القمر ثم الشمس، حسبما ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم"، قال تعالى: { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } [7]

---

[1] الخاتون هي عصمت ابنة معين الدين أنَّر نائب دمشق وأتابك عساكرها قبل نور الدين، وكانت من أحسن النساء وأعفهن، وأكثرهن صدقة، وهي واقفة الخانقاة الخاتونية ولها أوقاف كثيرة، توفيت سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، للمزيد عن ترجمتها، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١٧. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٨٨. كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٣١. شميساني، حسن، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٧٦.

[2] ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، جزءان، تحقيق، يحيى عبارة، (دمشق، وزارة الثقافة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ج١، ص١٥٨. الغساني، العسجد المسبوك، ج١، ص١٩٧. جيب، صلاح الدين، ص١٣٧.

[3] المشهد المجمع من الناس، والمشهد محضر الناس، ومشاهد مكة، المواطن التي يجتمعون بها، وهي الأماكن التي يعتقد أن بها إنسان صالح، وربما تكون مشاهد لا يوجد بها احد، ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٤١.

[4] سبق ترجمته.

[5] قاسيون، هو الجبل المشرف على مدينة دمشق وفيه عدة مغاور، وفيها آثار الأنبياء وكهوف، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح [الصوفية]وهو جبل مُعَظم مقدس يروى فيه آثار، وللصالحين فيه أخبار، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٧، ص١٠. الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص٤١.

[6] ابن جبير، الرحلة، ص٢١٢. شميساني، الحافظ بن عساكر، ص٢٨.

[7] الأنعام، آية (٧٦-٧٧-٧٨).

وفي ظهر الغار مقامه[1]" [2] الذي كـــان يخرج إليه، وعلى مقربة من جبل قاسيون مدفـــن سبعين ألف شهيد، وقيل أن الأنبياء المدفونين به سبعة آلاف نبي، والله أعلم، وبجبل قاسيون مغــارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل، وفي أعلى الجبل كهف منــسوب إلى آدم عليه السلام وهو موضع مبارك، ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينـــة مـــن بـــساتين وأراضٍ بيضاء[3] ورباع[4] حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه، وكل مسجد يـــستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها[5].

وكانت هذه المشاهد أماكن ومواضع جذب للصوفية، من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ممـــا كان له أكبر الأثر في ازدياد الصوفية في بلاد الشام، وازدهارها فترة الحروب الصليبية.

وكان لابتعاد الصوفية عن الصراعات المذهبية والسياسية دور كبير في إكسابهم شعبية كبيرة داخل المجتمع الشامي، ويثمن الباحث هذا الموقف الإيجابي للصوفية حيث إنهم باعتزالهم للفتن، وتوجههم نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أدى إلى ازدياد إقبال الناس عليهم، كما شجع الحكام والأمراء والأغنياء، الصوفية، باتخاذهم وسيلة يتقربون بها إلى الله، ويكفرون عن سيئاتهم وذنوبهم، فأغدقوا عليهم الأموال والصدقات، وساهموا في بناء الخانقاهات، والزوايا، مما أدى إلى ازدهار وانتعاش التصوف في عصر الحروب الصليبية.

ثانياً: العامل السياسي:

كان المناخ السياسي الذي ساد الدولة الإسلامية فترة الحروب الــصليبية، وذيـــوع الـــوهن والضعف بين أبناء العالم الإسلامي، بسبب قيام خلافتين في الشرق، إحـــداهما ســـنية فـــي بغـــداد، والأخرى شيعية في مصر، وقد أنهكتهما مشاكلهما الداخلية[6] التي استنفذت كل قواهما في الوقـــت الذي كان الاجتياح الصليبي يهدد بلاد الشام.

وعجز هاتين الخلافتين من القيام بواجبهما، في التصدي لهذا الغزو الصليبي، وتطهير بـــلاد الشام منه. كان له أكبر الأثر في توجه الناس إلى الله، والتجائهم إلى الجماعات الــصوفية، للعبـــادة

---

[1] المقام موضع الإقامة، أي موضع صلاته، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٤٩٨.

[2] ابن جبير، الرحلة، ص٢١٢. ابن بطوطة، الرحلة، ص١١٩.

[3] الأراضي البيضاء، هي التي لا نبات فيها، وباضت الأرض، اصفرت خضرتها وسقطت ثمرتها ويبست أغـصانها، ابـن منظرر، لسان العرب، ج٧، ص١٢٨-١٢٩.

[4] الرباع، بمعنى المنزل، رباع القوم أي منازلها، ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٠٢. الزبيدي، تاج العروس، ج١١، ص١٣١.

[5] ابن جبير، الرحلة، ص٢١٤.

[6] انظر: أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٢. كلود، الشرق والغرب، ص١٩٤. Nasr, Islamic Sirituality, p. 194

والعكوف على الذكر، والاستغفار، لعلهم يجدون فيه ما يخفف وطأة الإحساس بالذنب، بسبب عدم قيامهم بفريضة الجهاد التي تقاعست عنه الخلافتين، ولانشغالهما بالصراع الدائر بينهما. [(١)]

كما كانت وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه[(٢)] ٤٨٥هـ/١٠٢٩م وهو الذي بلغت الدولة الإسلامية في أيامه أوج مجدها، وأقصى اتساعها، بداية لتفكك الدولة السلجوقية، وتفرق كلمة المسلمين، وإنشغال رؤسائهم في الصراع، والحروب والمنازعات [(٣)]، إذ أن الورثة لذلك السلطان من أبنائه، وإخوته، اضحوا في سباق فيما بينهم تقاتلاً وتناحراً فترة من الزمن، إلى أن انحصر الصراع بين رجلين هما، بركياروق[(٤)] أكبر أولاد ملك شاه وتاج الدولة تتش[(٥)] أكبر أشقائه طمعاً في الملك، وإقامة دولة كبيرة، موسعة تشمل مدن الشام كلها.

فبمجرد أن سمع تاج الدولة تتش بموت أخيه، سارع لتحقيق أطماعه مستفيداً من حالة الفوضى، وعدم الاستقرار،التي أمست عليها السلطنة نتيجة الخلافات التي دبت بين أبناء أخيه بركياروق من جهة، ومحمود وأمه تركان خاتون[(٦)] من جهة أخرى، فتجهز تتش من دمشق لطلب السلطة[(٧)] واتجه صوب حلب، حيث أطاعه صاحبها آق سنقر[(٨)] وكذلك فعل كل من ياغي سيان[(١)]

[(1)] انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٩٦. رزق، عاصم محمد، خانقاوات الصوفية في مصر في العصريين الأيوبي والمملوكي، جزءان، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١٧/١٩٩٧م)، ج١، ص٤٦.

[(2)] سبق ترجمته.

[(3)] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٨١-٤٨٤. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٨٣. الذهبي، دول الإسلام، ج١، ص٤١٧. ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٦. بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس – منير البعلبكي، (بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٣٥٢هـ/١٩٤٨م)، ص٣٤٦.

[(4)] هو ركن الدين بن السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان، أحد الملوك السلاجقة، تولى المملكة بعد وفاة أبيه، وكان عالي الهمة، لكنه كان للأسف ملازماً للشراب والإدمان، توفى سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص١٤٧. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٧. الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٧٦. المقريزي، السلوك، ج١، ص١٤١. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٤٠٧.

[(5)] هو السلطان تاج الدولة أبو سعيد بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كان شجاعاً مقداماً واسع الملك، كاد أن يستولي على ممالك أخيه الملك شاه، توفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٠٢. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٢. الذهبي، دول الإسلام، ج١، ص٤٢٢. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٣٨٤. يوسف، إرشيد، سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥ – ٥٧٠، (عمان، المؤسسة الصحفية الأردنية الوطنية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ص١٠١.

[(6)] هي زوجة السلطان ملك شاه، توفى عنها زوجها هي وابنها الصغير محمود الذي كان عمره أربع سنوات وشهور، وهي حازمة ومتعلمة وتقية، أخفت وفاة زوجها، واستحلفت العسكر لولدها وسارت بهم إلى أصفهان، وأرسلت إلى الخليفة العباسي المقتدي بالله طالبة منه أن يدعوا لابنها بالسلطنة، للمزيد عن ترجمتها، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٩. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨. يوسف، سلاجقة الشام، ص١٠١.

[(7)] انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص١٢١-١٢٢. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٨٧. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٦٩. يوسف، سلاجقة الشام، ص٩٨.

[(8)] هو قسيم الدولة، أبو الفتح مولى ملك شاه، لما فتح ملك شاه حلب استنابه عليها سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م، فأحسن السياسة وضبط الأمور وتتبع المفسدين، إلا أنه وقع أسيراً في يد تاج الدولة تتش الذي قتله صبراً سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، للمزيد

صاحب أنطاكية[٢] وبوزان[٣] صاحب الرها[٤] وقبل التقائه بابن أخيه تتش تخلى عنه كل من آق سنقر وبوزان، وانضما إلى بركياروق، ولم يبق معه سوى ياغي سيان، وكان انسحابهما تحطيماً لمشروعاته، حيث آثر العودة إلى الشام، والتقى بجيش بركياروق في معركة شديدة قرب الري[٥] سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، تعرض فيها تاج الدولة تتش للخيانة من بعض أعوانه المقربين الذين تركوه يتخبط في دمائه، مع جملة من أصحابه[٦] وانتصر بركياروق، واكتفى بحكم فارس وبغداد، تاركاً بلاد الشام لأبناء عمه تتش، وهما فخر الملوك رضوان[٧] وشمس الملوك دقاق[٨] اللذين جعلا بلاد الشام حلبة من الصراع الدموي[٩].

ولم تأت سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م إلا وكانت دولة السلاجقة قد تجزأت، وتقسمت إلى ممالك خمس متنافسة متحاربة وهي:

عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩٤. ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٢٧. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ٢٠. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص٣٨٠.

[1] هو ياغي سيان أمير أنطاكيا وقت إستيلاء الصليبيين عليها، سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، أظهر شجاعة عظيمة في قتاله للصليبيين، إلا أن الصليبيين راسلوا أحد الخونا القائمين على الأبراج وبذلوا له مالاً، فاستيقظ ياغي فجأة عندما علم بدخول الصليبيين المدينة وفر هارباً إلا أنه سقط عن فرسه مغشياً عليه فمر به أرمني فقتله، سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٩١. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٧.

[2] أنطاكيا، هي مدينة سورية، تقع غربي مدينة حلب، يحدها من الشمال الاسكندرونة، ومن الجنوب اللاذقية، أطلق عليها في الزمان قصبة العواصم، وهي من الثغور الشامية، كما أنها من أعيان البلاد وأمها، موصوفة بالنزاهة والحسن، وطيب الهواء، وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه وسعة الخير، انظر: الاصطخري، المسالك والممالك، ص٤٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٣٦. دانيال، الرحلة، ص١٠٥.

[3] هو بوزان صاحب حران والرها، قتله السلطان تتش ذبحاً بعد أسره وبعث برأسه إلى أهل حران فسلموا له البلد، توفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٢٩. الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٥٤.

[4] الرها، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، بها كنيسة عجيبة ملبسة بالفيسفاء، وهي أحد عجائب الدنيا، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٢٥. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٠.

[5] هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد، قديمة البناء، وفيرة الخيرات، أهلها شافعية وأحناف، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٩٩. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٧. القزويني، آثار البلاد، ص٣٧٥.

[6] ابن القلانسي، الذيل، ص١٢٩-١٣٠. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٠٢. ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٣٠. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٧٠. يوسف، سلاجقة الشام، ص١٠٢.

[7] رضوان هو صاحب حلب، ابن تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، ومنه أخذت الصليبيين أنطاكية، وملكوا بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، توفي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٨٩. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص١٤٧. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص١٦.

[8] هو شمس الملوك أبو نصر بن تتس ابن السلطان ألب أرسلان صاحب دمشق، تولاها بعد أبيه، توفي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٤، ص٢٤٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٦٣.

[9] ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٣٠-٢٣١.

- سلطنة فارس [اصبهان] وعليها السلطان بركياروق، الذي كانت له السيطرة على بغداد.
- مملكة خراسان، وما وراء النهر، وعليها أبو الحرث سنجر[١] شقيق بركياروق.
- مملكة حلب، وعليها رضوان بن تتش.
- مملكة دمشق، وعليها دقاق بن تتش.
- سلطنة سلاجقة الروم، وزعيمها قلج أرسلان.[٢]

هذه التجزئة وذاك الانقسام في السلطة السياسية والعسكرية لدى الدولة السلجوقية خلق جواً من الفوضى والارتباك، وصارت مدخلاً لكل طامع.[٣]

ولم تقتصر هذه النزاعات على البيت السلجوقي وحده، بل شمل ذلك ولاتهم وأمراءهم، حيث استغل كل أمير الفرصة، واستقل بنفسه، وخرج على الدولة[٤] فظهرت وحدات سياسية، عرفت باسم الأتاباكيات[٥] مثل أتابكية دمشق، وأتابكية الموصل، وكان بعض هذه الأتابكيات صغيرة جداً بحيث لا يتعدى مساحتها أسوار مدينة أو قلعة واحدة[٦] واستمرت علاقات الشك والريبة، والطمع يحكم هذه الدويلات، فدخلت في صراعات وحروب، تكاد لم تخل منها سنة واحدة.

وانعكست هذه الصراعات على الرعايا من عامة المسلمين، فكانوا يتعرضون للإيذاء والنهب، واستغل الصليبيون هذه النزاعات، وخاصة القائمة بين الأخوين رضوان[٧] صاحب حلب، ودقاق[١] صاحب دمشق." [٢]

---

[1] هو معز الدين أحمد سنجر أبو الحرث، ابن السلطان ملك شاه السلجوقي، عاش ثلاث وسبعون سنة وكان وقوراً مهيباً مشفقاً على الرعية، توفى سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤١٥. ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص٤٢٧. الذهبي، العبر، ج٣، ص١٧. ابن العماد، شذرات، ج٤، ص١٦١.

[2] هو قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش السلجوقي، صاحب بلاد الروم، كان شجاعاً جريئاً يقود المعارك بنفسه، توفى غرقاً سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٠٦. الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٧٩.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣ ومابعدها. ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٢٥ وما بعدها. شميساني، الحافظ بن عساكر، ص٤-٧.

[4] بروكلمان، تاريخ الشعوب، ص٣٤٦. مؤنس، نور الدين، ص٧٧.

[5] آتا، كلمة تركية معناها الأب، وأتابك تطلق على الوصي، أو المؤدب لأمراء الأتراك الذين كان يعهد بأمر تربيتهم في أيام السلاجقة، انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٤٢٣.

[6] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٨٧ وما بعدها. أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨. عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٩٧.

[7] رضوان هو صاحب حلب، ابن تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، ومنه أخذت الصليبين أنطاكية، وملكوا بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، توفي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٨٩. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص١٤٧. ابن العماد، شذرات، ج٣، ص١٦.

وملكوا ما ملكوا من بلاد الشام وهددوا الأخوين تهديداً بالغاً حتى اضطرا إلى الدخول في طاعة الصليبيين وأداء الجزية.[٣]

كما كان في داخل كل دولة من هذه الدويلات المجزأة، أمراء الجيش والقادة يقودون الانقلابات والثورات، ويبيعون ولاءهم للسلاطين، حسب الأعطيات والهدايا، ومثلهم الجند الذين صارت الجندية عندهم وسيلة للارتزاق، واستغلال الاضطرابات للنهب والغنائم، وإلى جانب هذا التفكك الداخلي دخلت هذه الدويلات السلجوقية مع الدولة الفاطمية في صراع مرير، استنفذ كل طاقتهما المادية والبشرية.[٤]

أما الحالة السياسية في الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي، فلم تكن أحسن حالاً مما كانت عليه الدولة السلجوقية، بعد وفاة السلطان ملك شاه، حيث شهدت الكثير من الاضطرابات، والصراعات، بين أبناء البيت الواحد كالتي وقعت بين الملك الأفضل[٥] ملك الشام وبين أخيه العزيز عثمان[٦] ملك الديار المصرية، وتدخل باقي أبناء البيت الأيوبي لنصرة أحدهما على الآخر[٧]، كتدخل الظاهر[٨] صاحب حلب إلى جانب أخيه الأفضل، وتدخل الملك العادل[٩]

---

[1] هو شمس الملوك أبو نصر بن تتش ابن السلطان ألب أرسلان صاحب دمشق، تولاها بعد أبيه، توفي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٤، ص٢٤٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٦٣.

[2] أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٦.

[3] انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص١٣٦. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٩. أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٨. مؤنس، نور الدين، ص٨.

[4] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٦٠. الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص٦٣.

[5] هو علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو شاعر وكاتب، ذو فطنة وعلم لكنه كان ضعيف الرأي قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب للدول وتدبير الممالك. تسلطن بدمشق ثم حارب أخاه العزيز صاحب مصر على الملك. ثم زال ملكه وملك أخيه، توفى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٠٧. الذهبي، العبر، ج٣، ص١٨٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٢.

[6] هو أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان شاباً قوياً، ذو بطش، توفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: الذهبي، العبر، ج٣، ص١١١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١١٨. ابن العماد، شذرات، ج٤، ص٣١٩.

[7] انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١، ص٢٢٥-٢٣٠. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٩٤-١٩٦. عطوي، ابن الفارض، ص٧-٩.

[8] هو الملك غازي ابن السطان صلاح الدين الأيوبي، صاحب حلب، كان ملكاً مهيباً حازماً متيقظاً، كثير الاطلاع على أحوال رعيته وأخبار الملوك، حسن التدبير والسياسة، محباً للعلماء والشعراء، توفى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٣٦٩. ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص٦. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٢٣.

[9] هو أبو بكر بن أبي الشكر أيوب بن شادي، الملقب بالملك العادل، أخو صلاح الدين الأيوبي، تنقل في الممالك في حياة أخيه، حيث كان ينوب، عن صلاح الدين في بلاد الشام في حال غيابه، تملك حلب ثم قلعة الكرك، وآخر الأمر استقل بالديار المصرية سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، وملك معها بلاد الشام وبلاد اليمن سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م، وكان ملكاً عظيماً ذو

الذي تحركت لديه مطامع الاستحواذ على لقب السطان في ظل هذا الصراع الدائم بين أبنـاء أخيـه لابساً ثوب الإصلاح، يناصر أحدهما على الآخر، فتارةً يقف إلى جانب العزيز، وتارةً إلـى جانـب الأفضل، ولم تأتِ سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م إلا وكان الملك العادل سلطاناً على معظم الديار المـصرية والشامية.(١)

هكذا كان حال البلاد الإسلامية والشامية على وجه الخصوص، بعد وفاة الـسلطان صـلاح الدين الأيوبي، مليئة بالأحداث الجسام، والدسائس، والمؤامرات، والخيانات، بين أبناء البيت الأيوبي من ناحية، وبينهم وبين الصليبيين الذين كانوا يقيمون في بعض الثغور الشامية، منتهـزين الفـرص للانقضاض كلما أحسوا بالضعف، أو بانشغال الأيوبيين فيما بينهم بالنزاع على السلطة(٢).

وفي أواخر عهد الدولة الأيوبية، وبعد مقتل توران شاه(٣) على أيدي المماليـك البحريـة(٤) لاحت بوادر انقراض دولة بني أيوب في مصر، وبدت ملامح الدولة المملوكية في الظهـور علـى تلك الأرض، وبدأ معها الصراع الأيوبي المملوكي، الذي ظل مستعراً في صورة مناوشات ومعارك إلى أن تم الاتفاق بينهما بتوسط الخليفة العباسي المستعصم بالله(٥) في سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م والذي بموجبه قسمت تركة الأيوبيين، وتجزأ سلطانهم، فاستحوذ المماليك على مصر حتى نهـر الأردن(٦) بما في ذلك مدن وضياع (غزة(٧) والقدس(١) ونابلس(٢))، وانحـصر الأيوبيـون فيمـا تبقـى مـن

رأي ومعرفة، وافر العقل حازماً في الأمور، توفى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٧٤. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٢٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٩٦.

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٧٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص١٠٨-١١٠. الخطيب، دور التعلـيم فـي تحرير بيت المقدس، ص٢٣٥.

(2) انظر: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٩٥-١٩٦. عطوي، ابن الفارض، ص٨. عاصي، المؤرخ أبـو شـامة، ص٨.

(3) هو الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب، بعد أن هزم الصليبيين في معركة المنصورة سـنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، بدت منه خفة وطيش، خرج عليه بسببها مماليك أبيه وقتلوه بالسيف، فهرب إلى برج خشبي فـأحرقوا عليه البرج فقفز إلى النيل فقتلوه بالنبال، فمات شر موتة، حريقاً غريقاً، سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٢٧. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٩٢. المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٥٧. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٢٤٠.

(4) المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٥٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٩.

(5) هو الخليفة العباسي، المستعصم بالله عبد الملك بن المستنصر بالله العباسي، كان حليماً كريماً سليم الباطن، قليـل الـرأي، رزق الشهادة على أيدي التتار، سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، للمزيد عن ترجمته، انظر: اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٤. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٢٧٠.

(6) نهر الأردن، هو نهر ينحدر من خلف بانياس ويتجه ناحية القدس، ثم ينحدر إلى طبرية، ويشق البحيرة، ثم ينحـدر إلـى البحر الميت، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٨.

(7) غزة، مدينة في بلاد الشام، تقع جنوب فلسطين على ساحل البحر المتوسط، انظر: ياقوت، معجم البلـدان، ج٦، ص٣٨٨. القزويني، آثار البلاد، ص٢٢٧. الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص٣٧.

الأراضي الشامية[3] والذي حسم هذا الاتفاق، ظهور خطر التتار، لذلك سارع المستعصم بالله إلى رأب الصدع بين المتخاصمين على السلطان، حتى يتفقوا على حرب الغزاة الجدد[4]. وإذا كان ذلك الصلح قد بدأ بمثابة اعتراف رسمي من زعماء آل أيوب بدولة المماليك، فإن ذلك لم يمنعهم من المطالبة بحقهم الشرعي في الملك والسلطان، كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً،ولو كان على حساب النخوة الوطنية والكرامة الإسلامية، الذي تمثل بقيام السلطان الناصر الأيوبي[5] صاحب دمشق[6] وحلب بإرسال ابنه العزيز إلى هولاكو[7] يطلب منه مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر[8].

وكذلك كانت مواقف الملك السعيد[9] ابن الملك العزيز عثمان حيث كوفئ على خيانته للمسلمين، بأن ولاه هولاكو بلاد الصبيبة[10] وبانياس[11] إقطاعاً وصار معهم، وأعلن الفسق والفجور، وسفك دماء المسلمين.[12]

---

(1) القدس، وهي أهم مدن فلسطين، وعاصمتها التاريخية، يوجد بها المسجد الأقصى، الذي أمر رسول الله ﷺ بشد الرحال إليها، ومدينة القدس تقع بين الجبال، وأرضها كلها حجر من الجبال التي هي عليها، وفيها أسواق كثيرة، وعمارات حسنة، والمسجد الأقصى في طرفها الشرقي، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٣. ياقوت، معجم البلدان، ج٨، ص٢٩٦.

(2) نابلس: هي مدينة مشهورة من فلسطين، وهي تعج بالينابيع والأنهار والكروم والزيتون وأشجار من جميع الأنواع، كما أن تربتها خصبة، أرضها حجر يسكنها السامرة، وليس للطائفة السامرية مكان سواها، انظر: ثيودريسش، وصف الأماكن المقدسة، ص١٢٦. الاصطخري، المسالك والممالك، ص٤٤. ياقوت، معجم البلدان، ج٧، ص٣٥٩. القزويني، آثار البلاد، ص٢٧٧.

(3) المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٠٠.

(4) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص٢٤٢. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٩٢. المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٧٩.

(5) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن الظاهر، تولى السلطة وهو ابن سبع سنوات، وكان يدبر المملكة عنه شمس الدين لؤلؤ، والأمر كله إلى جدته صفية ابنة الملك العادل، وهي أخت الملك الكامل، ولما بلغ أربع عشر سنة استقل بالحكم وأخذ عسكره إلى حمص ثم تملك دمشق، وكان حسن الأخلاق، فيه عدل مع ملابسة الفواحش، توفى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص١٠. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٢٩٩.

(6) سبق تعريفها.

(7) هو هولاكو بن طلو بن جنكز خان ملك التتر الذي اجتاح بلاد العراق، وقتل الخليفة العباسي، واجتاح بلاد الشام وأشاع فيها الخراب والدمار، توفى سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ص٣٣٢.

(8) انظر: أبو الفداء المختصر في أخبار البشر، ج٢ ص٣١٣-٣١٤. شميساني، الحافظ شمس الدين الذهبي، ص١٠.

(9) هو حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل صاحب الصبيبة وبانياس، لما تملك الملك الناصر دمشق قبض عليه وسجنه بالبيرة، فلما أخذ هولاكو البيرة أحضره إليه مطلقاً سراحه وخلع عليه وسلم إليه الصبيبة، وبقي في خدمة كتبغا بدمشق، لما انهزم التتار في عين جالوت جيئ به إلى المظفر قطز فضرب عنقه سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣١٤. اليافعي: مرآة الجنان، ص١١٤. ابن العماد، شذرات، ج٥، ص٢٩٢.

(10) الصبيبة هي: مدينة شامية، من أعمال دمشق، مشهورة بكثرة الكروم، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٢١٣.

(11) بانياس، هي: مدينة من ثغور بلاد الشام، تقع في شمال فلسطين، فيها نهر شديد البرودة، يخرج من تحت جبل الثلج "جبل الشيخ"، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٠.

(12) انظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣١٤. شميساني الحافظ شمس الدين الذهبي، ص١١.

ولا شك أن ذلك السلوك المشين الذي سلكه بقايا ملوك بني أيوب في الشام، ادى إلى إصابة معظم أهالي الشام بالإحباط، وأصبحوا في حيرة من أمرهم، بين خيانة ملوكهم، وتعرضهم لأخطـــار الصليبيين والتتار في آن معاً، وكان هذا من أهم وأقوى الدوافع التي دفعتهم إلى العزلة واللجوء إلى المساجد والجبال، بسبب عدم الاستقرار السياسي، الذي اتسم به ذلك العصر، مما أدى إلـــى اتـــساع التيار الصوفي، وانتشاره بين أفراد المجتمع الشامي، وكأنه حركة احتجاج سلبي علـــى تجـــاوزات السلطة السياسية[١].

كما كانت الباطنية في بلاد الشام تبث الرعب في قلوب النـــاس، ولا تكـــف عـــن إحاكـــة مؤامرات الاغتيال ضد القادة والأمراء والسلاطين[٢]" [٣] الذين يتعرضون لهم، أو يقفون في وجـــه دعوتهم، كما استعان بعض الحكام أمثال رضوان صاحب حلب بالباطنية، لتصفية خصومه، وكـــان أول ضحاياهم أتابكه الأول جناح الدولة حسين[٤] صاحب حمص، إذ تمكنـــوا مـــن اغتيالـــه ســـنة ٤٩٦هـــ/١٠٠٢م، بينما كان يستعد لمجاهدة الصليبيين في نواحي طرابلس والشام[٥].

وبسبب هذا الرعب تجنب الكثير من الناس الحياة السياسية، ولجأوا إلـــى بيـــوت الـــصوفية البعيدة عن الخلافات السياسية، كما وجد بعض الحكام في حركة التصوف مخرجـــاً، ينفـــذون مـــن خلاله لتحقيق أهدافهم وسياساتهم، فأضفوا عليها طابعاً يلائم ميولهم واتجاهاتهم، ثم وظفوها بفاعليـــة في ميادين الحياة المختلفة، نظراً لدورها الكبير في التأثير على عامة الناس وقدرتها على تـــوجيههم وتحريكهم نحو الاتجاه الذي يؤيد سياستهم، خاصة وأن سواد الناس في تلك الفترة كانوا يقبلون على المتصوفة، ويبالغون في احترامهم. [٦]

كما كان لبعض الحكام مآرب أخرى، في تشجيع الحركات الصوفية، حيـــث تقربـــوا مـــنهم مسايرة للشعور العام، لأنها تصرف العامة عن مراقبتهم ومحاسبتهم، أو تتبع أخطائهم، أو الوقـــوف في طريق رغباتهم، فاهتم بها الحكام، واهتموا بتوجيه أنظار الناس إليها، وأغدقوا عليهم الأمـــوال،

---

[1] انظر: عويضة، ابن الجوزي، ص١٧. Karam Ustafa, Gods Unrulg Frinds, p.38.

[2] حيث تم على أيديهم قتل العديد من الأمراء والوزراء أمثال نظام الملك وزير الدولة السلجوقية ســنة ٤٨٥هـــــ/ ١٠٩٢م، حيث اغتالته الباطنية بقرب نهاوند، أتاه فتى ديلمي، في زي إنسان متظلم فضربه بسكين بعد الفطور من صيامه، وكان هذا الوزير أول قتيل على أيدي الإسماعيلية الحشاشين، والسلطان عماد الدين زنكي الذي تم اغتياله سنة ٥٤١هـــــ/١١٤٦م، وهو محاصراً لقلعة جعبر على يد أحد الباطنية، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١، ص٣٣٩. ابن العمـــاد، شـــذرات، ج٤، ص١٨.

[3] أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٢.

[4] هو جناح الدولة صاحب حمص، كان والياً شجاعاً وهمة عالية، تصدى لمحاربة الصليبيين، إلا انه اغتيل في المسجد على يد باطني، سنة ٤٩٦هـــ/١١٠٢م، للمزيد عن ترجمته، انظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٤.

[5] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٤.

[6] المصري، التعليم في بلاد الشام، ص٤٩-٥٠. عطوي، ابن الفارض، ص١٣.

وأوقفوا لهم الأوقاف، وبنوا لهم الخانقاهات والزوايا والربط، وأجروا عليها الرزق السهل، [1] فتوافد الناس عليهم، وأصبح للصوفية دور اجتماعي كبير في حياة المجتمع، فاهتموا بمصالحه، ودافعوا عن حقوق الناس، وأذكوا روح المقاومة في النفوس ضد الغزو الصليبي الغاشم[2] الذي يجثم على أراضي الشام، وهذه المواقف الصوفية كانت سبباً في إقبال الناس عليهم، فأصبحوا من الكثرة بمكان، وهذا كله كان سبباً في ازدهار التصوف فترة الحروب الصليبية.

ثالثاً: العوامل الاجتماعية والطبيعية:

كان الناس يخضعون في القرنين السادس والسابع الهجريين إلى نظام اجتماعي أساسه الاقطاع، الذي ساد العصور الوسطى في أوروبا والشرق، وقد بدا هذا النظام في الشرق الإسلامي أيام البويهيين[3] إذ كانت تمنح هذه الإقطاعات لرؤساء الجند والأمراء، ومع انتقال السلطة إلى السلاجقة، الذين انتزعوا بغداد من أيدي البويهيين، سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، ظل الإقطاع محافظاً على طابعه السابق، ويبدو أن هذا النظام في عهد البويهيين، أدى إلى خراب البلاد، مما حدا بنظام الملك، الذي تولى منصب الوزراء للسلطان ألب أرسلان سنة (٤٥٧-٤٦٥هـ/١٠٦٥-١٠٧٢م) ولابنه الملك شاه من بعده، سنة (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م)، أن يعالج الأمر كما تراءى له، إذ جعل الإقطاع الحربي عاماً في الدولة السلجوقية، ففرق البلاد على الأجناد إقطاعاً كلاً قدر طاقته، وجعل واردها لهم، على أن يقدم الإقطاعي عدداً من الجنود للخدمة في الجيش السلطاني،[4] وكان من أهم مساوئ هذا النظام، أنه قد أدى إلى تقسيم الناس إلى طبقتين متناقضتين، إحداهما طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع، ويلحق بهم طبقة التجار الكبار وأصحاب الثراء من المقربين من الأمراء والسلاطين.

---

[1] زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص٧٠.

[2] انظر: الذهبي، سير أعلام، ج١٥، ص٣٧٨. عبد الجليل، المدارس في بيت المقدس، ج١، ص١٢٧.

[3] ينسب البويهيين إلى جدهم أبو شجاع بويه، وهو من فقراء العامة من الفرس، وبنوبويه، هم ثلاثة أخوة، علي، وحسن وأحمد، نشأ الأخوة الثلاثة على حب المغامرة، وقد أتاحت لهم مواهبهم العسكرية الوصول إلى مراكز هامة في الجيش، رحب بهم القائد الديلمي، مرادويج، وأغدق عليهم الأموال، وولى علي، على بلاد الكرخ، وتطلع أحمد بن بويه الاستيلاء على بغداد، فتقدم نحوها ودخلها سنة ٣٣٤هـ/٩٣٨م، واستقر أحمد في بغداد، بينما بقي أخوه حسن في الري وأصبهان، وبقي علي في فارس، واستأثر أحمد بالسلطة دون الخليفة، وتولى الحكم في بغداد، أحد عشر أميراً من البويهيين، وقد حكم معظمهم بجانب العراق، بلاد فارس أيضاً، وكان حكمهم من سنة ٣٣٤-٤٧٤هـ/٩٣٨-١٠٧٨م، انظر: ابن العبري، مختصر الدول، ص١٤١. ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١. شاهين، رياض، الملك المعظم عيسى، (٥٧٦-٦٢٤هـ/١١٨٠-١٢٢٧م)، سياسته الداخلية والخارجية، رسالة دكتوراه غير منشورة، (السودان، جامعة الخرطوم، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

[4] ابن مسكاويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ٨ أجزاء، تحقيق، سيد كسراويه حسن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ/٢٠٠٣م)، ج٥، ص٢٨٨. شاهين، المعظم عيسى، ص١٦.

ثم الطبقة الثانية، وهي الطبقة الدنيا، طبقة الشعب الفقير، التي لا تملك شيئاً، لأن الأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات ملك لصاحب الإقطاع، يتصرف فيهما كما يشاء، ليس عليه رقيب ولا يحده قانون، وكان طبيعياً والحال كذلك أن يقاسي سواد الشعب أنواع الذل والمهانة.

وعادةً كما يحدث في كل عهود القهر والانحلال واليأس، يلجأ بعض الناس إلى الدين، يفكرون تفكيراً صوفياً، يلتمسون فيه مخرجاً من الأوضاع السائدة، وهرباً من الفتنة، أو إحساساً منهم بالإحباط والهزيمة في معركة الحياة الأولى، فلا أقل من أن يكسبوا رضى الله في الحياة الآخرة. (١)

فالكثير من الناس يلجأون إلى التصوف نظراً لفشله في الحياة الدنيا، أو لأنهم لم يجدوا شيئاً يتعيشون منه، أو لأن لهم مزاجاً خاصاً يكره الدنيا ونعيمها، والحياة وزخرفها، أو لأن إحساسهم رقيق لا يقدر على رؤية ظلم الناس وفساد الحياة، ولا يجد في نفسه القوة على الجِلاد والصراع، إلى أن يصل به الأمر في النهاية إلى الشك في المجتمع وأهله، فيضيق بالحياة ذرعاً، ولا يجد مفراً من أن يعتكف متأملاً متفكراً في مُثل عُليا، أو في حياة أخرى صفت فيها النفوس، وتطهرت من كل دنس.(٢)

هكذا اتجه بعض الناس إلى التصوف، وسكن مساكن الصوفية وعمائرهم، من أجل التكسب من الأرزاق، التي ينفقها أولي الأمر على تلك العمائر، حيث أن الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها بلاد الشام في ذلك العصر دفعت الكثير من الناس لاتخاذ الدين والصلاح وسيلة من وسائل الارتزاق.(٣)

كما كان للكوارث الطبيعية التي مرت ببلاد الشام من زلازل(٤)، وأمراض وأوبئة، ومجاعات، دورٌ كبير في زهد الناس بالدنيا، وإقبالهم على الآخرة، حيث إن المجتمع الشامي نظر إلى تلك النكبات على أنها ابتلاء من الله عز وجل، أو أنها شكل من أشكال العقاب الإلهي العادل، نظراً للآثام التي ارتكبت من قِبل البعض، أو لابتعاد بعض العناصر عن جادة الدين الحنيف، مثل ذلك التفسير لقي رواجاً كبيراً وعلى أوسع نطاق في نفوس المعاصرين، الذين تملكهم الرعب والذعر والهلع، من رؤية منازلهم تتهدم فوق رؤوسهم(٥)، وفقدانهم للكثير من أبنائهم، وأهليهم

---

(1) بدوي، المسافرون إلى الله، ص٧٥. المصري، التعليم في بلاد الشام، ص٤٩. عطوي، ابن الفارض، ص١٠-١١.

(2) الخزرجي، سير الأولياء، ص٦٥. زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص٦٩.

(3) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٩٣. المصري، التعليم في بلاد الشام، ص٤٩. عطوي، ابن الفارض، ص١٣.

(4) الزلزال، تحريك الشيء، وتزلزلت الأرض زلزلة تحركت واضطربت، زلزلت الأرض أي تحركت تحريكاً عنيفاً متكرراً. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٣٠٨. المقرئ، المصباح المنير، ص١٥٥. أبي السعود، تفسير، ج٩، ص١٨٨.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٧٥. عوض، محمد مؤنس أحمد، الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، (مصر، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م)، ص٤٣.

وجيرانهم، وأصدقائهم "كل ذلك دفع المستضعفين من فقراء ومعوزين إلى اتخاذ التصوف سبيلاً إلى الانخراط في تياره، ليكون لهم ملجأً يعصمهم من قسوة الحياة"(١)

علاوة على الفئة الكبيرة من المصابين والمعاقين التي ظهرت عقب كل زلزال أو كارثة، حيث إنهم يصبحون عاجزين عن ممارسة أي عمل، سوى اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء، والعبادة فكان هؤلاء رصيداً كبيراً للتصوف.

ولم تقتصر النكبات(٢) التي حلت ببلاد الشام على الزلازل، بل ذاق سكان بلاد الشام فترة الحروب الصليبية الأمرَّين من المجاعات، التي كانت تعم البلاد بسبب انحباس الأمطار، أو بسبب الجراد(٣) الذي كان يجتاح البلاد، فيأكل الزرع والثمر، أو من جرَّاء الأمراض والأوبئة، التي كانت تحلُّ بالناس، فتقضي على الكثير منهم وتصيب الآخرين بالعاهات المستديمة.

ولا شك أن مثل هذه الحوادث كانت من عوامل إقبال الناس على الدين، واللجوء إلى الله بالدعاء، وطلب الرحمة، وكان التصوف في ذلك العصر وسيلة من الوسائل التي يتقرب بها الناس إلى الله تعالى، أو كهروب من ضيق الحياة.

ولقد تتبع الباحث المصائب والكوارث والأزمات التي أصابت بلاد الشام فترة الحروب الصليبية، فوجدها من الكثرة بمكان، حتى تكاد تغطي جميع سنوات الوجود الصليبي في بلاد الشام حيث كان أول هذه الكوارث زلزال **٤٩١هـ/١٠٩٧م** وهي السنة الأولى للاجتياح الصليبي للبلاد الشامية، وكان تأثيره على الساحل الشامي، ولقد اعتبر فوشيه(٤) هذا الزلزال، وما صاحبه من آيات بشارة من السماء للصليبين، تبشرهم باحتلال بلاد الشام، حيث يقول: "وفي تلك الفترة رأينا شعاعاً أحمر في السماء، كما شعرنا بزلزلة عظيمة في الأرض، مما أوقع الخوف في قلوبنا، وقد رأى الكثير منا علامة معينة على شكل صليب، بيضاء اللون، تسير في طريق مستقيم إلى الشرق"(٥).

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص٣١-٣٢. موسى، الأدب في بلاد الشام، ص١٠٠.

(2) النكبات، مفردها نكبة، والنكبة هي المصيبة التي حلَّت بالقوم، المقرئ، المصباح المنير، ص٣٧٠.

(3) الجراد مفردها جرادة، وهي للذكر والأنثى، جردت الأرض، فهي مجرودة، إذا أكل الجراد نبتها، وجرد الجراد الأرض، أي أكل ما عليها من نبات فلم يبقي منه شيئاً، ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص١١٨. الدميري، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى، "حياة الحيوان الكبرى"، مجلدان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٨٧٦م)، ج١، ص٢٦٨.

(4) هو الشارتري مؤرخ الحملة الصليبية الأولى، ينسب إلى مدينة شارتر في فرنسا، وقد رافق الحملة الصليبية، وانضم إلى بلدوين الأول مؤسس مدينة الرها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، وبقي هناك مدة عامين إلى أن تولى بلدوين عرش القدس، انظر: الشارتري، فوشيه، "تاريخ الحملة إلى القدس"، ترجمة، زياد العسلي، (بيروت، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ص١٠-١١.

(5) الشارتري، تاريخ الحملة، ص٥٥. غوانمه، يوسف، الزلازل في بلاد الشام في العصر الإسلامي وأثرها على المعالم العمرانية، (الأردن، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ص٢٥.

انظر كيف كان الصليبيون يوهمون رعاياهم وجنودهم بأنهم جند من الله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عنهم، حيث يبعث إليهم بالبشائر التي تبشرهم بالنصر والسيطرة على بلاد الشام لا محالة.

كما حدثت زلزلة في مدينة القدس سنة **<u>٤٩٩هـ/١١٠٥م</u>** أثناء احتلالها من الصليبيين،(١) وصاحبها "ظهور كوكب في السماء له ذؤابة(٢) كقوس قزح(٣).. وكان يُرى قريباً من الشمس قبل ظهوره ليلاً وبقي يظهر عدة ليال ثم غاب"(٤)، وحدثت زلزلتان في بيت المقدس سنة **<u>٥٠٦هـ/١١١٣م</u>**(٥).

وفي سنة **<u>٥٠٨هـ/١١١٤م</u>** حلَّت ببلاد الشام زلزلة هائلة، فخربت وأهلكت من الخلق الكثير(٦) يقول فوشيه: "زلزلة كبرى، وكانت أسوأ مما سمعنا على الإطلاق "(٧)

وضربت زلزلة سنة **<u>٥٠٩هـ/١١١٦م</u>** المناطق المحيطة بأنطاكية(٨) فهلك أجزاء منها وهلك عدد من السكان تحت الأنقاض(٩). كما زحفت على بلاد الشام حشود لا تحصى من الجنادب، جاءت من بعض أجزاء الجزيرة العربية،وطارت إلى بلاد القدس، وقد أتلفت محاصيل شديدة. (١٠)

وفي سنة **<u>٥١٠هـ/١١١٧م</u>** "عجت(١١) أراضي القدس بحشود لا تُعد ولا تحصى من الجراد ملتهمة أكثر من المعتاد من الكرمة، (١٢) ومحاصيل الحقل والأشجار على مختلف أنواعها(١٣).

---

(1) ابن القلانسي، الذيل، ص١٤٩. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٢٥.

(2) الذءابة، هي طرفة العمامة، أو هي ذنب الشيء، المقرئ، المصباح المنير، ص١٢٨.

(3) قوس قزح، سمي بذلك لتلونه كالقزحة، من أصفر وأخضر وأحمر، وهو القوس الذي يظهر في السماء، وأفضل قطف للزيتون يكون بعد رؤيته، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٢٤٣.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص١٤٩. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٩٧.

(5) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٥٣. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٢٩.

(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١٢٧. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥٧. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٢٩.

(7) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٥٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥٧.

(8) سبق تعريفها.

(9) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٥٧. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٢٩.

(10) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٥٤.

(11) عجَّت، عجَّ عجيجاً، أي صاح ورفع صوته، ومنها عاج القوم إذا تكاثروا، وعاج الجراد تكاثر وانتشر، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص١٩٨.

(12) الكرمة، شجرة العنب، عندما يكثر عناقيده ويكثر خيره، ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٥١٤. المقرئ، المصباح المنير، ص٣١٦.

(13) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٦٠.

ما يفهم من النص السابق أن الأرض أصبحت جرداء لا يوجد عليهــا أخــضر ولا يــابس بانعدام المحاصيل جرَّاء الجراد، وبذلك يحدث الغلاء، وينتشر الفقر، وتَعُم المجاعة، يلجأ الناس إلى الأماكن التي توجد بها الأرزاق، وفي ذلك العصر كانت بيوت الصوفية غنية بالخيرات، بسبب كثرة أوقافها، وما يغدقه عليها السلاطين والأغنياء من أموال وخيرات.

وفي عام **٥١٧هـ/١١٢٣م** وقــع في أكــثر بــلاد الشــام غــلاء شديــد إلا أنــه كــان في العراق أكثر[١].

وفي سنة **٥٣٠هـ/١١٣٥م** اجتاحت بلاد الشام وخاصة دمشق أسراب عظيمة من الجراد، ونتج عن ذلك التهام الغلال الذي نتج عنه ارتفاع الأسعار، وحدوث أزمة اقتصادية، واصبح النــاس في خوف وهلع. [٢]

وفي سنة **٥٣١هـ/١١٣٦م** ظهر بالشام سحابٌ أسود، وأظلمت الدنيا،وصار الجو كالليــل المظلم، ثم طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنه النار،أضاءت له الدنيا،وهبت ريــح عاصــفة، أوقعــت الكثير من الشجر، كان أشدها في دمشق[٣].

وفي سنة **٥٣٢هـ/١١٣٧م** جاءت زلزلة عظيمة بالشام، فتهدم شيء كثير منها ومات عالم كثير تحت الردم. [٤]

أما في سنة **٥٣٣هـ/١١٣٨م** وقعت زلازل كثيرة، وهائلة في بلاد الشام، وكانت بدمــشق متوالية لعدة ليال، كل ليلة عدة دفعات، وكانت بحلب شديدة جداً لدرجة أنها جاءت ٨٠ مرة في ليلة واحدة، وبقيت هذه الزلازل في بلاد الشام مدة خمسة عشر يوماً، وكان يــصحبها صــوت وهــزة شديدة، وقد غادر الحلبيون منازلهم مذعورين، فراراً من الموت ولجأوا إلى الصحراء ويعَــد هــذا الزلزال من أعنف الزلازل التي تعرضت لها بلاد الشام خلال النصف الأول من القــرن الــسادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[٥] وفي سنة **٥٣٤هـ/١١٣٩م** "فيها نقصت المياه من سائر الــدنيا"[٦] ومنها بلاد الشام أيضاً.

---

[1] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص١٩٨. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٢٥.

[2] ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص١٠٥. براور، يوشع، عالم الصليبيين، ترجمة: قاسم عبدو قاسم - محمــد خليفــة حسن، (مصر، عين للدراسات والبحوث الإسلامية والاجتماعية، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ، ص١٩٦.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٠٠.

[4] ابن الأثير، الكامل، ص٣٠٧. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص١٠٧. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٣٠.

[5] ابن القلانسي، الذيل، ص٢٧٠. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٣١١. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣١١. ابــن كثيــر، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٥. ابن الشحنة، روض المناظر، ص٢٠٨. عوض، الزلازل في بلاد الشام، ص٦٤.

[6] ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص١١٠.

وفي سنة **٥٤٢هـ/١١٤٧م** تحالف على بلاد الشام هجمات أسـراب الجـراد والمـرض الوبائي، على نحو دفع ثمنه كل من المزروعات والبشر. [١]

وفي سنة **٥٤٦هـ/١١٥١م** حدثت هزة في بـلاد الـشام، اهتـزت لهـا الأرض ثـلاث هزات متوالية[٢].

أما سنة **٥٤٧هـ/١١٥٢م** تحالف على بلاد الشام أسراب الجـراد، وانتـشر الوبـاء فـي جميـع أنحائها. [٣]

أما في عام **٥٥١هـ/١١٥٦م** ضربت بلاد الشام زلازل عظيمة شديدة، وهي من أعنف ما أصاب بلاد الشام من هزات أرضية، حيث وقع في ليالي شهر رمضان لوحده من هـذه الـسنة ١٤ زلزلة، أما في شهر شعبان فقد وقعت أثناءه ثلاث عـشرة هـزة أرضـية، وفـي شـوال حـدثت ثمان هزات"[٤].

ووقوع هذه الهزات في شهر رمضان يعمق التفسير الديني لتلك الزلازل الطبيعية في أذهان المعاصرين لها، فلجأوا إلى المساجد، والخوانق، والزوايا يجأرون لله بالدعاء وطلب المغفرة.

وفي عام **٥٥٢هـ/١١٥٧م** حدث زلزال عظيم عُدَ من أكبر الزلازل التي حلَّت ببلاد الشام، ولقـد تتابعت هذه الزلازل مدة عشرة أشهر على بلاد الشام، فهدمت الكثير من مبانيها، وقتلت الكثير مـن ساكنيها"[٥]

أما في عام **٥٥٤هـ/١١٥٩م** ضربت بلاد الشام زلازل هائلة على فترات متفرقة، وليس أدَّل على ذلك ما حدث في دمشق، حيث أنه من شدة رجفاته خاف الناس على أنفـسهم، ومنـازلهم، ولجأوا إلى الله بالدعاء والصلاة. [٦] ولجأ الكثير منهم إلى بيوت الله.

وفي عام **٥٦٥هـ/١١٧٠م** أصابت بلاد الشام زلزلة عظيمة، هائلة، ومتتابعة، ولقـد نـال فلسطين نصيب من هذه الزلازل التي تراوحت مدتها ما بين ثلاثة إلى أربعة أشهر، فكانت الرجفات

---

(1) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص١٩٨. براور، عالم الصليبيين، ص١٩٦.

(2) ابن القلانسي، الذيل، ص٣١٨. أبو شامة، الروضين، ج١، ص٢٦٣.

(3) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص١٩٨. براور، عالم الصليبيين، ص١٩٦.

(4) ابن القلانسي، الذيل، ص٣٣٤-٣٣٦. بنيامين، الرحلة، ص٨٨. عوض، الزلازل في بلاد الشام، ص٧٩.

(5) ابن القلانسي، الذيل. بنيامين الرحلة، ص١٢٠. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤١٣. ابـن الجـوزي، الأريـج، ص١١٤. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٣٢-٣٥.

(6) ابن القلانسي، الذيل، ص٣٥٧. أبو شامة، الروضين، ج١، ص٣٤١. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٣٦.

تأتي في معظم الليالي ثلاث أو أربع مرات، وكل رجفة كانت مصدر رعب وخوف للمواطنين، فلم يذق الناس طعماً للراحة، ولا للنوم إطلاقاً. [١]

وفي سنة **٥٧٤هـ/١١٧٨م** وقع في بلاد الشام غلاءٌ شديد، استمر حتى انقضى أكثر سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م "، وتعذرت الأقوات، واستسقى الناس في سائر الأرض فلم يسقوا، وأكلت الناس الميتة، ثم تبعه بعد ذلك وباءٌ شديد، فكَثُر الموت، وكان مرض الناس شيئاً واحداً وهو السرسام[٢]، وكان الناس لا يلاحقون دفن الموتى، إلى أن رحم الله العباد والبلاد، وأرسل الأمطار، وأرخص الأسعار"[٣].

وفي عام **٥٧٥هـ/١١٧٩ م** وقعت زلزلة عظيمة، أصابت معظم بلاد الشام، إلا أن أكثرها كان في إربل"[٤]، ووقع غلاء في الشام، وكان أشده في بغداد، حيث أن رجلاً بواسط[٥] ذبح بنتاً وأكلها، وآخر بقر بطن صبي وأخذ كبده، وشواها وأكلها[٦]، كما هبت في هذه السنة ريح سوداء مظلمة، وعمَّت أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ربعه، وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد يبصر الإنسان صاحبه، وأقبل الناس على التضرع والتوبة، والاستغفار، وظنوا أن القيامة قد قامت"[٧] ألا تكفي هذه الآية في أن يلجأ الناس إلى بيوت الله وبيوت الصوفية التي كانت في ذلك العصر تمثل الواجهة الدينية.

أما في عام **٥٩٧هـ/١٢٠٠م** تزلزلت الأرض بالشام، وغيرها "فأثرت بالشام آثاراً قبيحة وخربت كثيراً من الدور بدمشق[٨] وحمص[٩] وحماة[١٠]، وأثرت في الساحل الشامي أثراً كبيراً،

---

(1) ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد المصري، تاريخ ابن الفرات، تحقيق، حسن محمد الشماع ، ج٤، ص٩٢. وليم، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٤٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٦١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣٢. ابن الفرات، تاريخ، ج٤، ص٩٤.

(2) السرسام، هو التهاب حاد في الدماغ، من أهم أعراضه، اختلاط العقل، مع حرارة محرقة، انظر: ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله الملقب بالشيخ الرئيس، "القانون في الطب"، ٤ أجزاء، تحقيق، سعيد اللحام، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ج٢، ص٨٦.

(3) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٩٢. أبو شامة، الذيل، ج٣، ص١٢.

(4) إربل، قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، وهي تعد من أعمال الموصل بالعراق. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١١٦.

(5) واسط، وهي قرية غربي الفرات، بناها الحجاج، وهي مدينة تقع بين مدن العراق وبين الأهواز. انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٠٦. ياقوت، معجم البلدان، ج٨، ص٤٣٨.

(6) أبو شامة، الروضين، ج٣، ص٣٦.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٩٨.

(8) سبق تعريفها.

(9) حمص، هي بلد مشهور قديم من بلاد الشام وهي بين دمشق وحلب، كانت قلعة حصينة فترة الحروب الصليبية وهي معروفة برخص أثمانها وطيب هوائها، الاصطخري، المسالك والممالك، ص٤٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٣٣. القزويني، آثار البلاد، ص١٨٤.

(10) حماة، هي مدينة من مدن بلاد الشام، وهي مدينة كبيرة كثيرة الخيرات، يمر بها نهر العاص، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٨٠. الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص٤٣.

فاستولى الخراب على طرابلس وصور[١] وعكا[٢] ونابلس وغيرها من القلاع." [٣] يقول أبو شامة واصفاً هذه الزلزلة "وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد فعمت الدنيا في ساعة واحدة، هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام، والساحل فهدمت مدينة نابلس، فلم يبق فيها جدار قائم إلا حارة السمرة[٤] وقد اشتد الغلاء والوباء... ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً، وهدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل، وامتدت إلى دمشق، فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق... وتهدمت قلعة بعلبك، برغم عظم حجارتها، ووثيق عمارتها، وامتدت إلى حمص وحماة وحلب. [٥]

وفي سنة **٥٩٨هـ/١٢٠٢م** كانت هناك زلزلة عظيمة في بلاد الشام، لدرجة أنها شققت قلعة حمص، وخربت حصن الأكراد[٦]، وامتدت إلى نابلس، وأخربت ما بقى "وفي أعقاب هذا الزلزال انتشر الطاعون في بلاد الشام، فأهلك الكثير ممن نجوا من الهزات الزلزالية، فانزعج الخلق وضجوا إلى الله تعالى"[٧]

وفي سنة **٦٠٠هـ/١٢٠٣م** كانت هناك زلزلة قوية، عمَّت أكثر البلاد [مصر، والشام، والجزيرة[٨]، والموصل[٩]، والعراق] [١٠]

---

[1] صور، هي مدينة تقع في الطرف الجنوبي من لبنان وهي على شاطئ البحر المتوسط، شمال منطقة الراشدية، وهي مدينة مشهورة، سكنها خلق كثير من الزهاد والعلماء، وكانت من ثغور المسلمين الرئيسة، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٢١٠. القزويني، آثار البلاد، ص٢١٧.

[2] عكا، تقع شمال فلسطين على ساحل البحر المتوسط، وهي من أحسن بلاد الساحل، وميناؤها من العجائب، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٠. دانيال، الرحلة، ص١٠٤. القزويني، آثار البلاد، ص٢٢٣.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٧٥ -٢٧٦.الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص١٠٥. السيوطي، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، راجعه وعلق عليه، جمال مصطفى، (القاهرة، دار النصر للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص٣٥٦، ص٣٥٦. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ص١١٩.

[4] السمرة، هي فرقة من اليهود لا يؤمنون بنبي غير موسى وهارون، ولا بكتاب غير التوراه، وما عداه من اليهود يؤمنون بالتوراه، وهم يسكنون على جبل جرزيم في نابلس، الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص٩٨. ثيودريش، الرحالة الألماني (السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي)، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة، سعيد البيشاوي – رياض شاهين، (رام الله، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص١٢٦.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٧٥. أبو شامة، الذيل، ص٣١-٣٢.

[6] الأكراد، هو حصن منيع، على جبل يقابل مدينة حمص من جهة الغرب، كان للفرقة الصليبية المسماة بالداوية، وكانوا ينطلقون منه لحرب المسلمين، ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٥٣.

[7] أبو شامة، الذيل، ج٥، ص٤٥. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٦. عوض، الزلازل في بلاد الشام، ص١٤٣.

[8] الجزيرة، هي الأرض التي تقع بين دجلة والفرات، تقع شمال مدينة الموصل، ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٥٧.

[9] الموصل، إحدى مدن العراق، تقع في شماله، وهي من أهم مدن الإسلام، وهي باب العراق من جهة الشمال، الاصطخري، المسالك والممالك، ص٥٣. ياقوت، معجم البلدان، ج٧، ص٣٣٩.

[10] ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٩٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص١٦١. غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٤٣.

أما عام **٦٠٨هـ/١٢١١م** فقد شهد زلزلة شديدة في مصر وبلاد الشام[(١)].

وبالنسبة لعام **٦٨٩هـ/١٢٢٢م** "ظهر بالشام جرادٌ كثير، لم يُعْهَد مثله، فأكل الزرع، والشجر، والثمر"[(٢)]

وفي سنة **٦٤٣هـ/١٢٤٥م** اشتد الغلاء بدمشق، مما أدى إلى ارتماء كثير من الناس في الطرقات من شدة الجوع، وانتشر التسول بين العامة من الناس بكثرة، ولجأ الكثير من الناس إلى بيوت الصوفية للإرتزاق.[(٣)]

وفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، يقول المقريزي واصفاً ما حدث في هذه السنة "وقع غلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق، وحلب، وأرض مصر، وأبيع المكوك[(٤)] القمح بحلب بمائة درهم، والشعير بستين درهم، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهماً... وفيها كثر الوباء ببلاد الشام فكان يموت من حلب في كل يوم ألف ومائتا إنسان، ومات من أهل دمشق خلق كثير".[(٥)]

وفي عام **٦٧٢هـ/١٢٧٣م** "ظهر جراد كثير، أكل الغلات وسائر الزروع"[(٦)]

أما في فلسطين فقد انتشرت الأمراض وخاصة في مدينتي الرملة[(٧)] والقدس.[(٨)]

كما حدثت زلزلة مهيبة في بلاد الشام، وأخطرها كان في غزة[(٩)]، والرملة."[(١٠)]

هكذا نلاحظ أن بلاد الشام فترة الحروب الصليبية كانت منطقة زلزالية، لا تكاد الزلازل تفارقها سنة من السنوات، وإذا نجت من الزلازل فإنها لا تنجو من انتشار الأوبئة والأمراض، والجفاف، والمجاعات، كل ذلك وضع المستضعفين من فقراء ومصابين ومعاقين إلى اتخاذ التصوف سبيلاً، واختاروا الانخراط في تياره، ليكون لهم ملجأً يعصمهم من قسوة الحياة.

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص١١٩. المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٧٦.

(2) أبو شامة، الذيل، ج٥، ص١٩٩.

(3) المصدر نفسه، ص٢٧٣.

(4) المكوك، جمعه مكاكيك، وهو مكيال للحبوب يسع صاعاً ونصف ويختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٤٩١. الزبيدي، تاج العروس، ج١٣، ص٦٤٥.

(5) المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٠٠.

(6) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٧٠.

(7) سبق تعريفها.

(8) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٨٧،

(9) سبق تعريفها.

(10) غوانمة، الزلازل في بلاد الشام، ص٤٧.

فكان الناس على اتصال دائم بالله، يلجأون إليه في السراء والضراء، وكانت أبواب الــصوفية فـــي ذلك العصر مفتوحة، يقدم أتباعها الخدمات والمعونات للناس في أوقات النكبات، مما جعــل النـــاس يقبلون عليها إقبالاً شديداً، فرادى وجماعات. هذا بالإضافة إلى المعوقين وأصحاب العاهات الذين لم يجدوا لهم ملجأً سوى الزوايا والخانقاهات فكانت النتيجة أن زاد عدد الصوفية ازدياداً كبيراً وأصبح لهم وزن سياسي واجتماعي في المجتمع الشامي.

جدول بأهم الزلازل التي حلت ببلاد الشام
فترة الحروب الصليبية
من (٤٩٢هـ-٦٩٠هـ/١٠٩٨م-١٢٩١م)

جدول بأهم الزلازل التي حلت ببلاد الشام فترة الحروب الصليبية
من (٤٩٢هـ - ٦٩٠هـ/١٠٩٨م - ١٢٩١م)

الرقم	تاريـــخ الزلزلـــة	قوتها حسب وصف المؤرخين	المناطق التي نصت الروايات على تأثرها بالزلازل داخل بلاد الشام	المناطق التي نصت الروايات على تأثرها بالزلازل خارج بلاد الشام	الأضرار المادية داخل بلاد الشام	الأضرار المادية خارج بلاد الشام	الأضرار البشرية داخل بلاد الشام	الأضرار البشرية خارج بلاد الشام
١	٤٨٤هـ - ١٠٩١م تشرين أول	عظيمة	أنطاكية	-	انهدم معظم أنطاكيا ووقع من سورها نحو تسعين برجاً	-	-	-
٢	جمادي الآخرة ٥٠٨هـ -نوفمبر ١١١٤م	هائلة – شديدة	الرها – حران – سميساط – بالس – وغيرها	الجزيرة – خراسان	- هدمت بيوت كثيرة، وخسف بنصف قلعة حران، خسف بمدينة سمسياط.	هدم ثلاثة عشر برجاً – هدمت بعض دور في خراسان	هلك خلق كثير. قتل نحنو مائة ألف.	-
٣	٥٣٢هـ - ١١٣٧م	عظيمة	-	الجزيرة – العراق	هدمت بيوت كثيرة	-	مات تحت الردم خلق كثير	-
٤	٥٣٣هـ - ١١٣٨م	عظيمة	حلب	جنزة	رمت أسوار البلد وأبراج القلعة	خسب بجنزة	قتل فيها ببلاد الشام وخارجها نحو ٢٣٠ ألف نسمة	
٥	الثلاثاء ١٣ جمادي الآخرة ٥٤٦هـ - ١١٥١/٩/٢٥م.	اهتزت لها الأرض ثلاث رجفات	بصرى – حوران	-	هدمت عدداً كبيراً من حيطان المنازل ببصرى وغيرها	-	-	-

٦	الجمعة ٢ شوال ٥٤٦هـ - ١١٥٢/١/١١م قبل الظهر	اهتزت الأرض ثلاث هزات هائلة	-	--	-	-	-	-	-
٧	رجب ٥٥١ هـ - فبراير ١١٥٦م	العظمى	-	-	-	-	-	نحو عشرة آلاف نسمة	-
٨	٢١ شعبان ٥٥١هـ- ٨ أكتوبر ١١٥٦م	هائلة	-	-	-	-	-	-	-
٩	٢٤ شعبان ٥٥١هـ - ١١ أكتوبر ١١٥٦م	نحو أربعين هزة ما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعاصير الخالية	حلب – حماة – أفامية	-	انهدام مواضع كثيرة انهدام برج من أبراج أفامية	-	-	-	-
١٠	الثلاثاء ٢٩ شعبان ٥٥١هـ - ١٥٦/١٠/١٨م	زلزلة آخر النهاي وبالليل زلزلة أخرى	-	--	-	-	-	-	-
١١	١ رمضان ٥٥١هـ-١٥٦/١٠/١٨م	مروعة	-	-	-	-	-	-	-
١٢	٣ رمضان ٥٥١هـ-١٥٦/١٠/٢٠م	ثلاث زلازل وأخرى وقت الظهر وأخلى في منتصف الليل وصفت بالهائلة	-	-	-	-	-	-	-
١٣	١٤ رمضان ٥٥١هـ-١٣ أكتوبر ١١٥٦م	هائلة أعظم مما سبق	-	-	-	-	-	-	-
١٤	صباح ١٥ رمضان ٥٥١هـ-١ نوفمبر ١١٥٦م	-	-	-	-	-	-	-	-

<table dir="rtl">
<tr><td>١٥</td><td>مساء ١٥ رمضان ٥٥١هـ-١ نوفمبر ١١٥٦م</td><td>أول الليل زلزلة وآخره زلزلة أخرى</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td>١٦</td><td>١٦ رمضان ٥٥١هـ-٢ نوفمبر ١١٥٦م</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td>١٧</td><td>٢٢ رمضان ٥٥١هـ-١٧ نوفمبر ١١٥٦م</td><td>مزعجة</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td>١٨</td><td>٢ شوال ٥٥١هـ - ١٧ نوفمبر ١١٥٦م</td><td>أعظم مما يتوقع</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td>١٩</td><td>٧ شوال ٥٥١هـ - ٢٢ نوفمبر ١١٥٦م</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td>٢٠</td><td>١٦-١٧ شوال ٥٥١هـ - ١-٢ ديسمبر ١١٥٦م</td><td>أربع زلازل</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td>٢١</td><td>٢١ شوال ٥٥١هـ - ٦ ديسمبر ١١٥٦م</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td>٢٢</td><td>مساء ١٨ صفر ٥٥١هـ- إبريل ١١٥٦م</td><td>عظيمة</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td><td>-</td></tr>
<tr><td colspan="9">* <u>ملاحظة/</u> أسفرت الزلازل في شهور شعبان ورمضان وشوال لسنة ٥٥١هـ عن هدم الكثير من المنازل في حلب، وخسائر مادية وبشرية كبيرة في شيزر وحماة ولم يعرف ما حديث في بقية مناطق الشام. وذلك حسب رواية أبي شامة في كتاب الروضتين، ج١، ص٣٣٠-٣٣٢.</td></tr>
<tr><td>٢٣</td><td>مساء ١٩ صفر ٥٥٢هـ-١٢إبريل١١٥٧</td><td rowspan="2">عظيمة</td><td colspan="6" rowspan="2">تواصلت الأخبار من ناحية الشمال بعظيم تأثير هذه الزلازل</td></tr>
<tr><td>٢٤</td><td>٢٠ صفر ٥٥٢هـ - ١٣ إبريل ١١٥٧م</td></tr>
<tr><td>٢٥</td><td>٢٤ جمادي الأولى (ليلاً) ٥٢٢هـ-</td><td>-</td><td>حلب – حمص – حماة</td><td>تيماء</td><td>هدمت مواضع في المدن</td><td>أثرت في تيماء</td><td>-</td><td>-</td></tr>
</table>

	١١٥٧/٧/٣م		– كفر طاب – أفامية		المذكورة من الشام وما كان بني من مهدوم الزلازل الأول	تأثراً مهولاً		
٢٦	٣ جمادي الآخرة (ليلاً) ٥٢٢هـ- ١١٥٧/٧/١٢م	-	-	-	-	-	-	-
٢٧	الإثنين ٤ رجب ٥٢٢هـ - ١١ أغسطس ١١٥٧م	عنيفة – قوية – عظيمة	حلب – حماة – شيزر – كفر طاب – أفامية – حمص – المعرة – تل حران – حصن الأكراد – عرقة – اللاذقية – طرابلس – أنطاكية.	-	خرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وأنطاكية تهدمت أسوار البلاد والقلاع وأجزاء من جامع دمشق	-	عدد كبير من القتلى، قتل مائة في حلب، وبعض أهل المعرة وأنطاكية. قتل معظم أهل حماة وشيزر وحمص واللاذقية وطرابلس. قتل جميع أهل كفر طاب وأفامية وحصن الأكراد وعرقة.	-
٢٨	الأحد ٢٩ رجب ٥٢٢ هـ (ليلاً) – ٥ سبتمبر ١١٥٧م	-	دمشق	-	-	-	-	-
٢٩	٢٤ رمضان ٥٥٢هـ - ٣٠ أكتوبر ١١٥٧م	هائلة	دمشق، حلب، حماة	-	قلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير وهدمت دوراً في حماة.	-	-	-

٣٠	الجمعة ٩ شوال ٥٢٢ هـ (ليلاً) – ١٤ نوفمبر١١٥٧م	هائلة	-	-	-	-	-	-
٣١	٩ ذي القعدة ٥٢٢ هـ (ليلاً) – ١٣ ديسمبر ١١٥٧م	-	-	-	-	-	-	-
٣٢	١٠ ذي القعدة ٥٢٢ هـ (نهاراً) – ١٤ ديسمبر ١١٥٧م	-	-	-	-	-	-	-
٣٣	٢٢ ذي القعدة ٥٢٢ هـ (ليلاً) – ٢٦ ديسمبر ١١٥٧م	-	-	-	-	-	-	-
٣٤	٢٥ ذي القعدة ٥٢٢ هـ – ٢٨ ديسمبر ١١٥٧م	-	-	-	-	-	-	-
٣٥	الجمعة آخر ذي القعدة ٥٢٢ هـ– ٣ يناير ١١٥٧م	-	-	-	-	-	-	-
٣٦	١٥ ربيع الأول ٥٢٣ هـ– ١٦ إبريل ١١٥٨م	-	حلب	-	زعزعت مواضع من مساكنها	-	-	-
٣٧	٢٤ ربيع الأول ٥٢٣ هـ– ٢٥ إبريل ١١٥٨م	-	دمشق	-	-	-	-	-
٣٨	٢٢ رجب (ليلاً) ٥٢٣ هـ– ١٩ أغسطس ١١٥٨م	-	-	-	-	-	-	-
٣٩	٢٣ رجب (ليلاً) ٥٢٣ هـ– ٢٠ أغسطس ١١٥٨م	-	حماة	-	-	-	-	-
٤٠	١ محرم ٥٢٣ هـ– ٢٣ يناير	عظيمة	-	-	-	-	-	-

	١١٥٩م							
٤١	٩ جمادي الأولى (ليلاً) ٥٥٤هـ- ٢٩ مايو ١١٥٩	هائلة	-	-	أزعجت وأتلفت	-	-	-
٤٢	١٢ شوال ٥٦٥هـ- ٢٨ يونيو ١١٧٠م	عظيمة – هائلة لم ير الناس مثلها	دمشق – بعلبك – حمص – حماة شيزر – بعرين – حلب	الجزيرة – الموصل – العراق	تهدمت أسوار وقلاع المدن المذكورة وسقطت الدور على أهلها. وقع معظم دمشق وشرفات جامع بني أمية. وقع نصف قلعة حلب وقلعة حصن الأكراد.	-	هلك من الناس ما يخرج عن الحد. أفنت خلقاً قتل في حلب وحدها ثمانون ألفاً (حسب روايتي الذهبي وابن العماد الحنبلي)	
٤٣	شعبان ٥٧٩ هـ - مايو ١٢٠١م	الزلزلة العظيمة	دمشق – حماة – بصرى – الساحل الشمالي – طرابلس – صور – عكا – نابلس – صفد – عرقة – صافيا – بعلبك	الموصل – ديار الجزيرة – العراق	انخسفت إحدى قرى بصرى. استولى الخراب على المدن المذكورة. خسف بعرقا وصافينا هدمت نابلس وعكا وصور وجميع قلاع الساحل وعامة دور دمشق.	-	هلك أمم لا تحصى. مات في نابلس تحت الهدم ثلاثون ألفاً. بلغ مجموع من أهلك بسبب هذه الزلازل نحو مليون ومائة ألف نسمة.	كانت بالعراق يسيرة لم تهدم دوراً. هدمت بنيان مصر فمات تحت الهدم خلق كثير. إمام في الاسكندرية صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة.

الخاتمة ونتائـــج الدراســة

كشفت الدراسة عن ازدهار الحركة الصوفية فترة الحروب الـصليبية وكــان مــن أهــم أســباب ازدهارها:

1) ابتعادها عن الصراعات المذهبية التي كانت منتشرة في ذلك العصر، وحاجة الناس فـي ذلــك الوقت إلى الأمن والطمأنينة هرباً من الصراعات والحروب والفتنة التي كانت تتعرض لها بــلاد الشام.
2) أبرزت الدراسة النشاطات العلمية لعدد كبير من مشايخ الصوفية سواء كان ذلك في مجال الأدب والشعر أو الكتابة والتأليف.
3) أظهرت الدراسة دور الصوفية الجهادي ومقارعتهم للمحتل الصليبي حيث كانوا درعاء لــسكان بلاد الشام من أعداء الداخل والخارج.
4) أظهرت الدراسة العلاقة الحميمة بين الصوفية وحكام البلاد المسلمين في ذلك العصر.
5) بينت الدراسة الدور الاجتماعي للمؤسسات الصوفية من خلال ما قدمته الخانقاهات والزوايا من غذاء وكساء لفقراء المسلمين وخاصة بعد النكبات الطبيعية التي كانــت تحــل بــالبلاد جــراء الزلازل أو الجراد.
6) كشفت الدراسة عن الدور الفعال الذي قامت به الحركة الصوفية في محاربتها للمذهب الــشيعي، وإحلال المذهب السني مكانه.
7) كشفت الدراسة عن الدور الاجتماعي الذي كانت تقدمه دور الصوفية من زوايا وربط للغربــاء والرحالة حيث كانت هذه الزوايا بمثابة أماكن استراحة لهؤلاء، يجدون فيها الطعام والشراب.
8) كشفت الدراسة عن تميز صوفية ذلك العصر باندماجهم في المجتمع ومشاركتهم لأبناء أمتهم أو مجتمعهم في أفراحه وأتراحه.
9) ساهمت الدراسة في الكشف عن بعض الأسباب التــي كانــت وراء عــدم مقارعــة الغزالــي للصليبيين.

التوصيـــــــات

من خلال نتائج الدراسة يوصي الباحث بما يلي:

١) إجراء دراسة تكشف الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء العلاقة الحميمة بين الصوفية وحكام مسلمي عصر الحروب الصليبية.

٢) إجراء دراسة تحليلية دقيقة ومركزة عن عدم مقارعة الإمام الغزالي للغزو الصليبي.

٣) إجراء دراسة مفصلة عن الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها بــلاد الــشام إبــان الغــزو الصليبي من زلازل أو أسراب جراد او أمراض فتاكة.

٤) إجراء دراسة مقارنة بين التصوف الإسلامي، والرهبنة المسيحية.

٥) إجراء دراسة تاريخية حول دور الحركة الصوفية في مواجهة الغزو الصليبي.

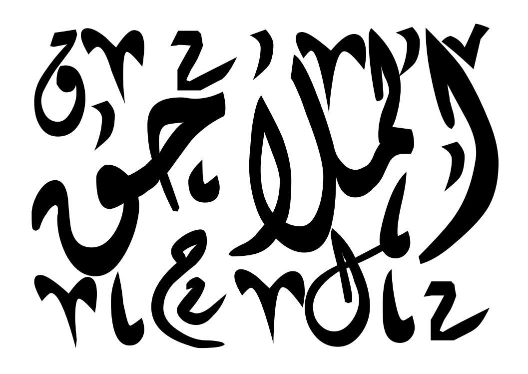
٦) إجراء دراسة تاريخية عن الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال حكم المماليك لها.

٧) إجراء دراسة تاريخية عن الحركة الصوفية خلال الحكم العثماني لبلاد الشام.

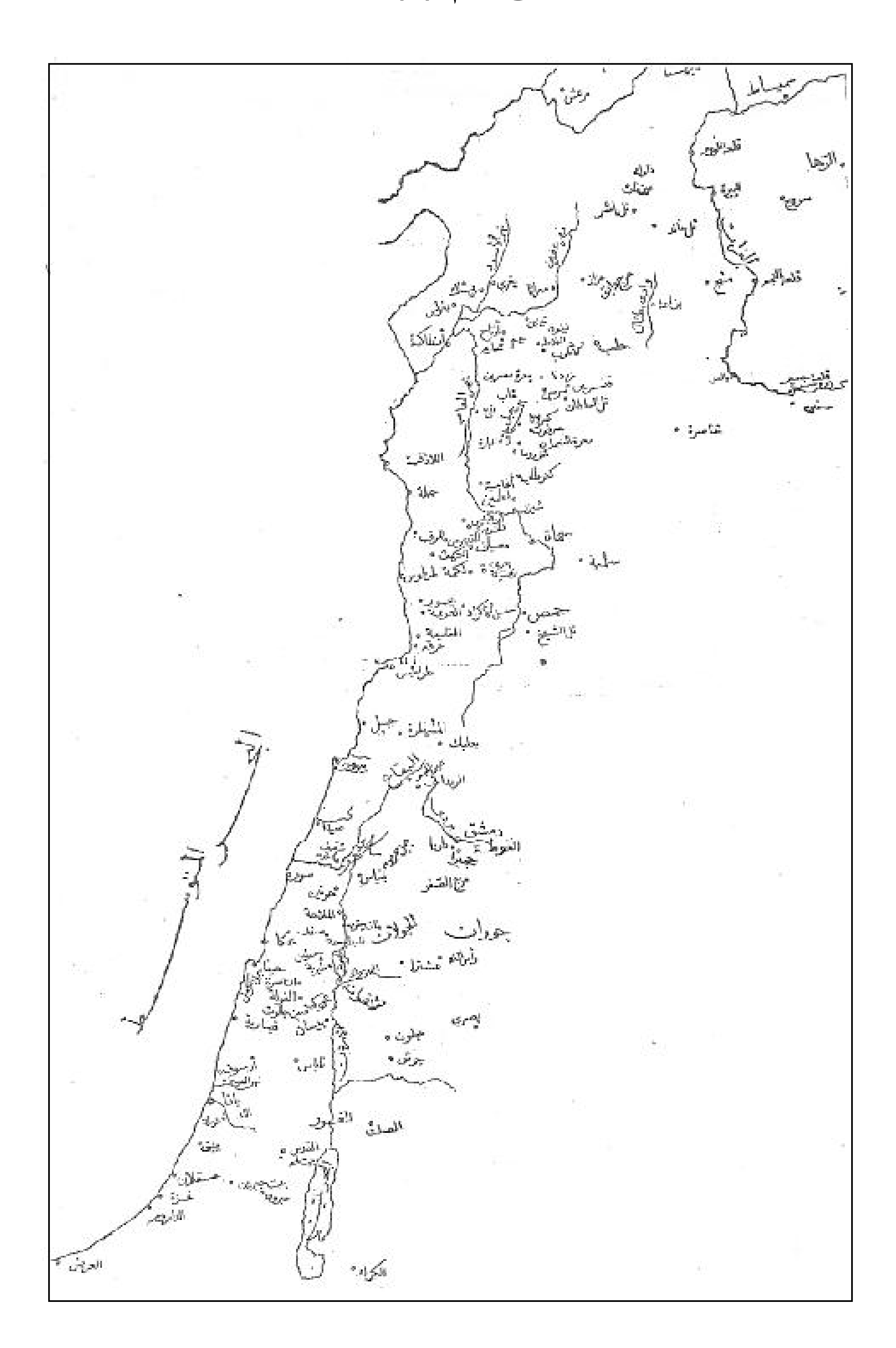
٨) إبراز الدور الإيجابي للصوفية في مناهج التعليم، داخل المجتمع الشامي عــصر الحــروب الصليبية.

٩) إبراز الدور الإجتماعي للحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية.

١٠) أن تهتم وزارات الأوقاف في بلاد الشام بالحركات الصوفية فــي هــذا العــصر لتــدعيم المفاهيم الإيجابية، ومحاربة المفاهيم التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية.


الملاحق

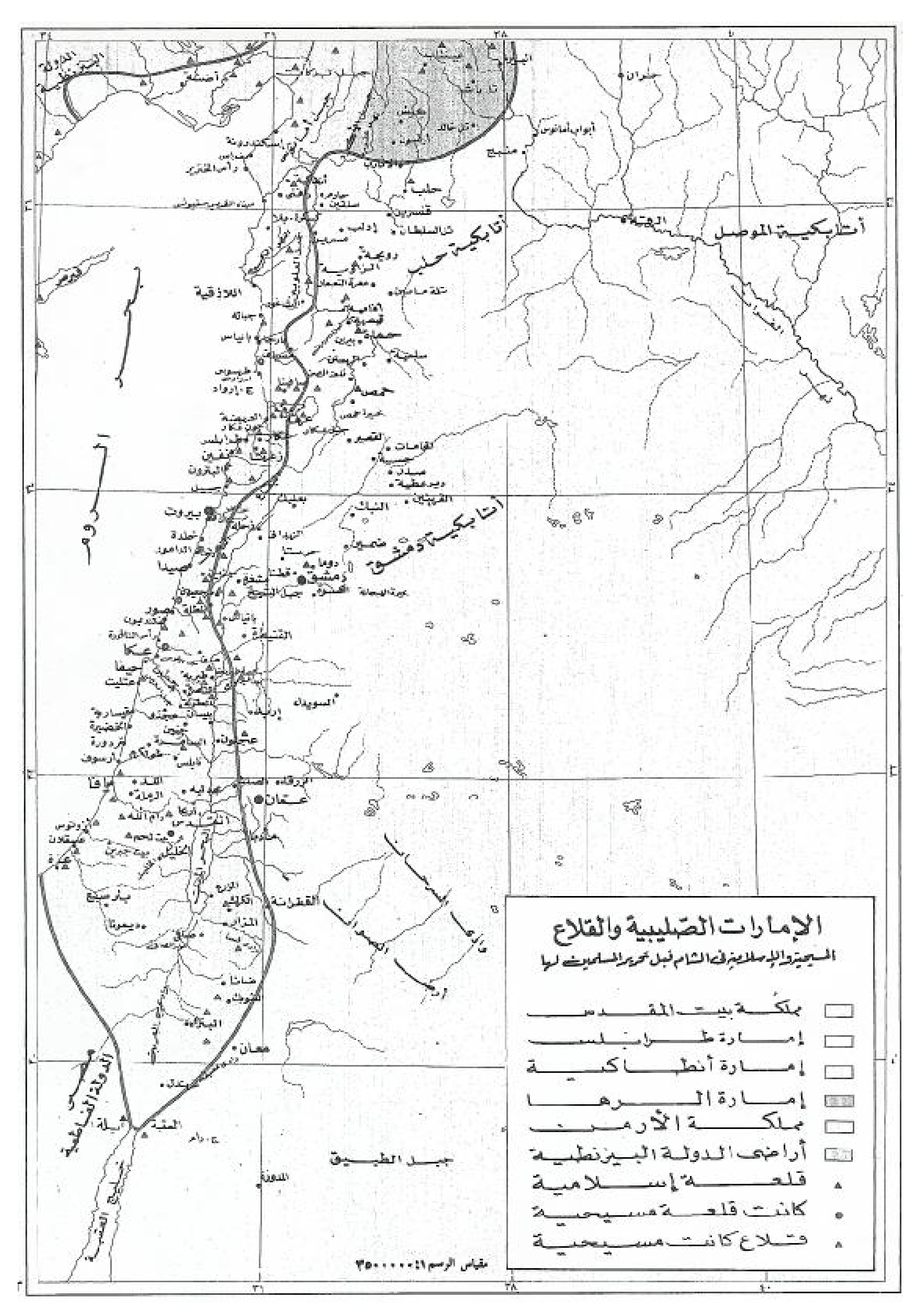
ملحق رقم (١)



بلاد الشام عصر الحروب الصليبية

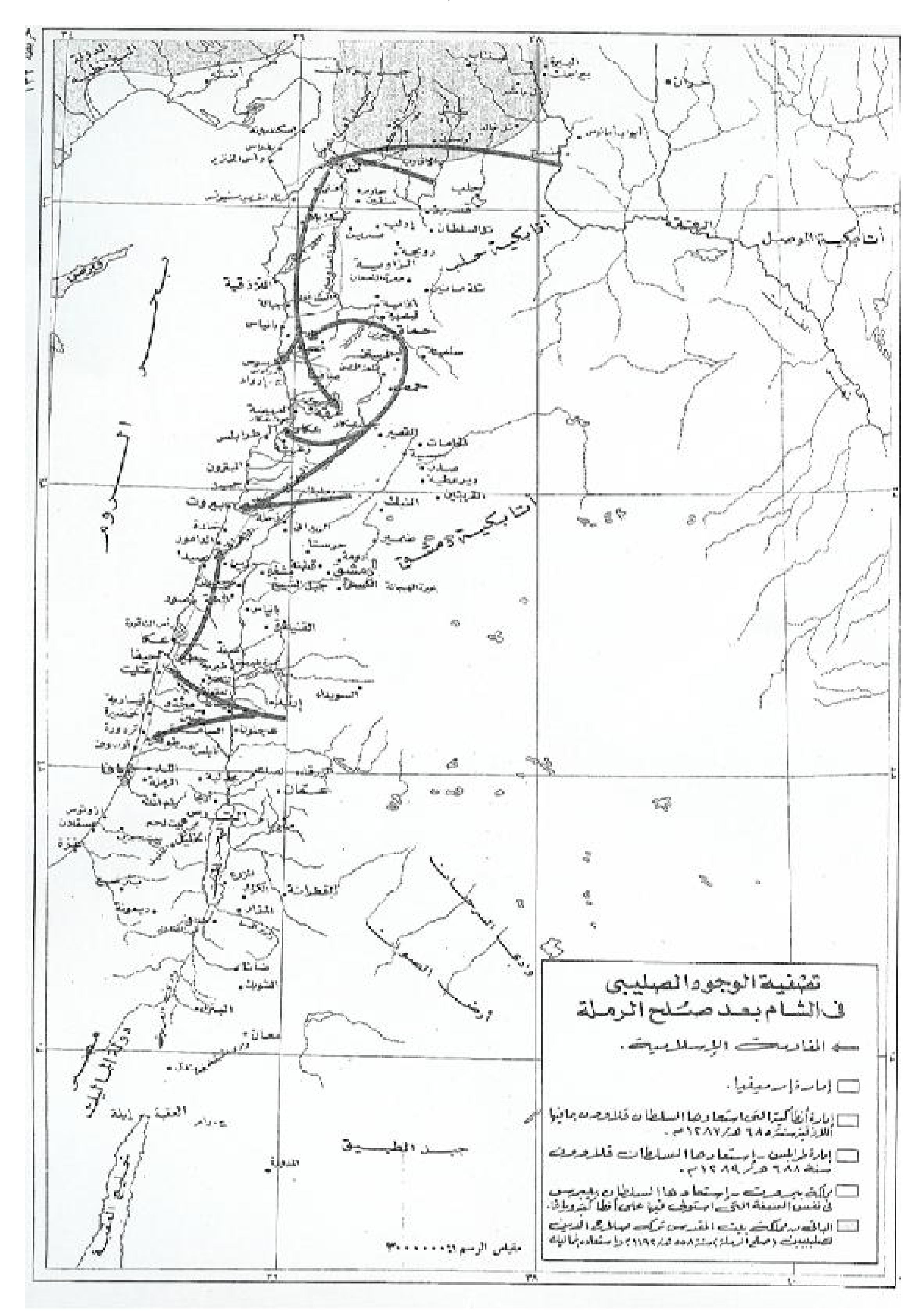
نقلاً عن ابن تغريب بردي كتاب "النجوم الزاهرة"، ج٧، ص٣٥٠.

ملحق رقم (٢)



نقلاً عن: مؤنس، حسين، "أطلس تاريخ الإسلام"، ص٢٦٣

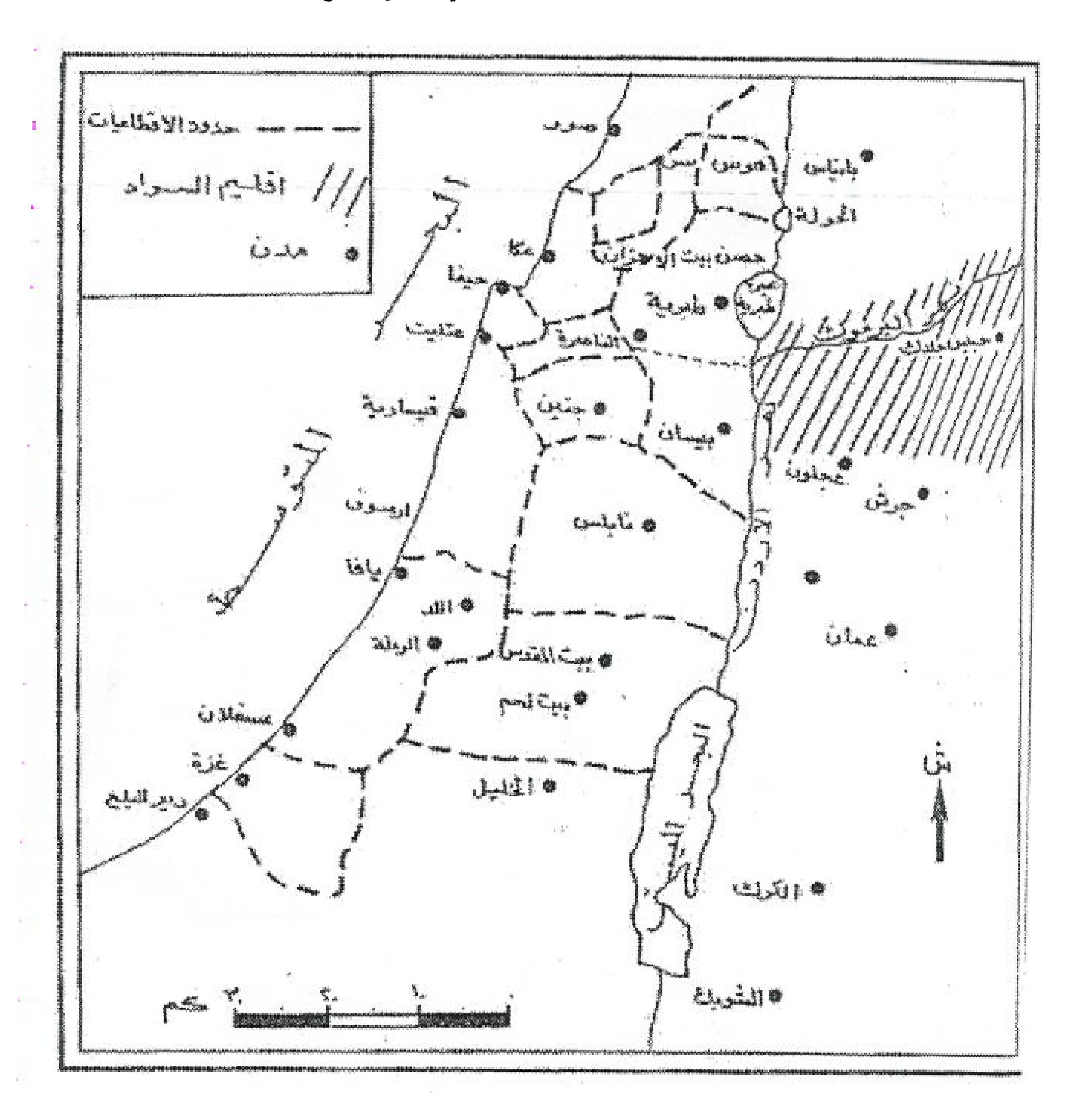
ملحق رقم (٣)



نقلاً عن: مؤنس، حسين، "أطلس تاريخ الإسلام"، ص٢٦٦

ملحق رقم (٤)

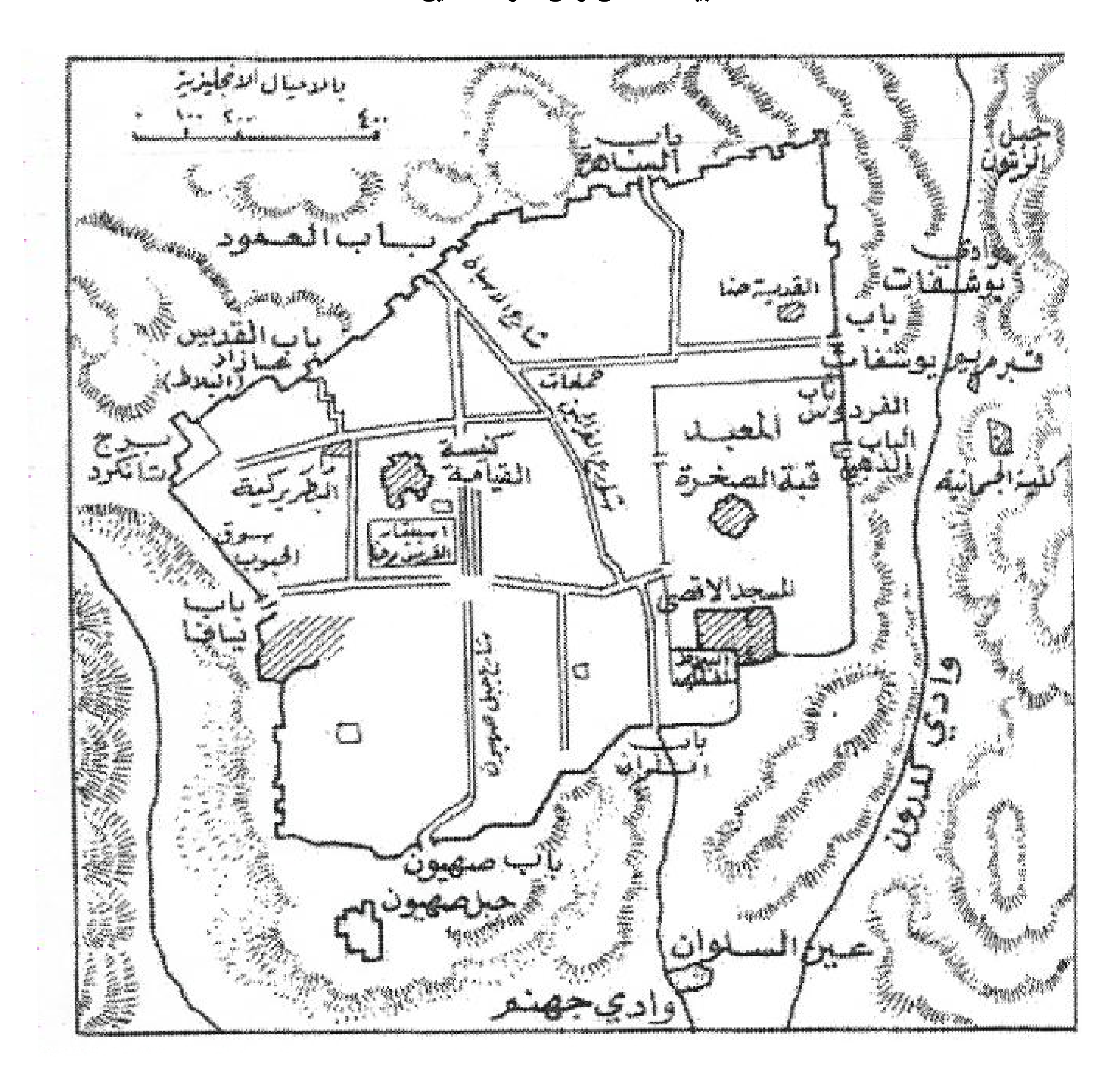
خارطة مملكة بيت المقدس الفرنجية في أقصى اتساع لها



نقلاً عن: نعيرات، أسامة محمد، "إقطاعية بيسان"، ص٢٥٧

ملحق رقم (٥)

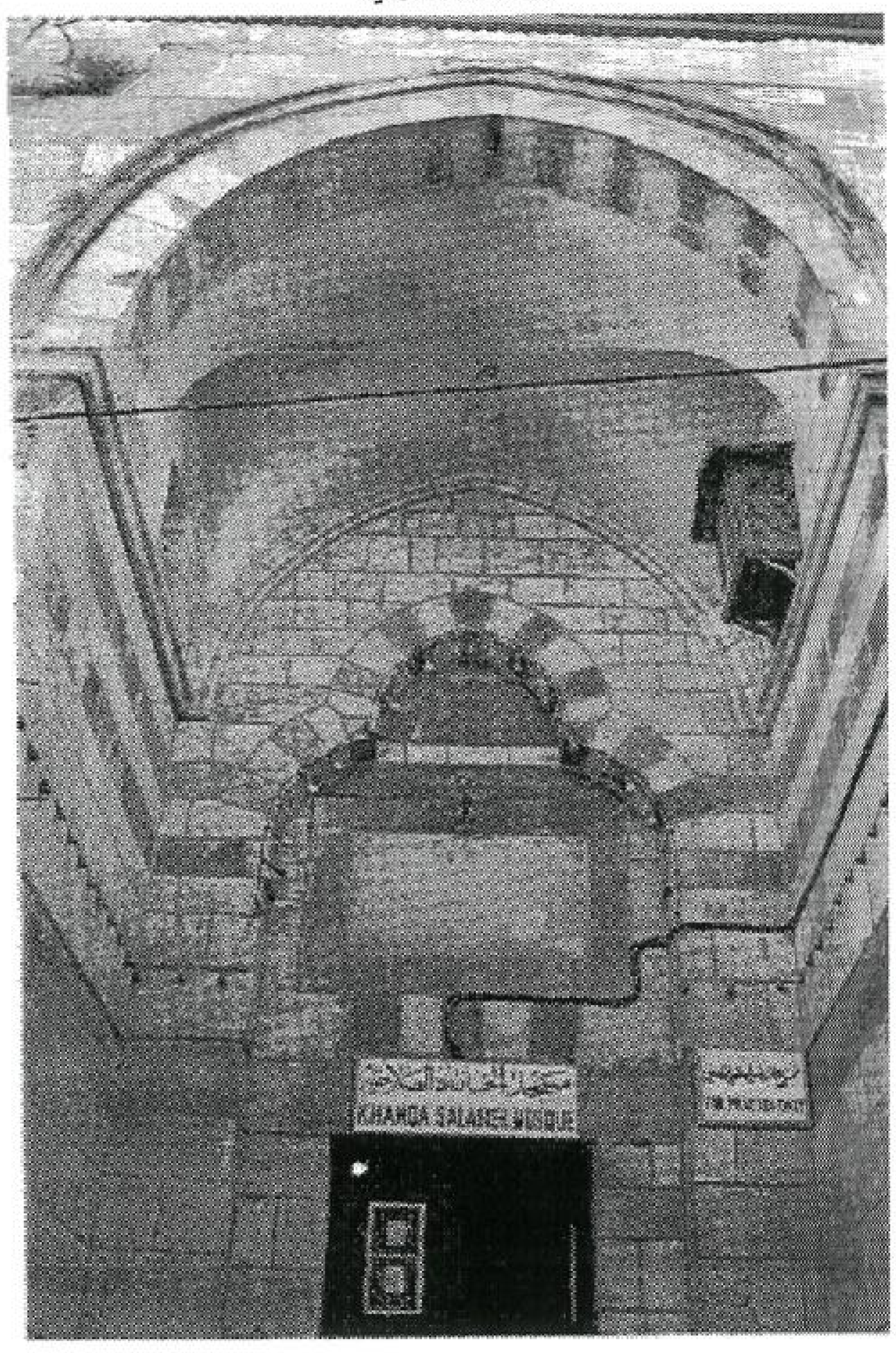
بيت المقدس زمن ملوك اللاتين



نقلاً عن: رنسيمان، ستيفن، "تاريخ الحروب الصليبية" ج٢، ق٢، ص٤٨١

ملحق رقم (٦)

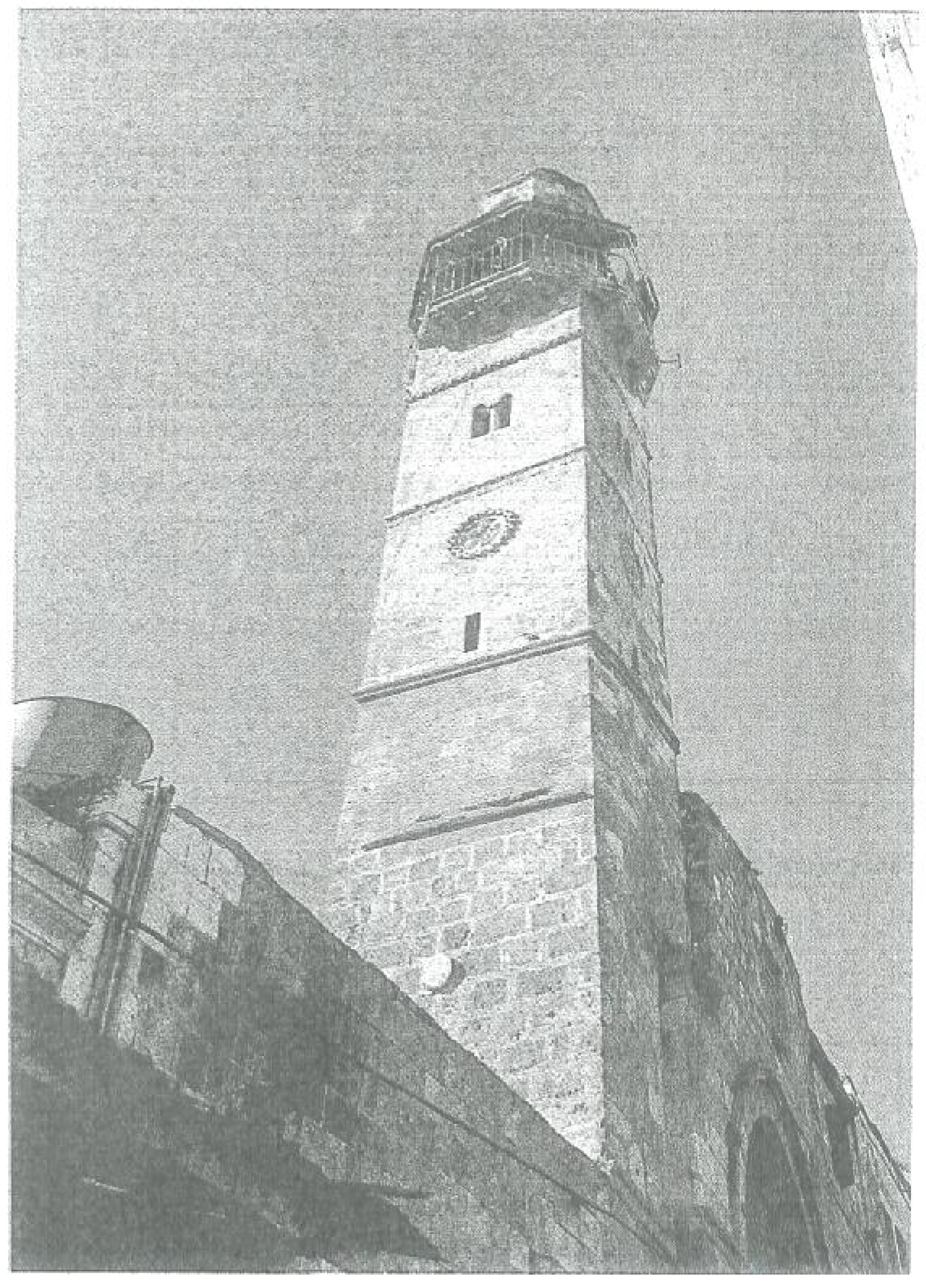
الخانقاة الصلاحية



نقلاً عن: نجم، رائف يوسف، "كنوز القدس" ص٩٧.

ملحق رقم (٧)

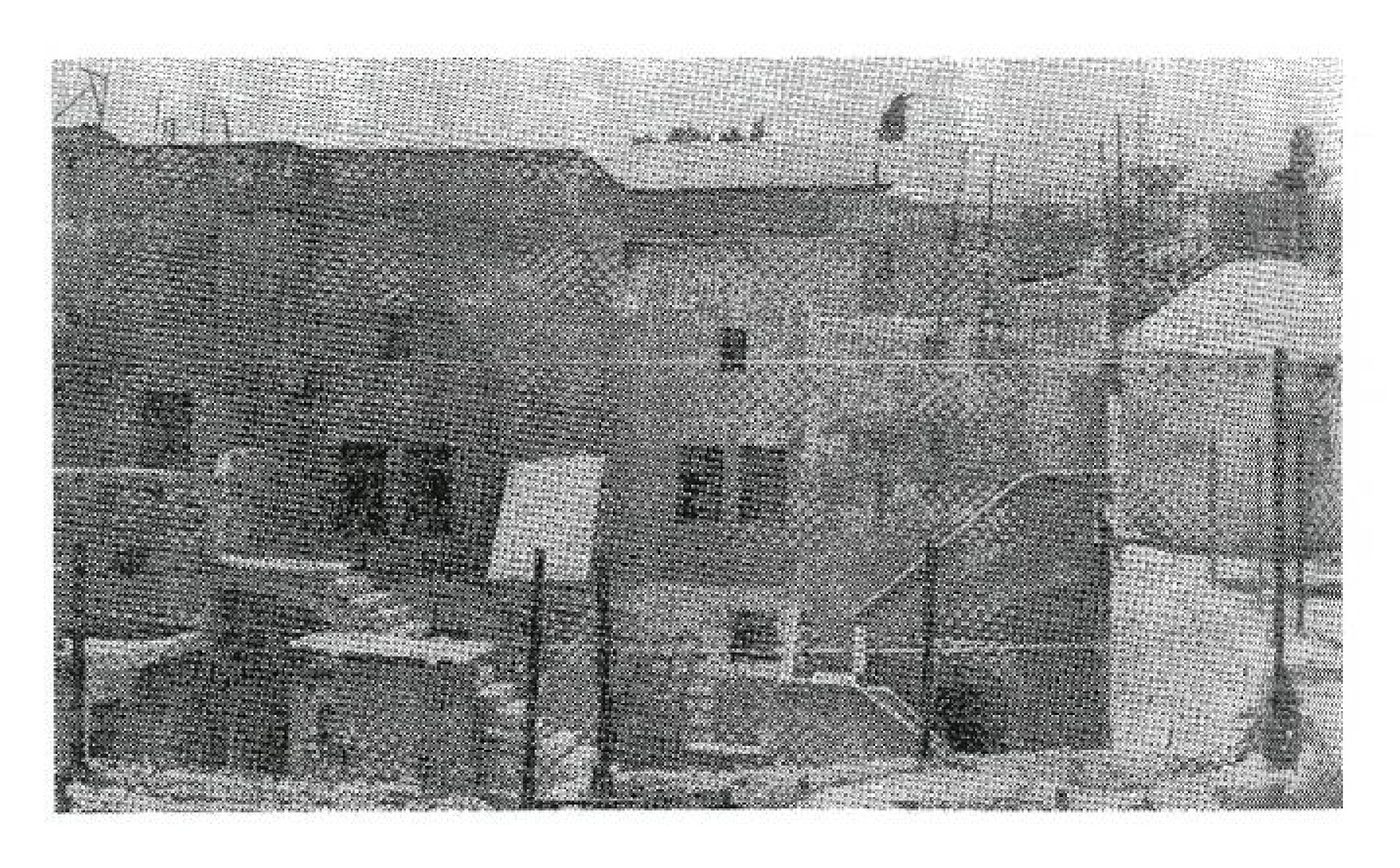
مأذنة جامع الخانقاه – الصلاحية



نقلاً عن: نجم، رائف يوسف، "كنوز القدس"، ص٣٣٣.

ملحق رقم (٨)

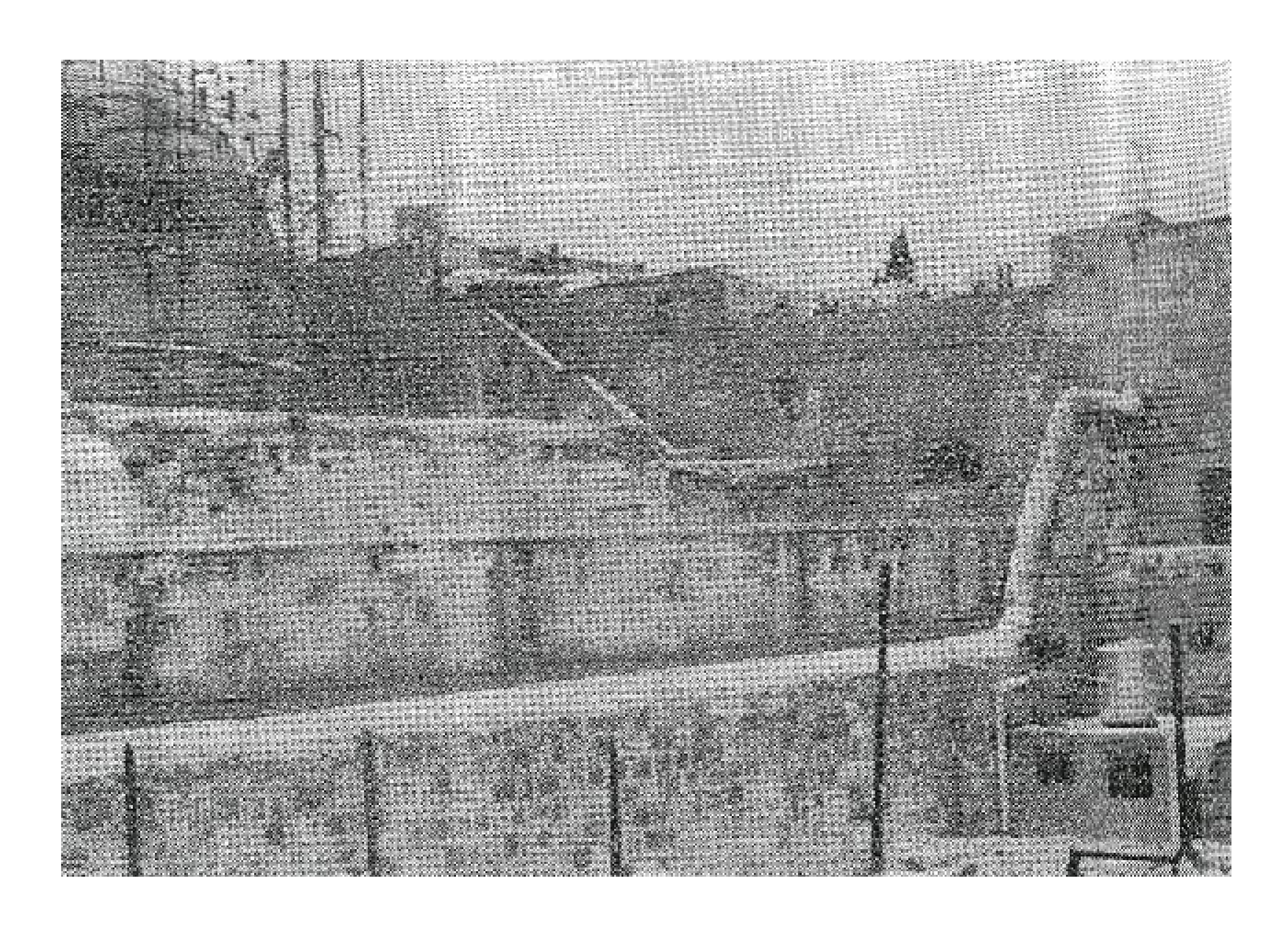
الخانقاة الصلاحية ببيت المقدس



نقلاً عن: غوانمة، يوسف درويش، "تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي".

ملحق رقم (٩)

الجدار الفاصل بين الخانقاة الصلاحية وكنيسة القيامة



نقلاً عن: غوانمة، يوسف درويش، "تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي".

ملحق رقم (١٠)

الخانقاة الصلاحية



نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٣٣٠.

ملحق رقم (١١)

المدرسة الختنية (٥٨٧هـ)



المدرسة الختنية جنوب الأقصى

الختنية مدرسة وزاوية، ويمكن أن تندرج تحت المدارس أو الزوايا، تماماً مثل الزاوية النصرية، للشبة القائم بين المدارس والزوايا.

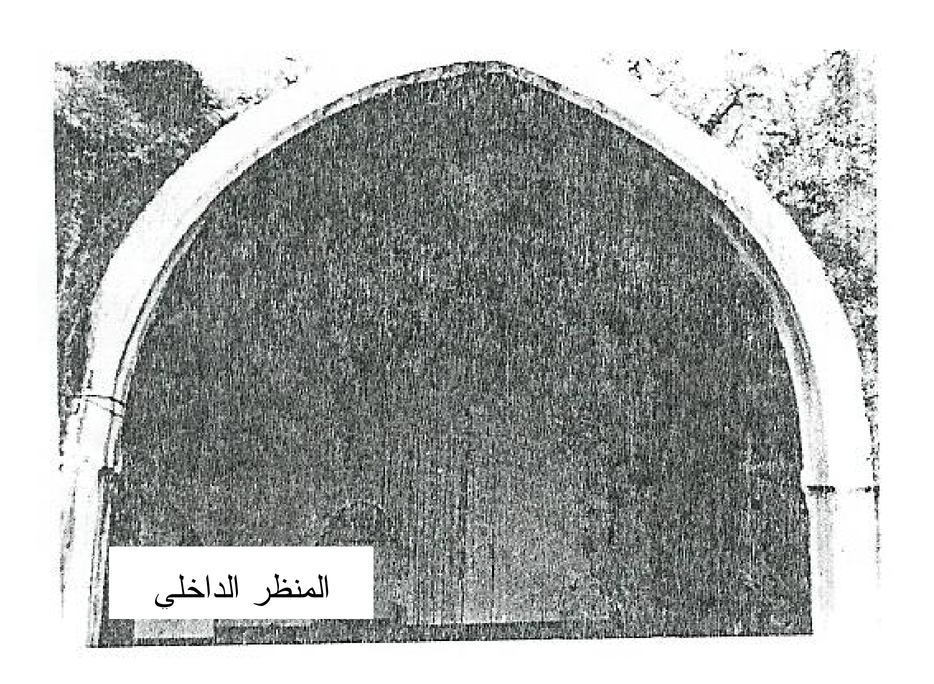
نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص١٠٠

ملحق رقم (١٢)

المدرسة الختنية (٥٨٧هــ)



المنظر الخارجي



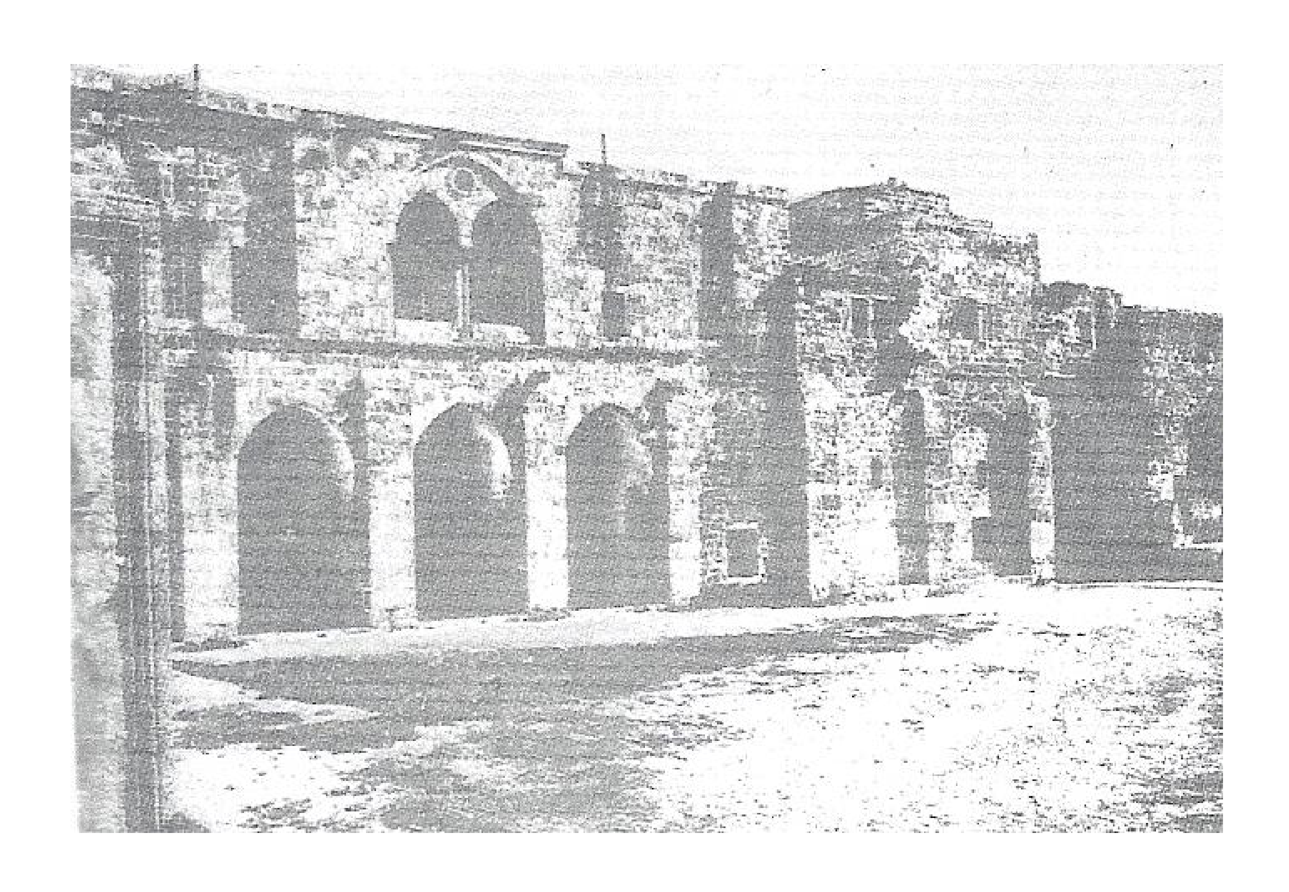
المنظر الداخلى

نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٩٨.

ملحق رقم (١٣)

المدرسة الدويدارية (٦٩٥هـ)

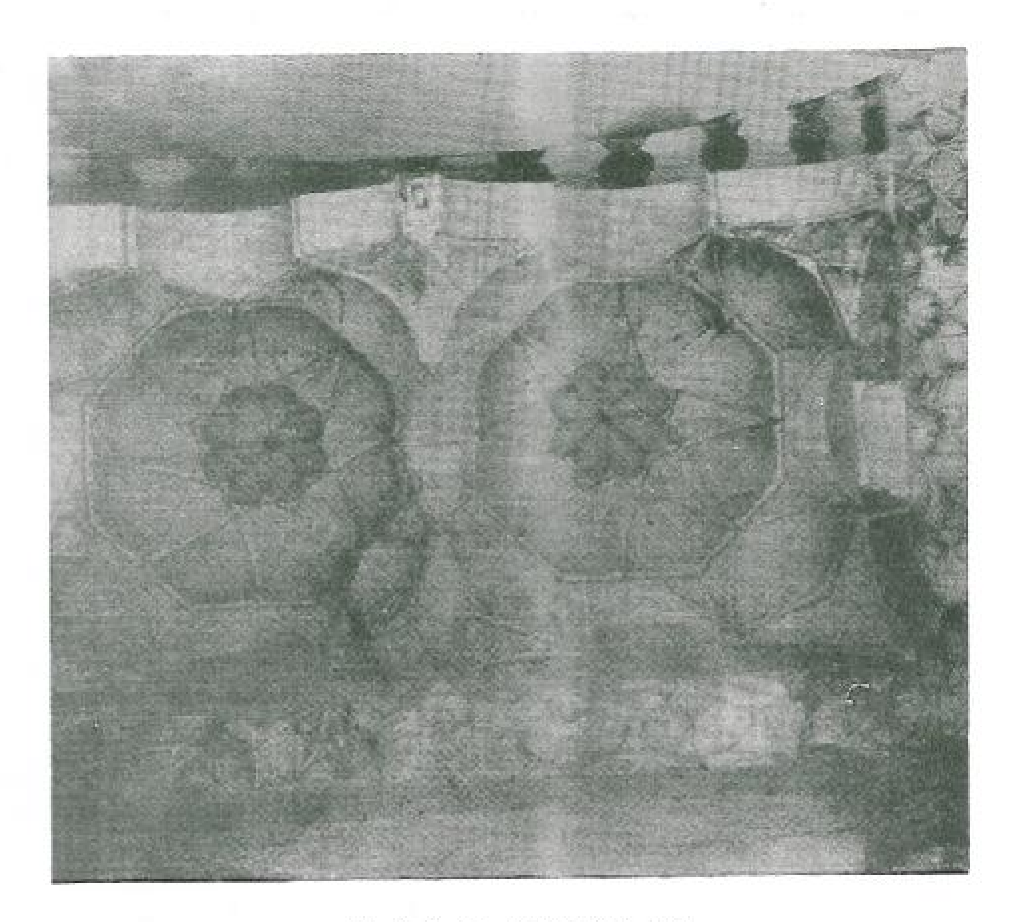
أو "الزاوية الدويدارية"



نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٢٣٨.

ملحق رقم (١٤)

زخرفـــة بوابة الخانقاه الدوادارية



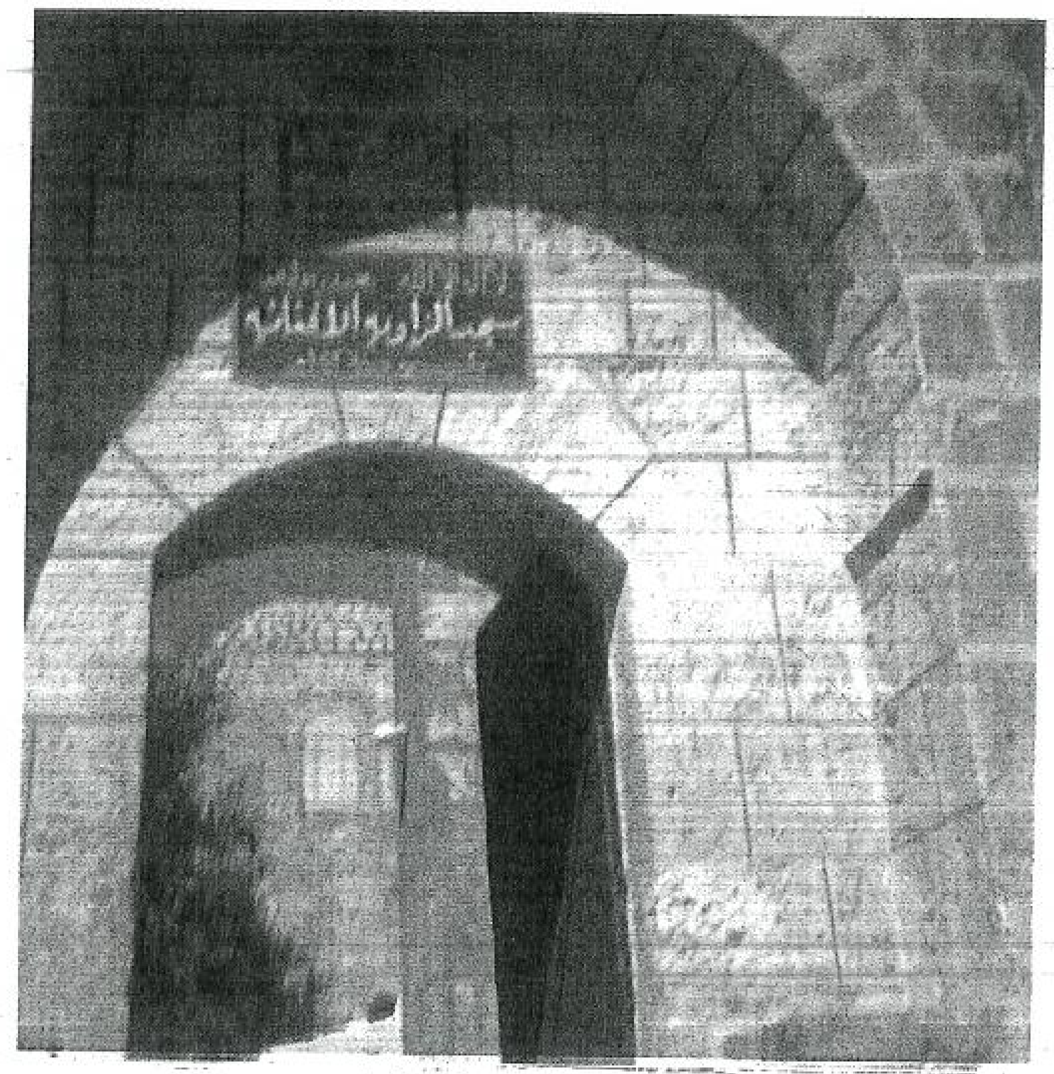
المدرسة الدوادارية ــ زخرفة البوابة ــ

«بسم الله الرحمن الرحيم • أمر بانشاء هذه الخانقاه المباركة المسماه بدار الصالحين العبد الفقير الى الله تعالى عبد الله بن عبد ربه بن عبد الباري سنجر الدواداري الصالحي ، ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية والمتصوفة من العرب والعجم ، منهم عشرون نفرا عزابا وعشرة مزوجون يقيمون بها لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء ولا ربيعا ولا خريفا الا لحاجة ، وعلى ضيافة من يرد اليها من الصوفية والمتصوفة

نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٢٤٠.

ملحق رقم (١٥)

الزاوية القادرية (زاوية الأفغان)



الزاوية القادرية (زاوية الافغان)

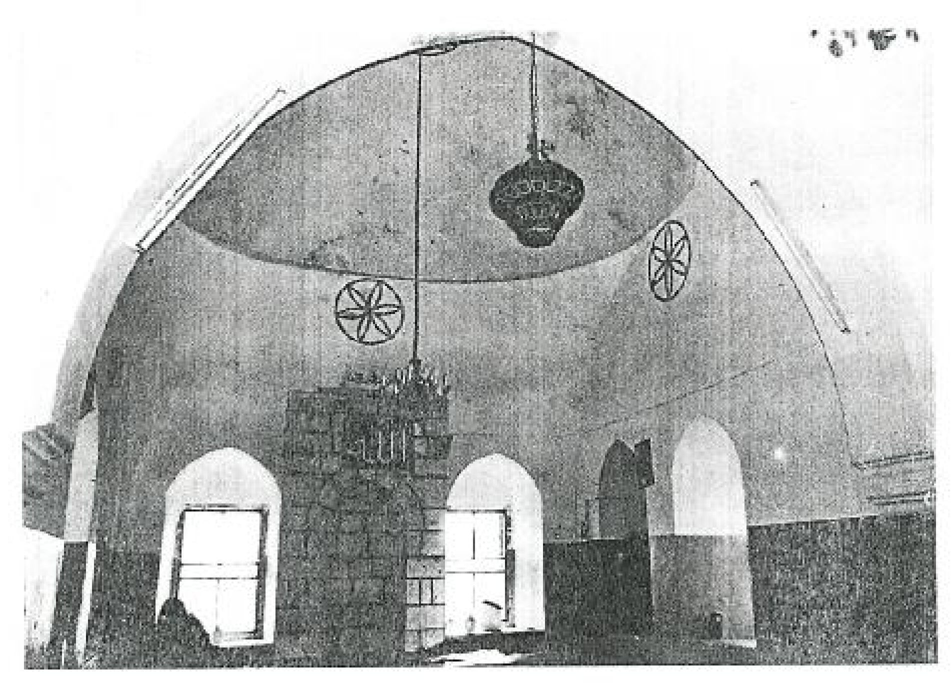
اتباع الطريقة القادرية التي اسسها عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ ـ ٥٦١هـ) . ويدلنا النقش الكائن على باب الزاوية على تاريخ انشائها وهو سنة ١٠٤٣ وهذا هو نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه زاوية مولانا وسيدنا قطب العارفين وسلطان الاولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره العزيز . سنة ١٠٤٣ » .

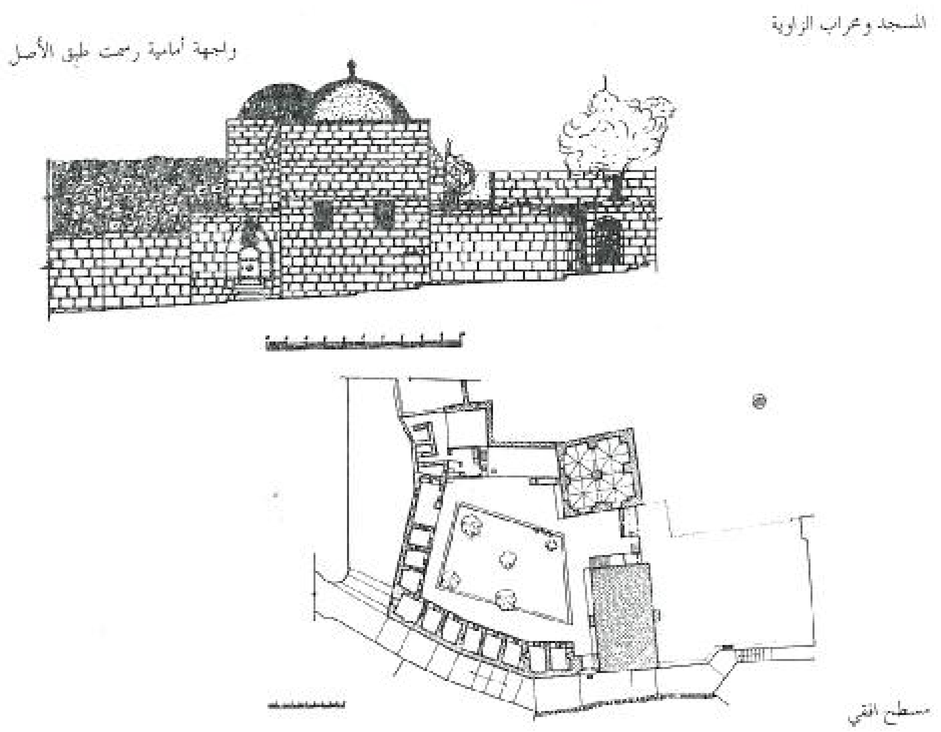
نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٣٦٣.

ملحق رقم (١٦)

الزاوية الأفغانية



المسجد ومحراب الزاوية



واجهة أمامية رسمت طبق الأصل

مسطح أفقي

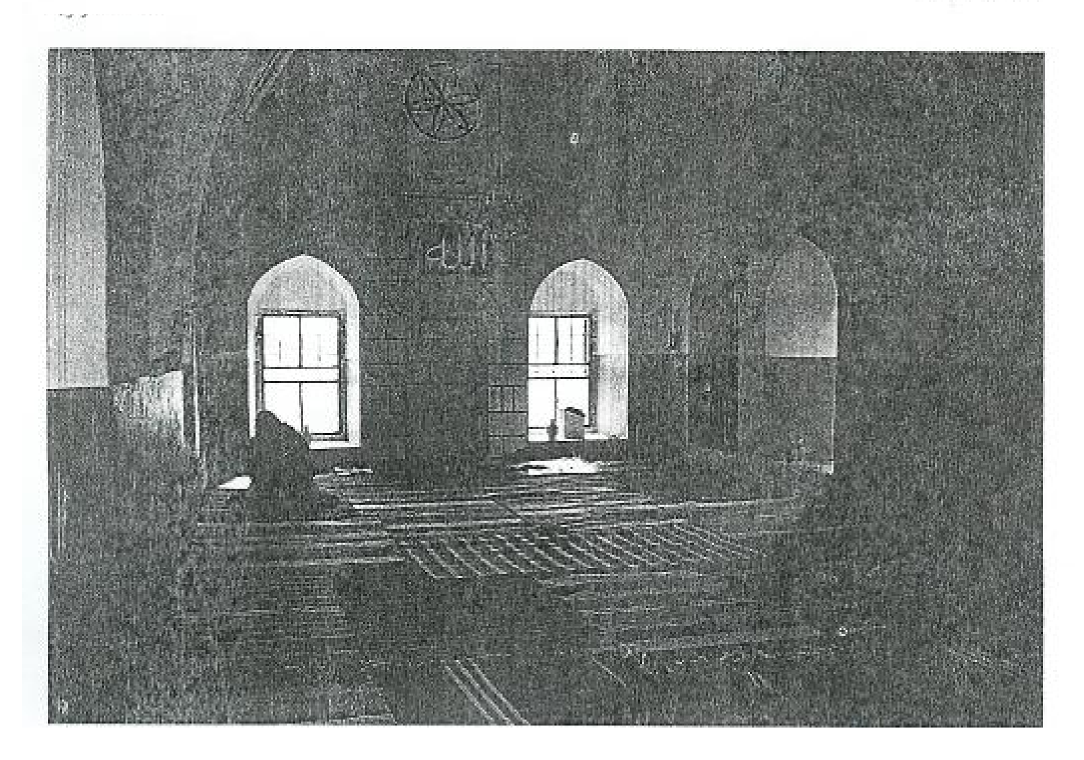
نقلاً عن: نجم، رائف يوسف، "كنوز القدس" ص٣٧٤.

ملحق رقم (١٧)

المدرسة أو الزاوية الأفغانية



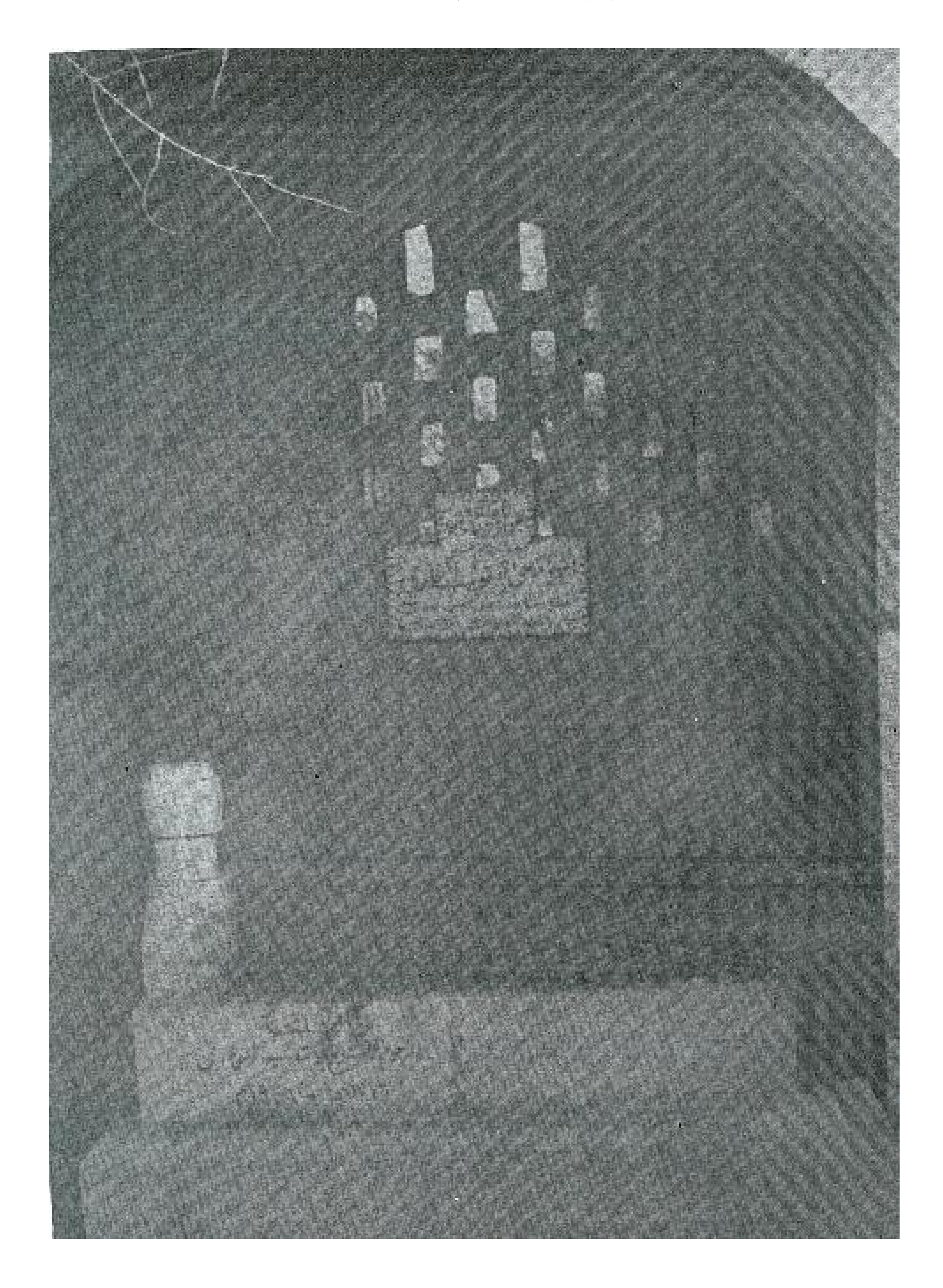
الزاوية من الداخل



نقلاً عن: نجم، رائف يوسف، "كنوز القدس" ص٣٧٣.

ملحق رقم (١٨)

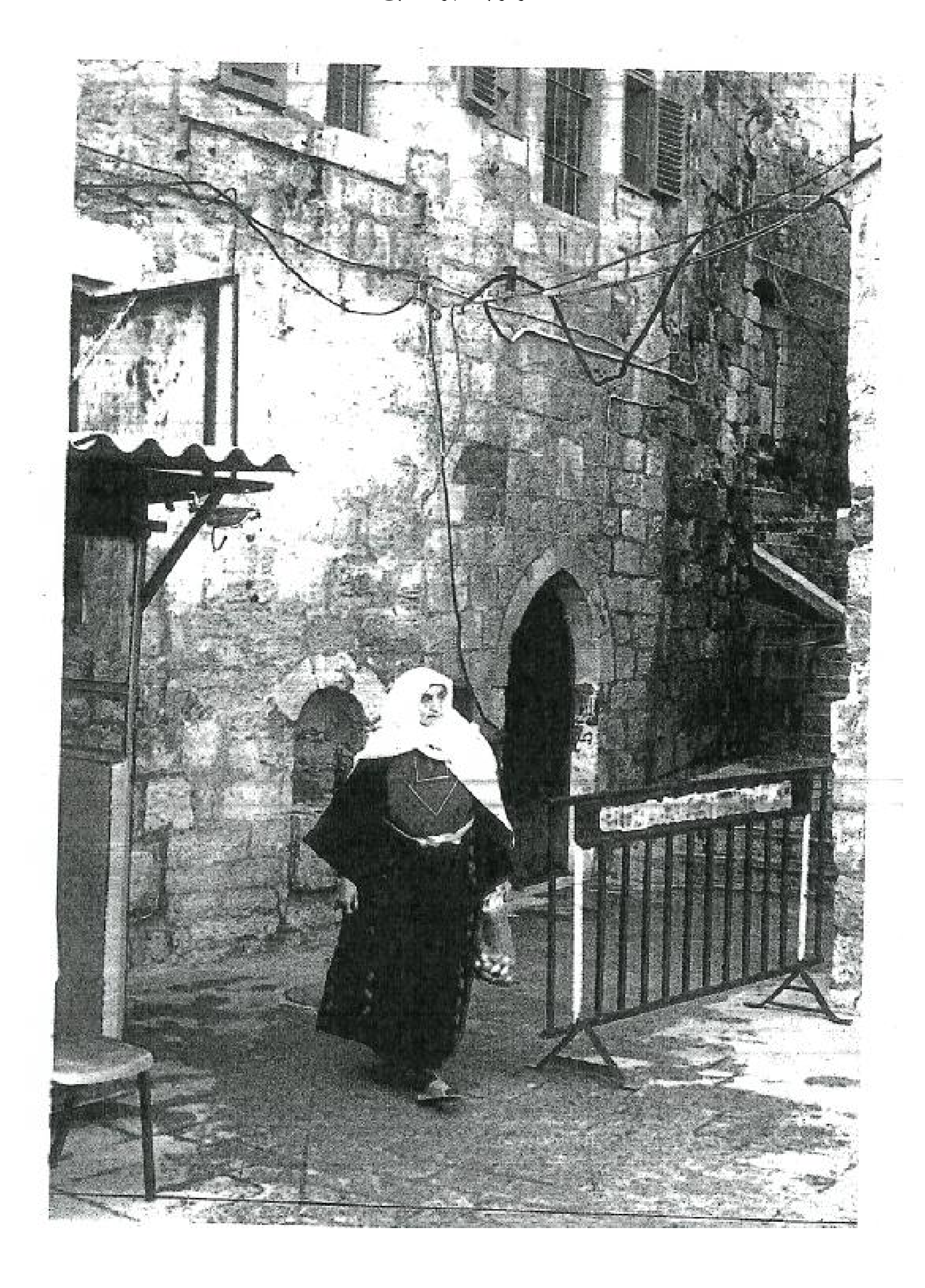
الزاوية النقشبندية – من الداخل



نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٣٥٤.

ملحق رقم (١٩)

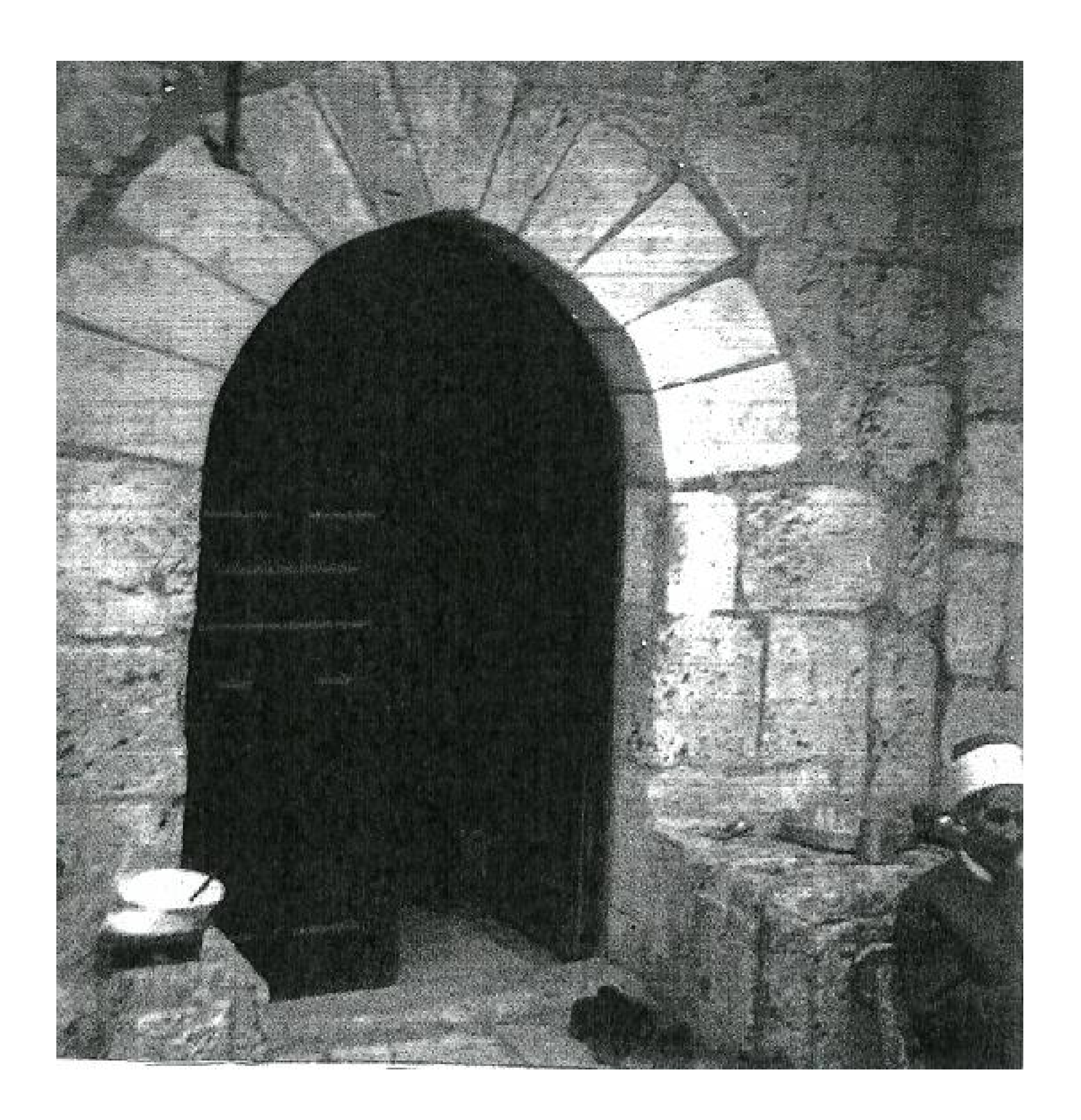
زاوية أبو مدين



نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٣٤٩.

ملحق رقم (٢٠)

زاوية البسطامية

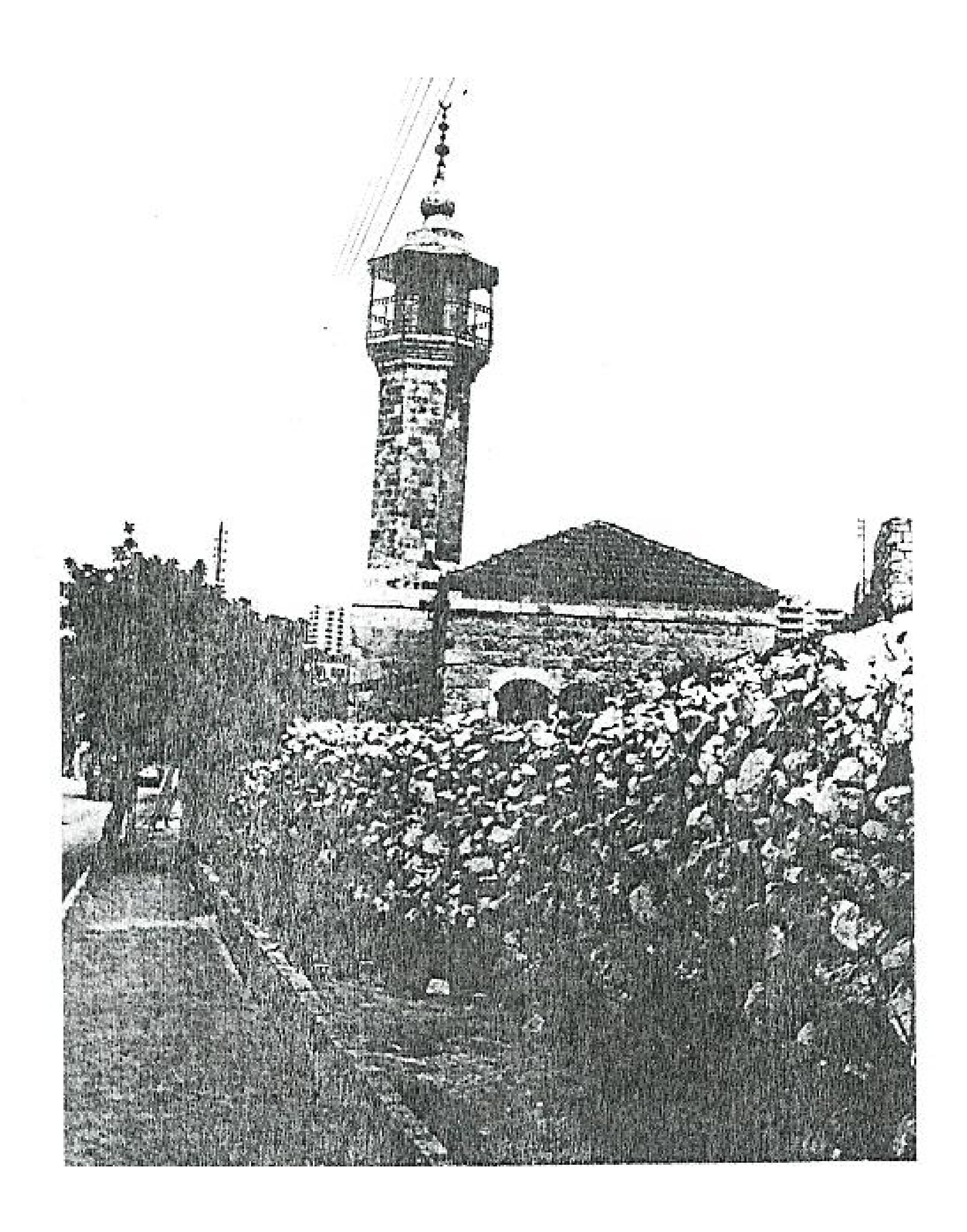


تقع هذه الزاوية في ساحة الحرم من جهة الشرق، أي تحت صحن الصخرة.

نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٣٦٥.

ملحق رقم (٢١)

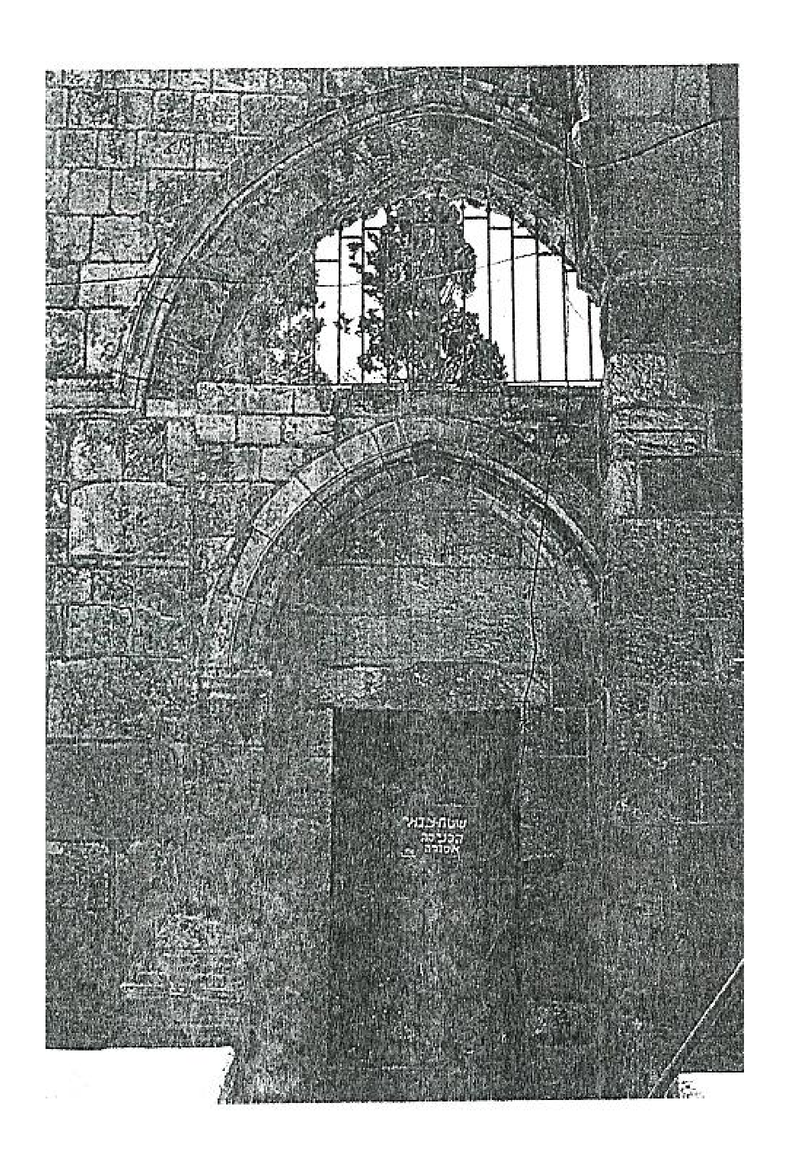
الزاوية الجراحية



نقلاً عن: نجم، رائف، يوسف، كنوز القدس، ص١٠٥.

ملحق رقم (٢٢)

الخانقاه الفخرية

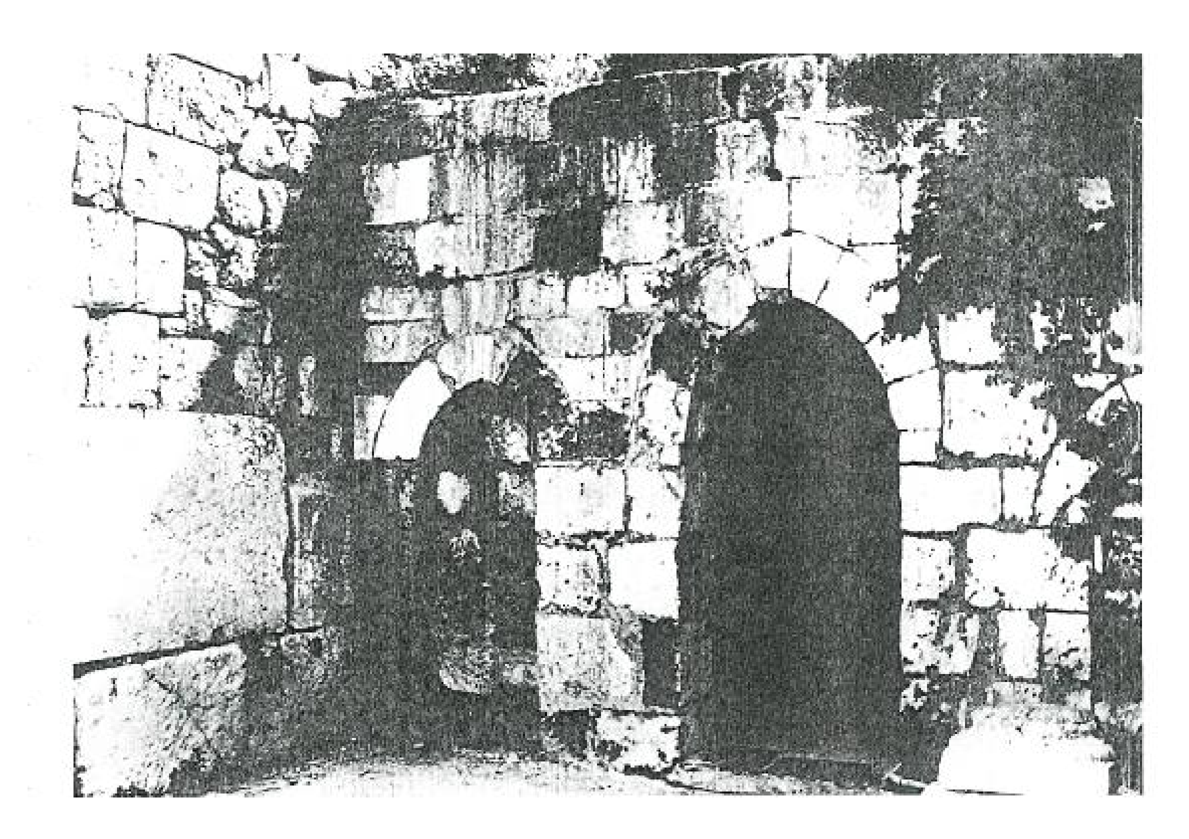


واجهة الخانقاه الفخرية

نقلاً عن: نجم، رائف، يوسف، كنوز القدس، ص١٩١.

ملحق رقم (٢٣)

رباط الكرد

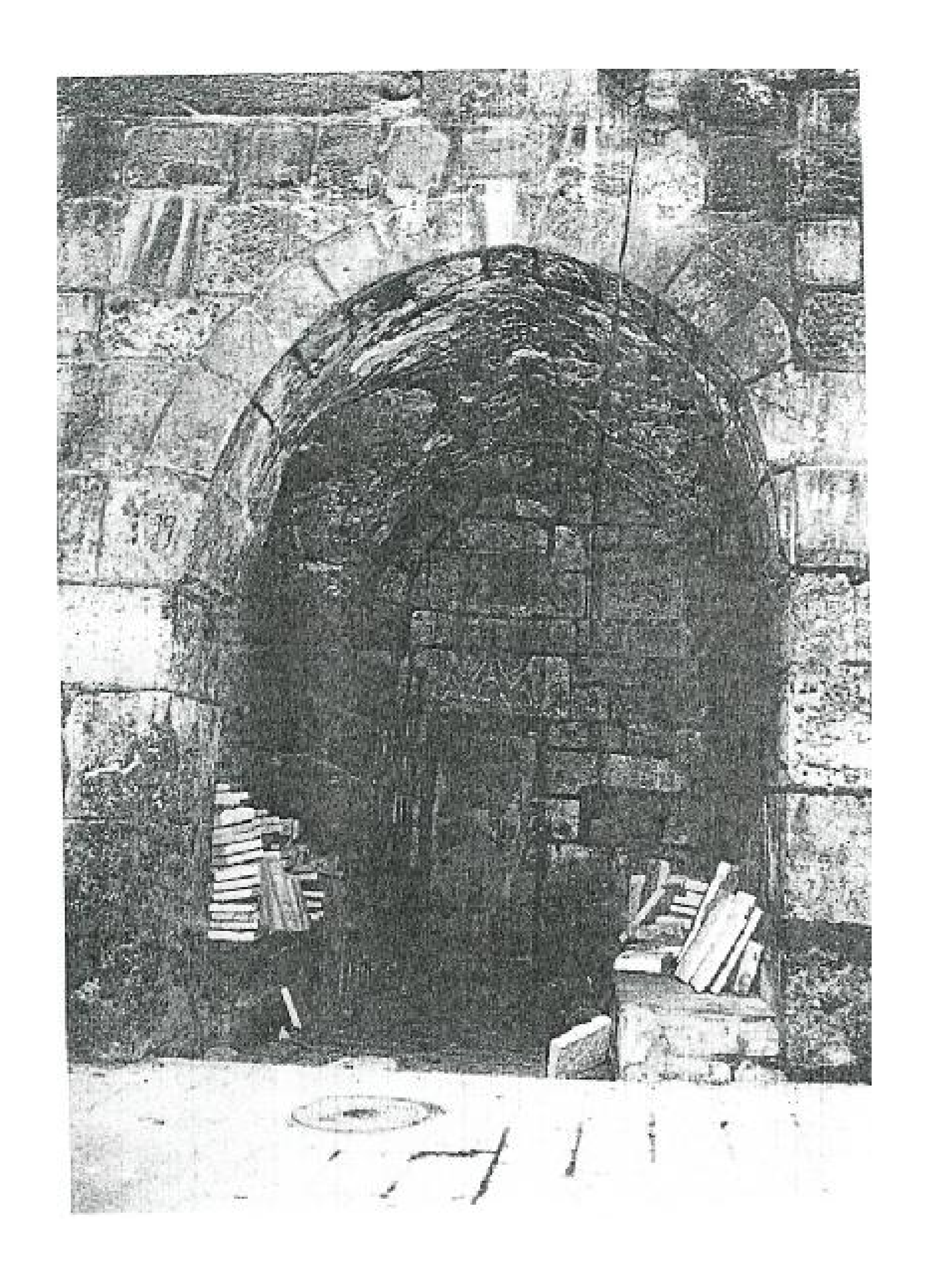


الرباط من الداخل

نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٣٢١.

ملحق رقم (٢٤)

رباط علاء الدين البصير

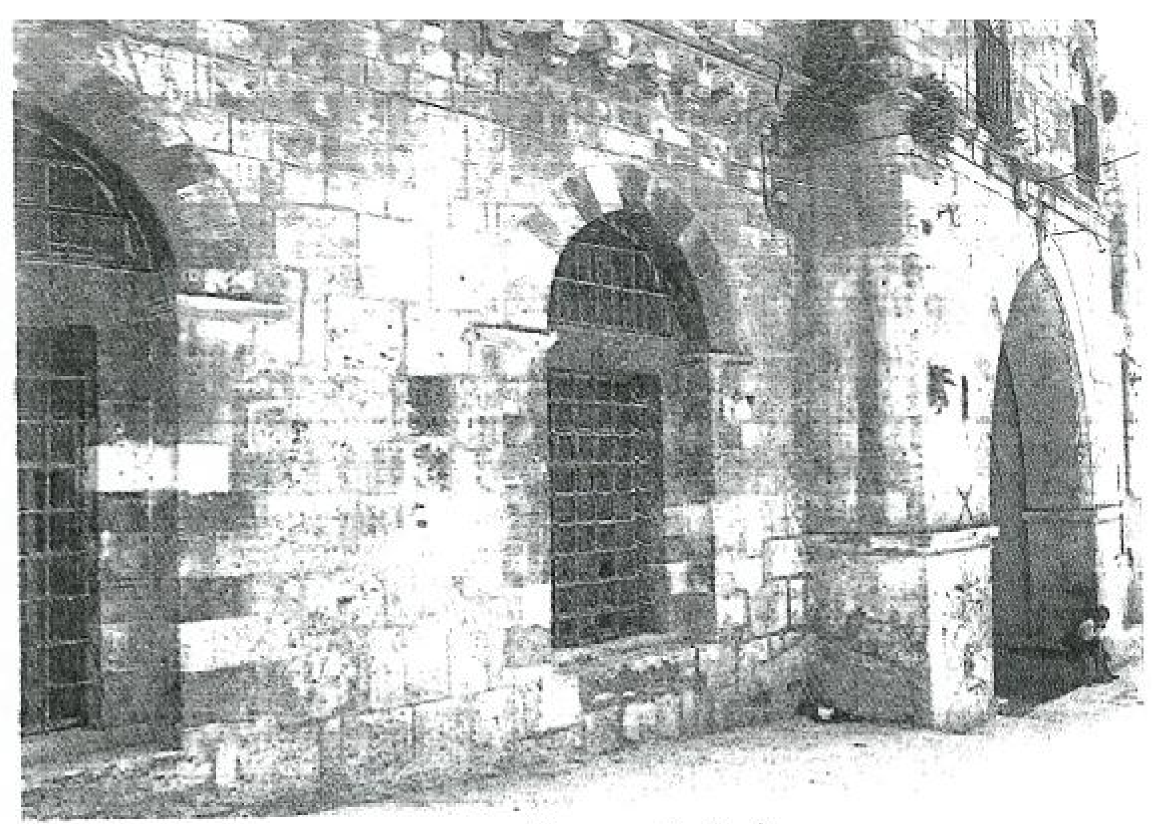


أنشأه الأمير علاء الدين آيدغدي المعروف بالبصير، سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م.

نقلاً عن: نجم، رائف يوسف، "كنوز القدس" ص١٤٣.

ملحق رقم (٢٥)

الرباط المنصوري



الرباط المنصوري (قلاوون)

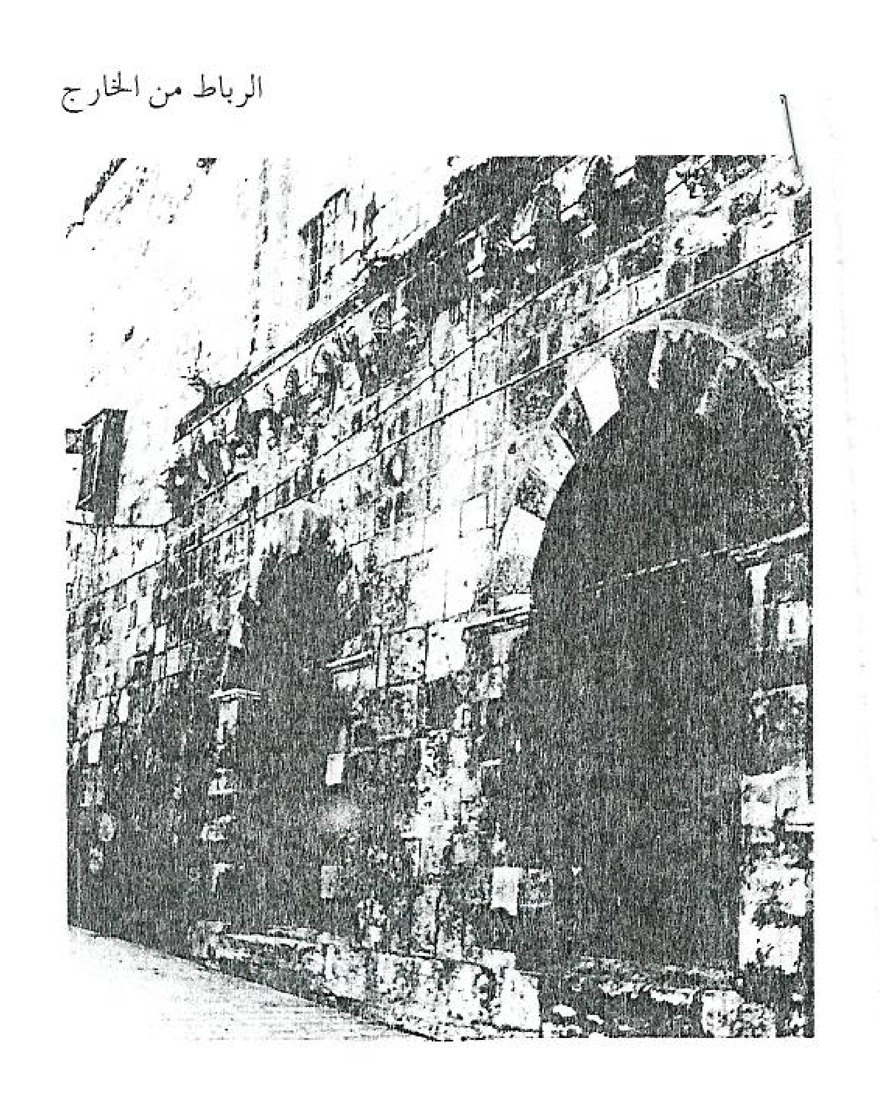
الرباط المنصوري من المؤسسات السلطانية القليلة التي بنيت خارج الحرم ، لان السلاطين كانوا يقيمون منشئاتهم داخل الحرم نفسه • وقد اشرف على بنائه علاء الدين ايدغدى بعد بناء رباطه المشار اليه اعلاه • هناك على باب الرباط نقش هذا نصه :

« بسملة • الحمد لله عم بفضله كل شيء • وصلى الله على سيدنا محمد وآله • أمر بعمارة هذا الرباط ووقفه على الفقراء وزوار القدس الشريف مولانا السلطان الملك المنصور أبو الملك سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي • أدام الله ايامه وتقبل منه سنة احد وثمانين وستماية » •

نقلاً عن: العسلي، كامل، "معاهد العلم في بيت المقدس" ص٣١٨.

ملحق رقم (٢٦)

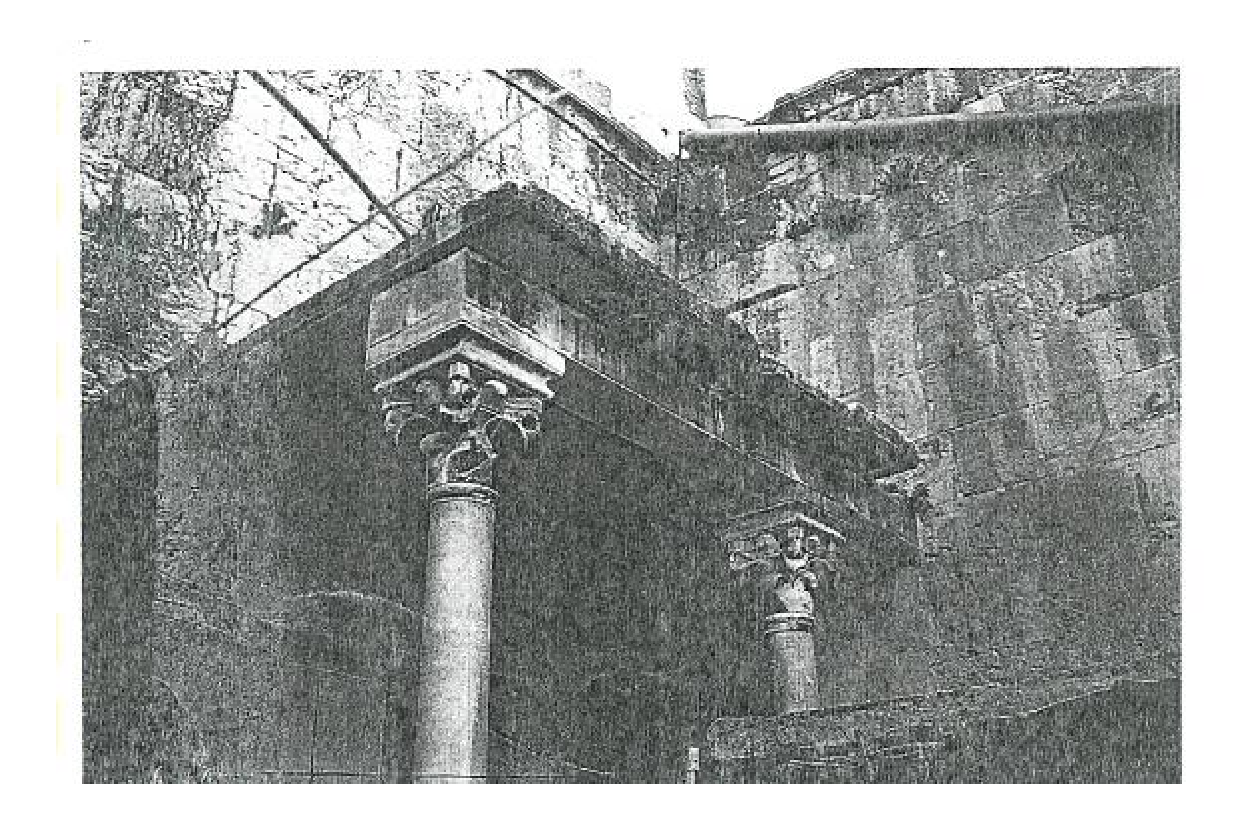
الرباط المنصوري


الرباط من الخارج

نقلاً عن: نجم، رائف، يوسف، كنوز القدس، ص١٤٨.

ملحق رقم (٢٧)

التربة الأوحدية



أنشأها الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن ناصر داوود، سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م، وكانت هذه التربة تستخدم كمدرسة ورباط

نقلاً عن: نجم، رائف، يوسف، كنوز القدس، ص١٥٩.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية.

ثانيـــاً : المصادر والمراجع الأجنبيـــة.

ثالثـــاً : المراجـــع العربيـــة.

رابعـــاً : المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة.

خامساً : قائمة الموسوعات.

سادساً : الرسائل الجامعية.

سابعاً : الدوريات العربية.

قائـــــمة المصادر والمراجع

المصادر العربية:

١. **القرآن الكريم.**

٢. **ابن الأثير،** أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت، ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

- الكامل في التاريخ، ١١ جزء، تحقيق، أبي الفداء عبد الله القاضي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق، عبد القادر طليمات، (القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٣٢٧هـ/١٣٢٧م).

٣. **الإدريسي،** أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت، ٥٦٠هـ/١١٦٤م).

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٤. **الأزهري،** أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/ ٩٨٠م).

- تهذيب اللغة، ١٢ جزء، تحقيق، احمد البردويني، (مصر، الدار المصرية للتأليف).

٥. **الأسنوي،** جمال الدين عبد الرحيم (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م).

- طبقات الشافعية، جزءان، تحقيق، كمال يوسف الحوت، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦. **الأشعري،** أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م).

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، عني بتصحيحه هلموت ريتر (ألمانيا، فرانز شتايز، للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

٧. **الاصطخري،** إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (ت، ٣٥٠هـ/٩٦١م).

- المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر عبد العال الجيني، (مصر، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٨١هـ/١٩٦١م).

٨. **الأصفهاني،** أبو فرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت، ٣٥٦هـ/١٢٦٠م).

- "الأغاني"، ٢٧ جزء، شرحه وكتب هوامشه، عبد مهنا، سمير جابر،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٩. **الأصفهاني،** أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت، ٤٣٠هـ/١٣٦٨م).

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ أجزاء، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٦/١٩٩٦م).

١٠. **ابن أعثم**، أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م).
- الفتوح، ٣ أجزاء، تحقيق، سهيل زكار،(بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٢/١٩٩١م).

١١. **الأموي**، عماد الدين الأموي.
- حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب، (القاهرة، مطبعة الأنوار المحمدية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

١٢. **الأنصاري**، زكريا بن محمد بن الأنصاري (ت، ٢٩٦هـ/١٥١٩م).
- نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية في التصوف"، ٤ مجلدات، ضبطه وصححه، الشيخ عبد الوارث محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٣. **الباخرزي**، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب (ت، ٤٦٧هـ/١٠٧٤م).
- دمية القصر وعُصرة أهل القصر، ٣ أجزاء، تحقيق، محمد التونجي،(بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

١٤. **البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة (ت، ٢٥٦هـ/٨٦٩م).
- صحيح البخاري" ضبط النص، محمود محمد حسن نصار، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

١٥. **البرعي**، عبد الرحيم (من علماء القرن السادس الهجري).
- ديوان البرعي في المدائح الربانية والنبوية والصوفية، شرحه وضبطه: حافظ المسعودي، (مصر، مكتبة ومطبعة، مصطفى البابي، ط٢، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م).

١٦. **ابن بطوطة**، محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م).
- رحلة ابن بطوطة، المسماة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه، طلال حرب، (بيروت، دار الكتب العلمية).

١٧. **البغدادي**، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب (ت، ٤٦٣هـ/١٠٧٠م).
- أصول الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

١٨. **البغدادي**، إسماعيل بن محمد بن سليم البابانى (ت، ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م).
- هدية العارفين، أسماء المؤلفين، وآثار المضفين، من كشف الظنون، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣، ١٩٩٢م).
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزءان،(بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هت/١٩٩٢م).

١٩. **البغدادي، الإسفراييني**، صدر الإسلام عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت، ٤٢٩هـ/١٠٣٧م).

- الفرق بين الفرق، تحقيق، محمد عبد الحميد، (بيروت، دالة المعرفة).

٢٠. **البغدادي**، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، (ت، ٧٣٩هـ/١٣٣٨م).

- "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، ٤ مجلدات، تحقيق، علي محمد البيجاوي، (بيروت، دار المعرفة للطباعة، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م).

٢١. **البلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢).

- جمل من أنساب الأشراف، تحقيق، سهيل زكار، رياض زركلي،(بيروت، دار الفكر).

٢٢. **البلخي**، أبو زيد أحمد بن سهل (ت، ٣٢٢هـ/٩٣٣م).

- البدء والتاريخ، جزءان، وضع حواشيه، خليل عمران المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٢٣. **البنداري**، الفتح بن علي، من مؤرخي القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

- سنا البرق الشامي، تحقيق، فتحية البنداوي،(القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م).

٢٤. **البيهقي**، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت، ٤٥٨هـ/١٠٦٥).

- كتاب السنن الكبرى، ١٠ أجزاء، (بيروت، دار المعرفة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٢٥. **ابن تغري بردي**، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت، ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، علق عليه، محمد شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٢٦. **ابن تميم المقدسي**، شهاب الدين أبو محمود (ت، ٧٦٥هـ/١٣٦٣م).

- "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام"، تحقيق، أحمد الخطيمي،(بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٢٧. **ابن تيمية**، تقي الدين أحمد الحراني (ت، ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م).

- مجموعة الفتاوى، ٣٧ جزء، اعتنى بها، عامر الجزار، أنور الباز،(المنصورة، الوفاء للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- التصوف والصوفية، تحقيق، محمد طاهر الزين، (مصر، مكتبة السندس، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

٢٨. **الثعالبي**، أبو منصور عبد الملك النيسابوري (ت، ٤٢٩هـ/١٠٣٧م).

- تيمية الدهر في محاسن أهل العصر، ٥ أجزاء، تحقيق، مفيد قميحة،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٢٩. **ابن جبير**، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت، ٦١٤هـ/١٢١٧م).

- رحلة ابن جبير، وهي المعروفة، باسم، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، وضع حواشيه وعلق عليه، إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٣٠. **ابن الجوزي**، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت،٥٩٥هـ/١٢٠٠م).

- المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ١٣ جزء، تحقيق، سهيل زكار،(بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- تلبيس إبليس، (دار إحياء الكتب العربية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).
- صفة الصفوة، ٤ أجزاء، تحقيق، أيمن شعبان، (القاهرة، المكتبة التوفيقية).
- الأريج في المواعظ والتواريخ، تحقيق، أيمن عبد الجابر البحيري، (القاهرة، دار البيان العربى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

٣١. **ابن الجوزية**، ابن قيم أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت، ٧٥١هـ/١٣٥٠م).

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ٣ أجزاء،(القاهرة، دار الحديث).

٣٢. **الجوهري**، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت، ٤٠٠هـ/١٠٠٩م).

- الصحاح، المسمى، تاج اللغة وصحاح العربية، جزءان، تحقيق، شهاب الدين أبو عمرة، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٣٣. **الجيلاني**، عبد القادر بن موسى بن عبد الله (ت، ٥٦١هـ/١١٦٥م).

- الغنية لطالبي طريق الحق، أعد فهارسها، رياض عبد الهادي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١).

٣٤. **حاجي خليفة**، مصطفى بن عبد الله (ت، ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م).

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزءان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٣٥. **ابن حجر**، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م).

- لسان الميزان، ٧ أجزاء، تحقيق، عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، (بيروت ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٦م).
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، ضبطه، عبد الوارث محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هت/١٩٩٦م).
- تهذيب التهذيب، ١٠ أجزاء، ضبطه وراجعه، صدقي العطار، (بيروت ،دار الفكر، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

- تقريب التهذيب، جزءان، ضبطه وحققه صدقي العطار، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- الإصابة في تمييز الصحابة، ٨ أجزاء، ضبطه، علي البجاوي، (مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر).
- فتح الباري، بشرح صحيح الإمام البخاري، ١٣ جزء، تحقيق، عبد العزيز بن باز، (الرياض، مكتبة الرياض الحديثة).
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، تحقيق، عبد الوارث محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٣٦. **ابن أبي حديد،** عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المدائني (ت،٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

- شرح نهج البلاغة، ١٠ أجزاء، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، (طهران، مركز نشر التراث، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

٣٧. **الحميري،** محمد بن عبد المنعم (٩٠٠هـ/١٤٩٤م).

- الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

٣٨. **ابن حنبل،** أحمد بن محمد (ت، ٢٤١هـ/٨٥٥م).

- المسند، ٢٠ جزء، تحقيق، أحمد محمد شاكر، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤١٦/١٩٩٥م).
- الزهد، راجعه، محمد بن عبد الحليم، (المغرب، مكتبة السلام الحديدية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٣٩. **الحنبلي، ابن داود** ، عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي (ت، ٨٥٦هـ/١٤٥٢م).

- الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق، مصطفى حميدة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

٤٠. **الخزرجي،** صفي الدين الحسين بن علي بن جمال الدين الأنصاري (ت، ٦٥٧هـ/١٢٥٨م).

- سير الأولياء في القرن السابع الهجري، تحقيق، مأمون ياسين، عفت حمزة، (بيروت، دار الفكر، ط١).

٤١. **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد (ت،٨٠٨هـ/١٤٠٦م).
- المقدمة، (بيروت، دار القلم، ط٥، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق، محمد الحافظ، (دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ،١٩٩٦م).

٤٢. **الخطيب**، لسان الدين ، محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي (٧٧٦هـ/١٣٧٤م).
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، جزءان، تحقيق، سيد كروي حسن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٤٣. **ابن خياط**، أبو عمرو خليفة بن خياط شباب العصفري، (ت،٢٤٠هـ/٨٥٤م).
- كتاب الطبقات، تحقيق، أكرم ضياء العمرى، (بغداد، جامعة بغداد، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).

٤٤. **الدارمي**، عبد الله بن عبد الرحمن.
- سنن الدارمي، جزءان، تحقيق، فواز أحمد زمرلي، (القاهرة، دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧).

٤٥. **الداوودي**، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت ٩٤٥هـ/١٥٣٨م).
- طبقات المفسرين، تحقيق، عبد السلام عبد المعين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

٤٦. **أبي داوود**، سليمان بن الأشعث.
- سنن أبي داوود، ٥ أجزاء، تحقيق: السيد محمد السيد، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٤٧. **الدميري**، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى (ت، ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).
- "حياة الحيوان الكبرى"، مجلدان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٨٧٦م).

٤٨. **الديلمي**، محمد بن الحسين (من أعيان القرن الثامن).
- بيان مذهب الباطنية وبطلانه، عني بتصحيحه، شر وطمان، (إستانبول، مطبعة الدولة، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م).

٤٩. **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٤١ مجلد، تحقيق: عبد السلام تدمري، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٩٤).

- دول الإسلام، جزءان، تحقيق، حسن مروة، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- سير أعلام النبلاء، ١٩ جزء، تحقيق، محب الدين العمروي، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء، تحقيق، أبو هاجر محمد زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٧ أجزاء، تحقيق، علي معوض وآخرين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٥٠. **الرازي**، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الشافعي (ت، ٦٠٦هـ/١٢٠٩م).

- حدائق الحقائق، تحقيق، إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق، محمد زينهم عزب،(القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- مختار الصحاح، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

٥١. **ابن رجب**، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين (ت، ٧٩٥هـ/١٣٩٢م).

- الذيل على طبقات الحنابلة، خرج أحاديثه، أسامة بن حسن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٥٢. **الزبيدي**، محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسني الواسطي (ت، ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م).

- تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٠ جزء، تحقيق، علي رشدي، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٥٣. **زروق**، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي (ت، ٨٩٩هـ/١٤٩٣م).

- قواعد التصوف، تحقيق، عبد المجيد خيالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٥٤. **سبط بن الجوزي**، شمس الدين يوسف (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد، ١٣٧هـ/١٩٥١م.

٥٥. **السبكي**، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م).

- طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ أجزاء، تحقيق، محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح الحلو.
- "معيد النعم ومبيد النقم"، (بيروت، دار الحداثة، ط٣، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م).

٥٦. **السخاوي**، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت، ٩٠٢هـ/١٤٩٦م).

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، ضبطه وصححه، عبد اللطيف عبد الرحمن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م).

٥٧. **ابن سعد**، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت، ٢٣٠هـ/٨٤٤م)

- الطبقات الكبرى، ٨ أجزاء، أعد فهارسها، رياض عبد الهادي، (بيروت، دار إحياء التراث الشعبي).

٥٨. **السكندري**، أبو العطاء أحمد بن محمد بن عبد الكريم.

- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، شرح، أحمد بن محمد بن عجيبة، (بيروت، دار الفكر).

٥٩. **السلمي**، أبي عبد الرحمن، (ت، ٤١٢هـ/١٠٢١م).

- طبقات الصوفية، تحقيق، نور الدين شرتيبة، القاهرة مكتبة الخابنجي، ط٣، ١٤٠٦م.

٦٠. **السمعاني**، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت، ٥٦٢هـ/١١٦٦م).

- الأنساب، ٦ أجزاء، وضع حواشيه، محمد عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

٦١. **السهروردي**، شهاب الدين عمر (ت، ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).

- عوارف المعارف، ضمن الجزء الخامس من إحياء علوم الدين، (بيروت، دار المعرفة).

٦٢. **السيوطي**، أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت، ٩١١هـ/١٥٠٥م).

- تاريخ الخلفاء، راجعه وعلق عليه: جمال مصطفى، (القاهرة، دار النصر للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، صححه وعلق عليه، عبد الله الغماري الحسني، (القاهرة، دار الفتح، ط٣، ١٤١٥هت/١٩٩٤م).
- نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فيليب حتى، (تونس، دار المعارف، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق، أبو الفضل إبراهيم، (مصر، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٧٨/١٤٨٧).

٦٣. **ابن سينا**، أبو علي الحسين بن عبد الله الملقب بالشيخ الرئيس (ت، ٤٢٨هـ/١٠٣٧م).

- "القانون في الطب"، ٤ أجزاء، تحقيق، سعيد اللحام، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٦٤. **الشاطبي**، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (ت، ٧٩٠هـ/١٣٨٨م).

- الاعتصام، جزءان، بيروت،(دار المعرفة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

٦٥. **أبو شامة**، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت،٦٦٥هـ/١٢٦٦م).

- "الروضتين وأخبار الدولتين النورية والصلاحية"، ٤ أجزاء، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- "تراجم رجال القرنين السادس والسابع"، المعروف، بالذيل على الروضين، وضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العيمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- "الباعث على إنكار البدع".

٦٦. **شاه**، ابن وصيف، (من رجال القرن السابع الهجري).

- جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور، تحقيق: محمد زينهم، (القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

٦٧. **ابن الشحنة**، محب الدين أبو الوليد محمد (ت، ٨١٥هـ/١٤١٢م).

- روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق، سعيد محمد مَهنَّى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٦٨. **ابن شداد**، بهاء الدين أبو العز يوسف بن رافع بن تميم الأسدي (ت، ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، (القاهرة، دار المنار، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

٦٩. **ابن شداد**، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت، ٦٨٤هـ/١٢٨٥م).

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، جزءان، تحقيق، يحيى عبارة، (دمشق، وزارة الثقافة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م).

٧٠. **الشعراني**، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري (ت، ٩٧٣هـ/١٥٦٥م).

- الطبقات الكبرى، المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيـر، ضبطه وصححه، خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٧١. **شهبة**، ابن قاضي ، بدر الدين أبي الفضل محمد بن تقي الدين (ت، ٨٧٤هـ/١٩٧٥م).

- الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق، محمود زايد،(بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م).

٧٢. **الشهرستاني**، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر (ت، ٥٤٨هـ/١١٥٣م).

- الملل والنحل، جزءان، تحقيق، محمد سيد كيلاني، (بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- الفتح الرباني والفيض الرحماني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٧٣. **الشوكاني**، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م).
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جزءان، وضع حواشيه، خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٧٤. **الصفدي**، خليل الدين بن أيبك (ت، ٧٦٤هـ/١٣٦٢م).
- "الوافي بالوفيات"، ٢٩ جزء، تحقيق، أحمد الأرناؤوط،(بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٧٥. **أبو طالب**، محمد بن علي بن عطية الحارثي (ت، ٣٨٦هـ/٩٩٦م).
- "قوت القلوب في معاملة المحبوب" (القاهرة، مطبعة الأنوار المحمدية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٧٦. **الطبراني**، أبو القاسم سليمان بن محمد بن أحمد بن أيوب اللخمي (ت، ٣٦٠هـ/٩٧١م).
- المعجم الصغير، (بيروت، دار الكتب العلمية).

٧٧. **الطبري**، أبي جعفر محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ/٩٢٢م).
- تاريخ الأمم والملوك، ٦ أجزاء،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٧٨. **الطوسي**، أبو نصر عبد الله بن علي السراج (ت، ٣٧٨هـ/٩٨٨م).
- اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ضبطه، كامل الهنداوي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

٧٩. **الظاهري**، غرس الدين خليل بن شاهين (ت، ٨٩٣هـ/١٤٨٧م).
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٨٠. **ابن ظفر**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الصقلي (ت، ٥٦٧هـ/١١٧١م).
- أنباء نجباء الأبناء، تحقيق، إبراهيم مؤنس، (القاهرة، دار الصحوة للنشر).

٨١. **العاملي**، محمد بن جمال الدين مكي (ت، ٧٨٦هـ/١٣٨٤م).
- الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ١٠ أجزاء، (بيروت، دار إحياء التراث، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٨٢. **ابن العبري**، أبو الفرج غر يغوريوس بن أهارون الملطي (ت، ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).
- تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه، خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٨٣. **ابن عبد البر**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرر (٤٦٣هـ/١٠٧٠م).
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ أجزاء، تحقيق، محمد البجاوي،(القاهرة، دار نهضة مصر).

٨٤. **ابن العديم**، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ/١٢٦١م).

- بغية الطلب في تاريخ حلب، ١٢ مجلد، تحقيق، سهيل زكار،(بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيهن خليل المنصور،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧/١٩٩٦م).

٨٥. **ابن عربي**، محيي الدين أبي عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي، (ت، ٦٣٨هـ/١٢٣٦م).

- ديوان الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، تحقيق، محمد حجة، (بيروت، دار الشروق).
- "الوصايا"، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- ترجمان الأشواق،(بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).
- "رسائل ابن عربي"، تحقيق، محمد شهاب الدين العربي،(بيروت، دار صادر، ط١، ١٤١٧هـ/١٧٩٧م).

٨٦. **ابن عساكر**، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت، ٥٧١هـ/١١٧٥م).

- تاريخ مدينة دمشق، ٨٠ مجلد، تحقيق، محب الدين أبي سعد العمروي، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه ورتبه، الشيخ عبد القادر بدران،(بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الحسن الأشعري، تحقيق، أحمد السقا،(بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٨٧. **العظيم أبادي**، أبي الطيب محمد شمس الحق. (غير معروف سنة الوفاة)، ولد سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م.

- "عون العبود" شرح سنن أبي داوود،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٨٨. **العليمي**، مجير الدين الحنبلي (ت، ٩٢٧هـ/١٥٢٠م).

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، الجزء الأول تحقيق، عدنان أبو تبانة، والجزء الثاني، تحقيق، محمود الكعانبة، (عمان، مكتبة دندس، ط١، ١٤٢٠، ١٩٩٩).

٨٩. **ابن العماد**، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد ابن محمد الحنبلي (ت، ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، (بيروت، دار الكتب العلمية).

٩٠. **العيدروس**، عبد القادر بن عبد الله (ت، ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م).

- تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، (بيروت، دار المعرفة).

٩١. **الغبريني**، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (٧١٤هـ/١٣١٤م).

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاته، تحقيق، عادل نويهض، (بيروت، دار الأفاق الجديدة، ط٢، ١٤٠٠هـ،١٩٧٩م).

٩٢. **الغـزالي**، أبي حامد محمد بن محمد (ت، ٥٠٥هـ/١١١١م).

- إحياء علوم الدين، ٥ أجـزاء، (بيروت، دار المعرفة).
- المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، شرحه، علي بوملحم،(بيروت، دار مكتبة الهلال، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- التبر المسبوك في نصيحة الملوك، راجعه، سامي خضر،(القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- مكاشفة القلوب، (القاهرة، دار الفجر للتراث، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).
- ميزان العمل، تحقيق، سليمان دينا، (مصر، دار المعارف، ط١، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).
- أيها الولد، (بيروت، دار ابن حزم، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- فضائح الباطنية، اعتنى به وراجعه، محمد علي القطب، (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٩٣. **ابن الغزي**، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن (ت، ١١٦٧هـ/١٧٥٣م).

- ديوان الإسلام، ٤ أجزاء، تحقيق، سيد كسروي، (بيروت، دار الكتب العلمية، "١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٩٤. **الغزي**، محمد بن محمد، (ت، ١٠٦١هـ/١٦٥١م).

- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ٣ مجلدات، تحقيق، جبرائيل سليمان جبور، (بيروت، دار الفكر، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥).

٩٥. **الغساني**، الملك الأشرف (ت، ٨٠٣هـ/١٤٠٠م).

- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق، شاكر عبد المنعم، (بيروت، دار التراث الإسلامي، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٩٦. **ابن فارس**، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت، ٣٩٥هـ/١٠٠٤م).

- معجم مقاييس اللغة، ٧ أجزاء، تحقيق، عبد السلام هارون، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- مجمل اللغة، تحقيق، زهير سلطان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٩٧. **الفاروقي**، محمد علي، (المتوفى في القرن الثاني عشر الهجري).

- كشاف اصطلاحات الفنون.

٩٨. **أبو الفداء**، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت، ٧٣٢هـ/١٣٣١م).

- "المختصر في أخبار البشر"، جزءان، علق عليه، محمود ديوب، ب(يروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٩٩. **ابن الفرات**، محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد المصري (ت، ٨٠٧هـ/١٤٠٥م).

- تاريخ ابن الفرات، تحقيق، حسن محمد الشماع.

١٠٠. **ابن فرحون**، إبراهيم بن نور الدين المالكي (ت، ٧٩٩هـ/١٣٩٦م).

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق، مأمون الجنان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

١٠١. **ابن الفوطي**، كمال الدين أبي الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيباني (ت، ٧٢٣هـ/١٣٢٣م).

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ط١، تحقيق، مهدي النجم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

١٠٢. **الفيروز أبادي**، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت، ٨١٧هـ/١٤١٤م).

- القاموس المحيط، ٤ أجزاء، (دار الكتاب العربي).

١٠٣. **ابن قدامة**، موفق الدين أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت، ٦٨٣هـ/١٢٨٤م).

- المغني، تحقيق، محمد شرف الدين خطاب سيد إبراهيم صادق، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- مختصر منهاج القاصدين، علق عليه، شعيب الأرنؤوط، (دمشق، مكتبة دار البيان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

١٠٤. **القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت، ٦٧١هـ/١٢٧٢م).

- الجامع لأحكام القرآن، ١٠ أجزاء، راجعه وعلق عليه، محمد الحفناوي، (القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

١٠٥. **القزويني**، زكريا بن محمد بن محمود (ت، ٦٤٦هـ/١٢٤٨م).

- آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت، دار صادر).

١٠٦. **القشيري**، أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت، ٤٦٥هـ/١٠٧٢م).

- الرسالة القشيرية، (ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٠٧. **ابن القلانسي**، حمزة بن أسد بن علي بن محمد (ت، ٥٥٥هــ/ ١١٦٠م).
- تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، (دمشق، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٣هــ/١٩٨٣م).

١٠٨. **القلقشندي**، أحمد بن علي، (ت٨٢١هــ/١٤١٨م).
- صبح الأعشى في صناعة، ١٤ جزء، شرحه وعلق عليه، محمد شمس الدين،(بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هــ/١٩٨٧م).

١٠٩. **ابن كثير**، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت، ٧٧٤هــ/١٣٧٢م).
- البداية والنهاية، ١٤ جزء، (بيروت، دار الفكر).

١١٠. **الكلاباذي**، أبو بكر محمد بن إسحاق (ت، ٣٨٠هــ/٩٩٠م).
- التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق، أحمد شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هــ/١٩٩٣م.

١١١. **الكندي**، ابو يوسف يعقوب بن إسحاق، (ت، ٢٥٢هــ/٨٦٧م).
- رسائل الكندي الفلسفية، مجلدان، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، (القاهرة، دار الفكر، ط١، ١٣٧٠هــ/١٩٥٠م).

١١٢. **ابن ماجة**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت، ٢٧٥هــ/٨٨٨م).
- سنن ابن ماجه، جزءان، علق عليه، محمد عبد الباقي، (مطبعة دار إحياء الكتب العربية).

١١٣. **المحاسبي**، أبو عبد الملك الحارث بن أسد المحاسبي البصري (ت، ٢٢٣هــ/٨٥٧م).
- رسالة المسترشدين، تحقيق، عبد الفتاح أبو غدة، (القاهرة، مطبعة دار السلام، ط٤، ١٤٠٢هــ/١٩٨٢م).

١١٤. **مسلم**، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت، ٢٦١هــ/٨٧٤م).
- صحيح مسلم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هــ/٢٠٠١م).

١١٥. **ابن المستوفي**، شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد الإربلي (ت، ٦٣٧هــ/١٢٣٩م).
- تاريخ إربل، جزءان، المسمى، نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل، تحقيق، سامي السيد الصقار،(العراق، دار الرشيد، ١٤٠١هــ/١٩٨٠م).

١١٦. **المقدسي**، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري (ت، ٣٨٠هــ/٩٩٠م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه، محمد مخزوم، (بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٠٨هــ/١٩٨٧م).

١١٧. **المقرئ**، أحمد بن محمد بن علي القيومي (ت، ٧٧٠هــ/١٣٦٨م).
- "المصباح المنير" (معجم عربي عربي)، (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤٢١هــ/٢٠٠٠م).

١١٨. **المقري التلمساني**، الشيخ أحمد بن محمد (ت، ١٠٤١هـ/١٦٣١م).

- "نفح الطيب من غض الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب"، ١٠ أجزاء، شرحه وضبطه، مريم قاسم الطويل، يوسف علي طويل، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

١١٩. **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت، ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

- كتاب: المقفى الكبير، تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية، تحقيق، محمد اليعلاوي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- "المواعظ والاعتبار بزكر الخطط والآثار" المعروف بالخطط المقريزية، جزءان، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينيةن ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" جزءان، تحقيق، محمد عبد القادر أحمد عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨ أجزاء، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٩٧م).

١٢٠. **المناوي**، زين الدين محمد بن عبد الرؤوف (ت، ١٠٢١هـ/١٦١٢م).

- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، المسمى الطبقات الكبرى، تحقيق، محمد أديب الجدر، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

١٢١. **ابن منقذ**، أسامة بن مرشد بن علي (٥٨٤هـ/١١٨٨م).

- "كتاب الاعتبار"، حرره، فيليب حتى، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
- المنازل والديار، تحقيق، مصطفى حجازي، (القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٢م).

١٢٢. **ابن منظور**، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت، ٧١١هـ/١٣١١م).

- لسان العرب، ١٥ جزء، (بيروت، دار صادر، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- مختصر تاريخ دمشق، تحقيق، أحمد راتب حموش وآخرين، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٢٣. **ابن النديم**، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ت، ٣٨٠هـ/٩٩٠م).

- "الفهرست"، ضبطه وشرحه وعلق عليه، يوسف علي طويل، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

١٢٤.**النسائي**، أبي عبد الرحمن احمد بن شعيب.

- السنن الكبرى، ٦ أجــزاء، تحقيق: عبد الغفار البنداري، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).

١٢٥.**ابن نظيف الحموي**، أبو الفضائل محمد بن علي (ت، ٦٣٧هـ/١٢٣٩م).

- التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان" تحقيق، أبــو العيــد دودو، (دمشق، مطبعة الحجاز بدمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

١٢٦.**النعيمي**، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت، ٩٧٨هـ/١٥٧٠م).

- "الدارس في تاريخ المدارس، اعد فهارسه، إبراهيم شمس الــدين، (بيــروت، دار الكتــب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

١٢٧.**النوبختي**، أبو محمد الحسن بن موسى (ت، ٢١٠هـ/٨٢٤م).

- "فرق الشيعة"، تعليق، السيد محمد صادق، بحر العلوم، (العراق، المطبعة الحيدريــة، ط٤، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م).

١٢٨.**النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣هـ/١٣٣٤م).

- "نهاية الأرب في فنون الأدب"، (مصر، وزارة الثقافة).

١٢٩.**ابن واصل**، جمال الدين محمد بن سالم (ت، ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).

- "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، خمس أجزاء، تحقيق، الجــزء الأول، جمــال الــدين الشيال، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
- الرسائل الفلسفية.

١٣٠.**ابن الوردي**، زين الدين عمر بن مظفر (ت، ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

- تاريخ ابن الوردي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

١٣١.**اليافعي**، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت، ٧٦٨هـ/١٣٦٦م).

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمــان، ٤ أجــزاء، وضــع حواشيه، خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.)

١٣٢.**ياقوت**، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت، ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

- "معجم الأدباء"، المعروف بإرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، ٢٠ جزء، ط٣، (بيروت، دار الفكر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- معجم البلدان، ٨ أجزاء، (بيروت، دار إحياء التراث، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

١٣٣.**اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر (ت، ٢٨٤هـ/٨٩٧م).

- البلدان، وضع حواشيه، محمــد أمــين ضــناوي، (بيــروت، دار الكتــب العلميــة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

١٣٤. **ابن أبي يعلى**، أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين (٥٢٦هـ/١١٣١م).

- طبقات الحنابلة، خرج أحاديثه، أسامة بــن حــسن، (بيــروت، دار الكتــب العلميــة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية:

Bibliography

1. Berkey, Jonathan P. *The Formation of Islam: Religinon and Society in the Near East,* 600-1800. New York: Cambridge University Press, 2003.
   The Book of Wisdom/. New York: Paulist Press, 1978.

2. *Sufi, Quran, Miraj, Poetic and Theological Writings Sufi, Quran, Miraj, Poetic and Theological Writings.* Translated by Sells, Michael A. New York: Paulist Press, 1996.

3. *Faith and Practice of Islam: Three Thirteenth Century Sufi Texts*/. Translated by Chittick, William C. Albany, NY: State University of New York Press, 1992.

4. Ibn al-Arabi. *The Bezels of Wisdom*/. Translated by Austin, R. W. J. New York: Paulist Press, 1980.

5. Karamustafa, Ahmet T. *Dervish Groups in the Islamic Later Middle Perkod, 1200-1550.* Salt Lake City, UT: University of Utah Press, 19947.

6. Maneri, Sharafuddin. *The Hundred letters/.* Translated by Jackson, Paul S. J. New York: Paulist Press, 1980.

7. Naser, Seyyed Hossein, ed. *Islamic Spirituality: Manifestations.* New York: Crossroad Herder, 1997.

8. Schimmel, Annemarie. Mystical Dimensions of Islam. Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1975.

9. Wheeler, Brannon M., ed. *Teaching Islam.* New York: Oxford University Press, 2003.

قائمـــة المراجـــع العربية:

١. **أحمد**، عزمي طه السيد.

- التصوف الإسلامي، حقيقته- وتاريخه ودوره الحضاري، (عمان، المؤسسة العربية للنـــشر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

٢. **أمين**، أحمد.

- ظهر الإسلام، ٤ أجزاء، (مصر، مكتبة النهضة المصرية، ط٥، ١٩٨٢/١٤٠٣م).

٣. **أمين**، حسين احمد.

- المائة الاعظم في تاريخ الإسلام، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).

٤. **الأمين**، عبد الله.

- دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة، (بيروت، دار الحقيقـــة، ط١، ١٤١٦هـــــ/ ١٩٨٦م).

٥. **أنيس**، ابراهيم وآخرين.

- "المعجم الوسيط"، جزءان، أشرف على الطبع ، حسن على عطيه، محمـــد شـــوقي أمـــين، (القاهره، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

٦. **البابانى**، إسماعيل باشا بن محمد أمين بن سليم البابـــاني أصـــلاً والبغـــدادي مولـــداً ومـــسكناً (ت، ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م).

- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عـــن أســـامي الكتـــب والظنـــون، جـــزءان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٧. **باشا**، عمر موسى.

- الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليـــك، (ســـوريه، دار الفكـــر، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي، (سوريه، دار الفكر، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٨. **بدوي**، جمال.

- "المسافرون إلى الله بلا متاع"، (مصر، الهيئة المصرية للكتاب، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- الأمام زيد حياته وعصره، آراءه وفقهه، (دار الفكر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).

٩. **بدوي**، عبد الرحمن.

- "مذاهب الإسلاميين - المعتزلة والأشـــاعرة والإســـماعيلية والقرامطـــة والنـــصيرية- "، (بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
- السائرون إلى الله بلا متاع.

١٠. **البنعلي**، أحمد بن حجر آل بوطامي.

- تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين، (المنصورة، دار القدس الشريف للطباعة والنشر، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١١. **بهجت**، منى محمد بدر محمد.

- أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، جزءان، (القاهرة، مكتبة زهراء الشرق للنشر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

١٢. **بيطار**، أمينة

- الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، (دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٤٠١هـ/١٩٨٥م).

١٣. **تامر**، عارف.

- معجم الفرق الإسلامية، (بيروت، دار المسيرة، ١٤٠١هـ،/ ١٩٩٠م).

١٤. **تريان**، الكساندر خاتشا.

- أهل الفتوه والفتيان في المجتمع الإسلامي، تقديم، صالح زهر الدين، (بيروت، المركز العربي للأبحاث، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨).

١٥. **التفتازاني**، أبو الوفا الغنيمي.

- مدخل إلى التصوف الإسلامي، (القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م).

١٦. **جاد الله**، منال عبد المنعم.

- التصوف في مصر والمغرب، (الإسكندرية، منشأه المعارف للنشر).

١٧. **جلاب**، حسن.

- بحوث في التصوف المغربي، (مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

١٨. **الجندي**، أنور.

- "العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي"، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٩. **حبشي**، حسن.

- الحروب الصليبية الأولى، (مصر، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م).

٢٠. **أبو حبيب**، سعدي.

- "القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً"، (دمشق، دار الفجر، ط٢، ١٤٠٨/١٩٨٨م).

٢١. **حسن**، عمار علي.

- "الصوفية والسياسة في مصر"، (المعادي، مركز المحروسه للبحوث والتدريب، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧).

٢٢. **الحفني**، عبد المنعم.

- معجم مصطلحات الصوفية، (بيروت، دار السيرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، (القاهرة، دار الرشيد، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- الموسوعة الصوفية أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية،(القاهرة، دار الرشاد، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٢٣. **الحلبي**، سليمان.

- "طائفة النصيرية" تاريخها وعقائدها، (القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٢٤. **حلمي**، أحمد كمال الدين.

- عمر الخيام عصراً وبيئة وانتاجاً، (القاهرة، مكتبة دار المعرفة، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م).
- الحياة الروحية في الإسلام، (القاهرة، مكتبة دار المعرفة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦).

٢٥. **حماده**، محمد عمر.

- أعلام فلسطين من القرن الأول حتى الخامس عشر الهجري، ٣ أجزاء، (دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م).

٢٦. **حمدان**، عبد الحميد صالح.

- طبقات المستشرقين، مصر، مكتبة مدبولي.

٢٧. **حمزة**، عبد اللطيف.

- ثلاث شخصيات في التاريخ "ابن المقفع – صلاح الدين – قراقوش"، (مصر، الهيئة المصرية للنشر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م).
- الحركة الفكرية في مصر في العصريين الأيوبي والمملوكي الأول، (مصر، الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- أدب الحروب الصليبية، (القاهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

٢٨. **الحميدة**، سالم محمد.

- الحروب الصليبية عهد الانقسامات الداخلية، جزءان، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٢٩. **حوى**، سعيد.

- تربيتنا الروحية، (دمشق، دار الكتب العربية، ط١، ١٢٩٩/ ١٩٧٩م).

٣٠. **الحياري**، مصطفى.
- "القدس في زمن الفاطميين والفرنجة"، (عمان، مكتبة عمان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٣١. **الخالدي**، صلاح عبد القادر.
- في ظلال القرآن في الميزان، (جدّة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٣٢. **الخطيب**، إبراهيم ياسين.
- دور التعلم في تحرير بيت المقدس إبان العصر الأيوبي، (عمان، دار جنين للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٣٣. **الخطيب**، أسعد.
- "البطولة والفداء عند الصوفية" دراسة تاريخية، (سورية، دار الفكر، ط٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٣٤. **الخطيب**، محمد محمد.
- "حركات الباطنية في العالم الإسلامي" عقائدها وحكم الإسلام فيها" (الأردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤).

٣٥. **درزينة**، محمد أحمد.
- صفحات من جهاد الصوفية والزهاد، (طرابلس، جروس برس للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٣٦. **رزق**، جابر.
- مذابح الإخوان في سجون ناصر، (مصر، دار الاعتصام، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

٣٧. **رزق**، عاصم محمد.
- خانقاوات الصوفية في مصر في العصريين الأيوبي والمملوكي، جزءان،(القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١٧/١٩٩٧م).

٣٨. **ريان**، محمد علي.
- الحركة الصوفية في الإسلام ، (الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٣٩. **الزحيلي**، وهبة.
- الفقه الإسلامي وأدلته، ٨ أجزاء، (دمشق، ط٣، ١٤٠٩/١٩٨٩م).

٤٠. **الزركلي**، خير الدين.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (بيروت، دار العلم للملايين، ط٨، ١٤١٠هـ/١٩٨٠م).

٤١. **زكار**، سهيل – سبانو، أحمد غسان.

- مائة أوائل، (دمشق، دار الملاح للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) .

٤٢. **أبو زهرة**، محمد.**حسن**، حسن ابراهيم.

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٣ أجزاء، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

٤٣. **الزين**، سميح عاطف.

- الصوفية في نظر الإسلام، (بيروت دار الكتاب، ط٢).

٤٤. **الساريسي**، عمر عبد الرحمن.

- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، دراسة وتحليل، (جدّة، دار المنارة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٤٥. **سالم**، السيد عبد العزيز

٤٦. طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، (الاسكندرية، مطابع رمسيس، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م).

٤٧. **ضيف**، شوقي.

- عصر الدول والإمارات " مصر والشام "، (مصر، دار المعارف، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م).

٤٨. **سركيس**، يوسف إليان.

- "معجم المطبوعات العربية والمعربة"، جزءان، (بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية).

٤٩. **سعد**، فهمي عبد الرازق.

- العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م).

٥٠. **سلام**، محمد زغلول.

- الأدب في العصر الأيوبي، (القاهرة، ١٣٧٨م/ ١٩٥٩م).

٥١. **السيد**، أحمد عزمي طه،

- حقيقة التصوف الإسلامي ودوره الحضاري، (الأردن، المؤسسة العربية الدولية للتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

٥٢. **سيد**، أيمن فؤاد.

- الدولة الفاطمية في مصر - تفسير جديد-، (القاهرة، الدار المصرية النسائية للنشر، ط٢، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٥٣. **سيسالم**، عصام - العاوور، صلاح.

- محاضرات في تاريخ الدويلات الإسلامية، (غزة، مكتبة دار المنارة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٥٤. **شادي**، صلاح.

- الشهيدان حسن البنا وسيد قطب، (المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط٣، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

٥٥. **الشرقاوي**، محمد عبد الله.

- الصوفية والعقل، دراسة تحليلية مقارنة للغزالي، وابن رشد، وابن عربي، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٥٦. **شمس الدين**، أحمد.

- "الغزالي، حياته، آثاره، فلسفته"، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٥٧. **شمس الدين**، محمد حسين.

- ابن تغري بردي، مؤرخ مصر في العصر المملوكي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٥٨. **شميساني**، حسن.

- مدارس دمشق في العصر الأيوبي، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- الحافظ بن عساكر علي بن هبة الله الدمشقي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).
- الحافظ شمس الدين الذهبي،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٥٩. **الشهابي**، قتيبة.

- "معجم دمشق التاريخي للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين"، جزءان، (دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٦٠. **شوفاني**، إلياس.

- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩، (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

٦١. **الشيبي**، كامل مصطفى

- صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، (بيروت، دار المناهل، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٦٢. **صبره**، عفاف سيد

- دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، جزءان، (القاهرة، دار الكتاب لجامعي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م).

٦٣. **الصلابي**، علي محمد محمد.

- الدولة العبيدية في ليبيا، (الأردن، دار البيارق، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -شخصيته وعصره-، (القاهرة، دار الفجر للتراث، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٦٤. **الصيادي**، محمد بن حسن الرفاعي الخالدي (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م)

- قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢هـ/ ١٩٩٩م).

٦٥. **ضيف**، شوقي.

- عصر الدول والإمارات - مصر – الشام - ، (مصر، دار المعارف، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

٦٦. **الطنطاوي**، علي.

- رجال من التاريخ، (سوريا، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

٦٧. **عاشور**، سعيد عبد الفتاح.

- الحركة الصليبية - صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى-، جزءان، (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- العصر المماليكي في مصر والشام، (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٦٨. **عاشور**، فايد حمّاد محمد.

- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١م/ ١٩٨١م).

٦٩. **عاصي**، حسين.

- المقريزي، مؤرخ الدولة الإسلامية في مصر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- المؤرخ أبو شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- ابن خلدون، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- العماد الأصفهان، حياته وعصره، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).

٧٠. **ابن عجيبة**، أحمد بن محمد الحسني.

- أيقاظ الهمم في شرح الحكم، جزءان، (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر).

٧١. **عبد الرازق**، سعاد علي.

- رابعة العدوية بين الغناء والبكاء، (مصر، مكتبة الانجلو المصرية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م).

٧٢. **عبد الله**، يسرى عبد الغني.

- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، (بيروت، دار الكتب العلميــة، ط١، ١٤١١هــ/١٩٩١م).

٧٣. **عبد المهدي**، عبد الجليل حسن.

- المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ودورها في الحركة الفكريــة، جزءان، (عمان، مكتبة الأقصى، ١٤٠١هــ/١٩٨١م).

٧٤. **العروسي**، مصطفى بن محمد بن أحمد بن موسى (ت، ١٢٩٣هــ/١٨٧٦م).

- "نتائج الأفكار القدسية"، ٤ أجزاء، (مصر، دار السلام، ١٤٠٢هــ/١٩٨٢م).

٧٥. **العسلي**، بسام.

- فن الحرب الإسلامي، ٥ مجلدات، (بيروت، دار الفكر، ١٢٠٨هــ/ ١٩٨٨م).

٧٦. **العسلي**، كامل جميل.

- معاهد العلم في بيت المقدس، (عمان، المطابع التعاونية، ١٤٠٢هــ/١٩٨١م).

٧٧. **عطوي**، علي بخيت.

- ابن الفارض شاعر الغزل فـــي الحـــب الإلهـــي، (بيـــروت، دار الكتـــب العلميـــة، ط١، ١٤١٤هــ/١٩٩٤م).

٧٨. **العقيقي**، نجيب.

- المستشرقون، موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنهم منذ ألــف عام وحتى اليوم، ٣ أجزاء، (القاهرة، دار المعارف).

٧٩. **عنان**، محمد عبدالله.

- ابن خلدون حياتـــه وتراثـــه الفكـــري، (القـــاهرة، مؤســـسة مختـــار للنـــشر والتوزيـــع، ١٤١٢هــ/١٩٩١م).

٨٠. **عودة**، أمين يوسف.

- تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، (الأردن، دار أزمنة للنشر، ط١، ١٤١٦هــ/١٩٩٥).

٨١. **عوض**، محمد مؤنس أحمد.

- الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، (مصر، عين للدراسات والبحـــوث، ط١، ١٤١٧هــ، ١٩٩٦م).
- دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب - العصور الوســـطى-، (مـــصر، عـــين للدراسات والبحوث، ط١، ١٤٢٣هــ/٢٠٠٢م).
- سندباد في عـــصر الحـــروب الـــصليبية، (مـــصر، عـــين للدراســـات والبحـــوث، ط١، ١٤٢٣هــ/٢٠٠٢م).

٨٢. **عويس**، عبد الحليم.

- ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، (القاهرة، الزهـراء للإعـلام العربي، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).

٨٣. **عويضة**، كامل محمد محمد.

- عبد الرحمن بن الجوزي شيخ الزهاد وإمام الوعاظ، (بيروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- الحارث بن أسد المحاسبي العالم الزاهـد الفقيـه، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- إبراهيم بن أدهم الأمير الزاهد، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- تقي الدين أحمـد بـن تيميـة، شـيخ الإسـلام، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٨٤. **عيسى**، عبد القادر.

- حقائق عن التصوف، (الأردن، المطبعة الوطنية، ط٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٨٥. **غالب**، مصطفى.

- الغزالي، (بيروت، مكتبة الهلال، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م).
- الحركات الباطنية في الإسلام، (بيروت، دار الأندلس، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

٨٦. **الغراب**، محمود محمود.

- الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، ترجمة حياته مـن كلامـه، (دمـشق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٨٧. **غلاب**، محمد

- التنسك الإسلامي منشؤه وتطوره ومذاهبه ورجاله، (القاهرة، لجنة التعريف بالإسلام للنشر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

٨٨. **غوانمه**، يوسف.

- الزلازل في بلاد الشام في العصر الإسلامي وأثرها على المعالم العمرانيـة، (الأردن، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٨٩. **الفاخوري**، حنا – الجر، خليل.

- "تاريخ الفلسفة العربية"، ٤ أجزاء، (بيروت، دار الجيل، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٩٠. **الفاروقي**، محمد علي.

- كشاف اصطلاحات الفنون، ٤ أجزاء، تحقيق: عبد البديع، (مـصر، المؤسـسة المـصرية العامة للنشر، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م).

٩١. **الفاسي**، شمس الدين.

- حقيقة التصوف، (مصر، دار المعارف، ١٤١٢هـ/١٩٩١م).

٩٢. **فروخ**، عمر.

- التصوف في الإسلام، (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- تاريخ الأدب العربي، ٤ أجزاء، (بيروت، دار العلم للملايين، ط٧، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٩٣. **فضل الله**، مهدي.

- مع سيد قطب في فكرة السياسي والديني، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

٩٤. **الفقي**، محمد.

- النفس أمراضها وعلاجها في الشريعة الإسلامية، (مصر، مكتبة ومطبعة صبح وأولاده، ط١، ١٩٧٠/١٣٩٠).
- التصوف حياة وسلوك، (القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع، ١٣٩٩ – ١٩٧٩).

٩٥. **القادري**، عبد الحي.

- الزاوية القادرية عبر التاريخ والعصور، (تطوان، مطابع الشويخ، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

٩٦. **قاسم**، قاسم عبده.

- ماهية الحروب الصليبية – الأيديولوجية – الدوافع – النتائج، (مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

٩٧. **القرضاوي**، يوسف.

- الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، (القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
- الحياة الربانية والعلم، (القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٩٨. **قطب**، سيد.

- في ظلال القرآن ٦ أجزاء، (مصر، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

٩٩. **كامل**، عمر عبد الله.

- التصوف بين الإفراط والتفريط، (دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م).

١٠٠. **كحالة**، عمر رضا.

- "معجم المؤلفين"، ٤ أجزاء، اعتنى به وجمعه، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

١٠١. **كرد علي**، محمد.

- خطط الشام، ٦ أجزاء، (دمشق، مكتبة النوري، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٧م).

١٠٢. **الكردي**، محمد أمين (ت، ١٣٣٢هـ/١٩١٣م).

- تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، علق عليه، محمد رياض، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

١٠٣. **كوب**، عبد الحسين رزين.

- الفرار من المدرسة - دراسة في حياة وفكر أبو حامد الغزالي-، (بيروت، دار الروضة، ط١، ١٤١٢م/١٩٩٢م).

١٠٤. **كوثراني**، وجيه.

- الفقيه والسلطان، (بيروت، دار الراشد، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

١٠٥. **الكوهن الفاسي**، أبي على الحسن بن محمد بن قاسم.

- طبقات الشاذلية الكبرى- المسمى، جامع الكرامات العليا في طبقات السادة الشاذليه-، وضع حواشيه، مرسي محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢/ ٢٠٠١م).

١٠٦. **الكيلاني**، أحمد قدري.

- الأمير الفارسي والأديب الشاعر أسامة بن منقذ، سيرة حياته، (سورية، المطبعة العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

١٠٧. **الكيلاني**، ماجد عرسان.

- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، (السعودية، الدار السعودية للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

١٠٨. **مؤنس**، حسين.

- عالم الإسلام، (القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
- نور الدين بن زنكي فجر الحروب الصليبية، (القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

١٠٩. **مبارك**، زكي

- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، جزءان، (مصر، مطبعة الرسالة، ط١، ١٣٥٧/ ١٩٣٨م).

١١٠. **مبارك**، علي باشا.

- الخطط التوفيقية، ١٠ أجزاء الجديدة لمصر والقاهرة ومدتها وبلادها القديمة والشهيرة، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م).

١١١. **المجذوب**، محمد.

- علماء ومفكرون عرفتهم، ٣ أجزاء، (المدينة المنورة، دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م).

١١٢. **محمد**، أسماء أبو بكر.

- ابن بطوطة الرجل والرحلة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

١١٣. **محمود**، عبد الحليم.

- المدرسة الشاذلية الحديثة وأمامها أبو الحسن الشاذلي، (مصر، دار الكتب الإسلامية).

١١٤. **مخلوف**، محمد بن محمد .

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، جزءان، خرج حواشيه وعلق عليه، عبد المجيد خيالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

١١٥. **مطيع**، محمد مطيع الحافظ.

- المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي الصالحي، سورية، المطبعة العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- الجامع الأموي بدمشق، (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

١١٦. **المهدلي**، محمد عقيل بن علي.

- مدخل إلى التصوف الإسلامي، (القاهرة، دار الحديث، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٨م).

١١٧. **النبهاني**، يوسف بن إسماعيل .

- المجموعة النبهانية، ٤ أجزاء، (دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١).
- جامع كرامات الأولياء، جزءان، ضبطه وصححة، عبد الوارث محمد علي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧/١٩٩٦م).

١١٨. **النجار**، عامر.

- الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها- الرافعي – الجيلاني – البدوي – الشاذلي – الدسوقي، (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية).
- الأخلاق عند الغزالي، (بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ١٣٤٤هـ/١٩٢٤م).

١١٩. **الندوي**، ابو الحسن على الحسيني.

- ربانية لا رهبانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، جزءان، (دمشق، دار ابن كثير للنشر).

١٢٠. **النشار**، علي سامي.

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ٣ أجزاء، (مصر، دار المعارف، ط٤، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

١٢١. **يوسف**، إرشيد.

- سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥ – ٥٧٠، (عمان، المؤسسة الصحفية الأردنية الوطنية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م).

قائمة المصادر الأجنبية المترجمة

١. **التطيلي**، بنيامين، (ت، ٥٦٩هـ/١١٧٣م).

- رحلة بنيامين، ترجمة، عزرا حداد، المدرسة الوطنية، (بغداد، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م).

٢. **ثيودريش**، الرحالة الألماني (السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي).

- وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة، سعيد البيشاوي – رياض شاهين، (رام الله، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٣. **دانيال**، الحاج الروسي دانيال الراهب.

- رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الأراضي المقدسة سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، ترجمه، سعيد البيشاوي – داود أبو هدية، (عمان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٤. **الشارتري**، فوشيه.

- "تاريخ الحملة إلى القدس"، ترجمة زياد العسلي، (بيروت، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٥. **الصوري**، وليم.

- تاريخ الحروب الصليبية المسمى "الأعمال المنجزة فيما وراء البحار"، جزءان، ترجمة سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٦. **نظام الملك**، حسن بن علي.

- سياسة نامة، ترجمة يوسف حسين بكار، (بيروت، دار القدس).

قائمة المراجع الأجنبية المترجمة

١. **باركر**، أرنست.

- الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، (بيروت دار النهضة العربية، ط٤، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م).

٢. **بالار**، ميشيل.

- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة بشير السباعي، (مصر، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٣. **براور**، يوشع.

- عالم الصليبيين، ترجمة: قاسم عبدو قاسم - محمد خليفة حسن، (مصر، عين للدراسات والبحوث الإسلامية والاجتماعية، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٤. **بروكلمان**، كارل.

- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس – منير البعلبكي، (بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٣٥٢هـ/١٩٤٨م).

٥. **تسيهر**، أجناس جولد.

- "العقيدة والشريعة في الإسلام"، تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية"، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، (بيروت، دار الرائد العربي، ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م).

٦. **رنسيمان**، ستيفن.

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، (بيروت، دار الثقافة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).

٧. **ستيس**، ولتر.

- التصوف والفلسفة، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٨. **سميث**، جوناثان ريلي.

- الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، (مصر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

٩. **شاخت وبوزورت**.

- تراث الإسلام، جزءان، ترجمة حسين مؤنس وآخرين، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

١٠. **كاهن**، كلود.

- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، (القاهرة، سينا للنـــشر، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

١١. **كريزر**، كلوس وآخرين.

- معجم العالم الإسلامي، ترجمة، جابر كتورة.

١٢. **كوربان**، هنري.

- تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة، نصير مـــروة وآخـــرون، (بيـــروت، عويـــدات للنـــشر والطباعة، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

١٣. **ماير**، إتش .إ.

- تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة محمد فتحـــي الـــشاعر، (القـــاهرة، دار الأمـــين للنـــشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٠م).

١٤. **متز**، آدم.

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة فـــي الإســـلام، جـــزءان، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريده، (بيروت، دار الكتاب العربي).

١٥. **مرغوليوث**.

- دراسات عـــن المـــؤرخين العـــرب، ترجمـــة حـــسين نـــصار، (القـــاهرة، دار الثقافـــة، ١٩٢٩/١٣٤٨م).

١٦. **معلوف**، أمين.

- الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ترجمة عفيف دمشقية، (بيروت، دار الفـــارابي، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

قائمة الموسوعات:

١. **ألفا**، روني إيلي.

- موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، جزءان، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٢. **البعلبكي**، منير.

- موسوعة المورد العربية، جزءان، دائرة معارف ميسرة مقتبسة عـن موسـوعة المـورد، (بيروت، دار العلم للملايين، ط٦، ١٤١١هـ/١٩٩٠).
- دائرة المعارف الإسلامية، ١٥ مجلد، أصدرها باللغة العربيـة، ترجمـة أحمـد الـشناوي وآخرين ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.

٣. **الدباغ**، مصطفى مراد.

- موسوعة بلادنـا فلـسطين، ١١مجلـد، (كفـر قـرع، دار الهـدى للطباعـة والنـشر، ١٤٣٢هـ/٢٠٠٢م).

٤. **روزنتال**، وآخرين.

- الموسوعة الفلسفية، ترجمة، سمير كرم، (بيروت، دار الطليعـة للطباعـة والنـشر، ط٧، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٥. **صانـع**، أنيس، وآخرون.

- الموسوعة الفلـسطينية "٧ مجلـدات"، هيئـة الموسـوعة الفلـسطينية، ، (بيـروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).

٦. **العفيفي**، عبد الحكيم.

- موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى - التاريخ والآثار، أعلام الأمكنـة، والرجـال-، جزءان، (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- موسـوعة ألـف مدينـة إسـلامية، (مـصر، مكتبـة الـدار العربيـة للكتـاب، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

٧. **المسيري**، عبد الوهاب.

- موسوعة اليهـود واليهوديـة والـصهيونية، ٨ أجـزاء، (بيـروت، دار الـشروق، ط١، ١٣٢٠هـ/١٩٩٩).

٨. **زيادة**، معين.

- الموسوعة الفلسفية، جزاءن، (معهد الإنماء العربي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

قائمة الدوريات

١. **دمير**، ميشيل.

- الوقف الإسلامي في فلسطين، مجلة هدى الإسلام، إدارة الأوقاف والشئون الإسلامية، (القدس، دار الأيتام الإسلام، العدد ٥، ص١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٢. **الشوبكي**، محمود يوسف.

- مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، مجلة الجامعة الإسلامية، (غزة، العدد، ٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

٣. **العجمي**، أبو اليزيد أبو زيد.

- نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي، مجلة الدراسات الإسلامية، (باكستان، مجمع البحوث الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية، العدد الأول، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م).

٤. **عودة**، أمين يوسف.

- أصل مصطلح التصوف ودلالته ، مجلة الدراسات الإسلامية، (باكستان، مجمع البحوث الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية، العدد الأول، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣).

٥. **القطان**، الشيخ إبراهيم.

- "الغزالي المربي والمعلم، مهرجان الغزالي في دمشق، (سوريا، إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١ م).

٦. **مدكور**، عبد الحليم عبد المنعم.

- لمحة عن التصوف عند المسلمين - نِشأته ومصادره وموقف المسلمين منه-، مجلة المسلم المعاصر، (تصدر عن مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٦٠، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٧. **مصطفى**، شاكر.

- فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأموي، الموسوعة الفلسطينية، (بيروت، هيئة الموسوعة، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- آل قدامة والصالحية، مجلة الحضارة الإسلامية، حوليات كلية الآداب، (الكويت، كلية الآداب جامعة الكويت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م).
- الأوقاف والعلم في بيت المقدس، (مجلة الحضارة الإسلامية، ج٣، ص١٢٤).

٨. **نصر**، محمد.

- فلسفة السياسية عند الغزالي، مهرجان الغزالي في دمشق، (سوريا، إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م).

الرسائل الجامعية

١. **شاهين**، رياض مصطفى.

- الملك المعظم عيسى، (٥٧٦-٦٢٤هـ/١١٨٠-١٢٢٧م)، سياسته الداخلية والخارجية، رسالة دكتوراه غير منشورة، (السودان، جامعة الخرطوم، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٢. **الشيخ عيد**، يوسف ابراهيم.

- أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، رسالة ماجستير في التاريخ من كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٣. **المدني/** رشاد عمر.

- الحياة العلمية في فلسطين في مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي، ٤٩١ – ٦٩٠هـ/ ١٠٩٨ – ١٢٩١م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤. **المصري**، جهاد سليمان سالم.

- "التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، ٥٧٠هـ - ٦٤٨/ ١١٧٤م – ١٢٥٠م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم، جامعة آل البيت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

Islamic University – Gaza.
Deanery of High Studies.

Department of History Archaeology.



The Sofi Movement in Al-Sham During the Crussades

Prepared by:

Reiad Salih Hasheesh

Supervised by:

Dr. Reiad M. Shaheen

Associate Prof. in Department of History and Archaelogy
Faculty of Arts, Islamic University – Gaza, Palestine

This research is a requirement for M.A. program in the Islamic History

1426H/2005A.D.